بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

السياق وأثره في الدرس اللغوي

دراسة في ضوء علم اللغة الحديث

إعداد

ابراهيم محمود خليل

إشراف

الأستاذ الدكتور محمود السمرة

رئيس الجامعة الأردنية

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراه
في تخصص اللغة العربية وآدابها من
كلية الدراسات العليا
في الجامعة الأردنية
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

المحتويات

المقدمة ٥

الفصل الأول

السياق والدرس اللغوي الحديث

١ - تطور الدرس اللغوي..... ١٤
٢ - سوسير والدرس اللغوي الحديث..... ١٦
٣ - حلقة براغ ومدرسة كوبنهاجن..... ٢٠
٤ - المدرسة اللغوية الانجليزية..... ٢٦
٥ - المدرسة اللغوية الاميركية..... ٣١
٦ - نظرية السياق: البلغة والاصطلاح..... ٣٧
٧ - المفهوم النظري للسياقية ودورها في البحث..... ٤٤
٨ - اللغويون العرب والسياق..... ٥٨

الفصل الثاني

اثر السياق في البحث الصوتي

١ - السياق الصوتي Phonology..... ٧٦
٢ - اثر السياق في البحث الصوتي العربي..... ٨٦
٣ - المماثلة او تقريب الاصوات..... ٨٩
٤ - المخالفة Dissimlation..... ٩٥
٥ - الاعلال Ablaut..... ٩٧
٦ - الامالة..... ١٠٠
٧ - الهمزة وتنوعها السياقي..... ١٠٥
٨ - التنوع السياقي للنون..... ١٠٨
٩ - الابتداء والوقف..... ١٠٩
١٠- التنغيم Intonation..... ١١٨
١١- القلب المكاني Metathesis..... ١٢٣
- خلاصة الفصل الثاني ١٢٤

الفصل الثالث

اثر السياق في البحث الدلالي

١ - السياق والبحث الدلالي..... ١٢٧

٢ - السياق والمعنى..... ١٣٣

٣ - الوظائف الدلالية للسياق..... ١٤٥

٤ - السياق والبحث الدلالي لدى العرب..... ١٥٥

٥ - اللغويون العرب والسياق..... ١٦٤

٦ - التصنيف السياقي للالفاظ..... ١٧٦

٧ - المعجم العربي والسياق التفسيري..... ٢٠١

الفصل الرابع

اثر السياق في البحث النحوي

١ - دراسة التراكيب في النحو الحديث..... ٢١١

٢ - الجملة في النحو العربي..... ٢١٧

٣ - النحو العربي والسياق الحالي..... ٢٢٤

٤ - العلاقات السياقية وتاليف العبارة..... ٢٣٠

أ - علاقة المجاورة..... ٢٣٠

ب - علاقة الترابط (الفصل والوصل)..... ٢٣٢

جـ- التلازم والتضام..... ٢٣٨

د - التعلق..... ٢٤١

هـ- التقديم والتاخير..... ٢٤٣

و - السياق والحذف..... ٢٥٣

ز - المطابقة والتراكيب..... ٢٦١

- خلاصة الفصل الرابع..... ٢٦٤

- الخاتمـــة ٢٦٦
- ملخص بالانجليزية Abstract ٢٦٩

ملحقـــات

١ - المصادر العربية ٢٧٢
٢ - المراجع العربية ٢٨٣
٣ - المقالات..... ٢٩٠
٤ - المراجع المترجمة ٢٩٠
٥ - المراجع الانجليزية ٢٩٣

مقدمة

كان بودي بعد أن انهيت السنة الثانية للدراسات العليا في قسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة الأردنية أن اتناول في اطروحتي للدكتوراه موضوعاً في اللغة قريباً من النقد الأدبي، بحيث تكون المسافة بين الموضوع والممارسة النقدية مسافة قصيرة، وكان أن اخترت موضوعاً حول الأسلوبية في النقد الحديث، واستشرت استاذي الدكتور محمود السّمرة في هذا الموضوع، فاثنى عليه وشجعني على المضي فيه، لاسيما بعد أن قدمت له فكرة موجزة عن تصوري للموضوع، واطلعت استاذي الدكتور نهاد الموسى على هذا الموضوع، فشجعني على تناوله، وارشدني الى بعض مراجعه.

وما كدت ابدأ البحث بالنظر في بعض المراجع حتى وجدتني الموس شيئاً فشيئاً في ميدان الدراسات اللغوية الحديثة، مستنتجاً ان موضوع الاسلوبية يتكيء اساساً على موضوع الدراسات الالسنية الحديثة. وقد لاحظت من الكتابات في علوم اللغة الحديثة تركيزاً على السياق، ودوره في فهم الخطاب الكلامي، وتقويمه لا ببعده اللغوي حسب بل ببعده الاجتماعي، وكنت قد قرات كتاب الدكتور نهاد الموسى حول "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث" ووقفت طويلاً عند الفصل الذي تناول فيه هذا الموضوع، فرايت تناوله له موجزاً شديد الإيجاز، مختصراً شديد الاختصار، مقتصراً على النحو ومسائله. فاحببت التعمق في هذا الموضوع، والتوسّع فيه، بحيث يشمل مستويات الدرس اللغوي الاخرى من صوتيّة، ودلاليّة، وغيرها ... مع التعمّق والتوسّع في باب النحو وعلاقته بالسياق، والبعد الاجتماعي للغة. وصرفت النظر عن الموضوع السابق،

فعرضت الموضوع الجديد على أستاذي المشرف، فقدم لي نصائحه، وإرشاداته، فافدت كثيراً منها، وسهلت علي المضي في خطوات البحث ومجرياته.

ومن المعروف أنّ اللغة العربية تختلف عن غيرها من اللغات في ان لها كتاباً مقدساً هو القرآن الكريم، وقدسية هذا الكتاب لدى المسلمين جعلت اهتمامهم بها وبدراستها اهتماماً يفوق اي اهتمام بلغة اخرى. ولذلك نجد اللغويين والباحثين في التفسير والمعاني والالفاظ من المسلمين، عرباً وغير عرب، ينتجون في العصور الاولى من تاريخ الاسلام تراثاً ضخماً يشمل مختلف جوانب البحث من صرف ونحو، وبلاغة، واساليب، واصوات وغيرها.

وفي هذا التراث الضخم من البحوث اللغوية ما لا يزال يتمتع بقيمة علمية ولغوية كبيرة، حتى في عصرنا هذا الذي قطعت فيه مناهج النظر اللساني شوطاً بعيداً في عصرنة هذا العلم وتحديثه، والاقتراب به من مستوى العلوم الطبيعية البحتة.

ومن الغريب ان بعض المثقفين العرب ممن ينبهرون بالدراسات الغربية الجديدة انبهاراً سريعاً يتعجّلون في الأحكام، فيصدرون حكمهم على الدراسات اللغوية العربية بانها دراسات سطحية وفجة، او عقيمة لا قيمة لها، ولكن الدراسة المتعمّقة للجهود المتراكمة في بطون الكتب، تشفّ عن حقيقة تكذب هذه المزاعم وتفندها، وليس ادل على ذلك من ان اللغويين العرب سبّقوا الى معرفة الكثير من منطلقات الالسنية الجديدة، وتحدثوا عنها، وخاضوا جدلاً حولها، وجاءوا فيها بالعجيب المذهل الذي يدهش له الدارس المتعمق.

فإذا كان علم اللغة يقول باعتباطية العلاقة بين اللفظ ومعناه، فإن اللغويين العرب سبق ان قالوا بهذه الحقيقة، وتحدثوا عن الدلالة الوَضْعِيّة والدّلالة الاصطلاحية للفظ، وان اللغة متواضَعٌ عليها، وان العلاقة بين الكلمة ومعناها ليست علاقة جوهرية، وتحدثوا عن اثر البيئة الواسع في اللغة من حيث الاصوات والاساليب واللهجات والتراكيب، وتكلم ابن حزم الاندلسي (٤٥٦ هـ) على الفروق بين لغة اهل قرطبة وغيرها من لغات اهل البيئة الاندلسية. وتحدثوا عن السّليقة اللغوية وانها سليقة مكتسبة وليست موروثة، او فطرية، كما يؤكد شومسكي. وشبّهها ابن خلدون (٨١٦/هـ) بملكات الصناعة التي تكتسب بالمران والاستعمال، وتتطور بهما من حال إلى حال. وتطرقوا في مجال الصوتيات الى الكثير من القوانين المتحكّمة بالتغيرات المنْطْقيّة التي تقع للاصوات بحسب السياق، واشاروا إلى الحركات، وانها قريبة من اصوات المد مما يتفق ومناهج البحث الصوتي الحديث.

وسبق ابن جني (٣٩٢هـ/١٠٠١م) غيره من اهل النظر اللغوي في الكلام على طول الصوت اللغوي، وتاثيره في ابنية الالفاظ، والقيمة الدلالية للزيادة الصوتية، وتاثر المعنى بالتنغيم وما شاكله. كما سبق اللغويون العرب غيرهم من اللغويين المحدثين في الدعوة الى دراسة اللغة من خلال تحقّقها في الاستعمال، ومبدا السماع من المبادئ الاساسية في النحو العربي إلى جانب القياس، ويكرر سيبويه وغيره من كبار النحويين قولهم: "كذا سمعناه من العرب". وقيل: إن الكساني (١٨٩/هـ) عجز عن تعليل أحد الوجوه غير المقبولة في "اعجبني أيّهم قام" فقال: "اي هكذا خلقت". وهذا مظهر من مظاهر التناول الوصفي لقضايا اللغة والنحو.

والمبدأ الشكلي - في الدراسة النحوية - من المبادئ التي تركز عليها المدرسة التوزيعية، وهو من المبادئ التي قام عليها النحو العربي.

فالنحاة يصرّون على القول بأن الزجاج فاعل في جملة مثل "انكسر الزجاج" مع أنه في الحقيقة ليس كذلك، بل وقع عليه تاثير الفعل. وقد لجأوا قبل التحويليّين الى دراسة الوجوه المحتملة للبنية الواحدة فيما سموه التقدير. وهو يشبه اللجوء الى البنية الجوانية Deep Structure عند شومسكي. وفي مجالات الدلالة سبق اللغويون العرب الى القول بأن لسياق المقام ما لسياق المقال من اثر في تمييز دلالات الالفاظ وتقوية المعاني. وصنفوا معاجم للالفاظ على اساس التبويب المعنوي بحيث كانت اعمالهم هذه تمهيداً لما يعرف بـ"الحقول الدلالية" في علم اللسان الحديث. كما صنفوا الألفاظ في مجموعات وفئات بحسب العلاقات السياقية، وتحدثوا عن الاضداد، ودور السياق اللغوي في تحديد المعنى المطلوب للفظ المشترك، وغيره. وتاملوا وظيفة القرائن الحالية والمقالية في تمييز انواع المجاز والكنايات والعبارات اللغوية المختلفة.

من هنا جاء اهتمامي بالموضوع، وشجّعتني هذه اللمحات على مواصلة البحث في دراسة السياق، وتاثيره في الدرس اللغوي، بحيث تقوم الدراسة على مقارنة بين النظر اللغوي الحديث وما جاء عند رواد البحث اللساني العربي. واقتضى الأمر أن اخصص فصلاً من خُطة البحث لتطور الدَّرْس اللغوي، وتناولت في هذا الفصل نشاة علم اللغة الحديث، وما قدمته دروس سوسير Saussure من مساهمات في تحويل هذا العلم من علم يعتمد النظر التاريخي الى علم يركز على اللغة من

حيث هي لغة as it's، مشيراً إلى أبرز المنطلقات اللغوية في كتابه "دروس في الألسنية العامة"؛ وتأثير هذه المنطلقات في مدارس علم اللغة، ومنها "حلقة براغ" ومدرسة باريس، ومدرسة كوبنهاجن، والمدرسة اللغوية الانجليزية، مع وقفة متأنية عند آراء العالم اللغوي البريطاني جون روبرت فيرث Firth لما لآرائه من اثر في دراستنا هذه.

كما تناولت بشيء من الاختصار المدرسة اللغوية الامريكية، مسلطاً الضوء على بداياتها، وتأثرها بمنهج سوسير الذي سبق ذكره، واختتمت هذا التطواف بالكلام عن نظرية شومسكي اللغوية وبعض مفاهيمها الأساسية، بما يلقي الضوء على نظرية السياق.

وتناولت في الفصل ذاته نظرية السياق، وآراء اللغويين في هذه النظرية، إضافة الى مفهوم السياق نفسه، وكيف يتجلى هذا المفهوم في عملية بناء الكلام وفهمه، مشيراً الى المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها هذا المفهوم. وبعد أن استوفيت هذا الجانب لدى اللغويين الغربيين المحدثين تحدثت عن اللغويين العرب، واحتكامهم الى السياق في كثير من مستويات التحليل اللغوي، كالاصوات والدلالات والتراكيب النحوية والاسلوبية.

وجعلت الفصل الثاني من هذا البحث لموضوع السياق واثره في البحث الصوتي، وانطلقت فيه من تحديد مقترح لمفهوم السياق الصوتي Phonetic Context، وما يشيع في اللغات المختلفة من تغييرات نُطقية تطرأ على الأصوات الصَّحيحة وفقاً لما يجاورها من أصوات، وقدّمت استقصاء لبعض هذه التغييرات وفيها المماثلة والمخالفة، والإعلال، والإمالة، والهمز، وتنوع نطق الصوت الواحد

٣٩١٤٩٢

بحسب موقعه من البنية، والتنغيم، وكذلك الوقف والابتداء، والقلب المكاني إضافة إلى جوانب اخرى كثيرة مما يقع تحت ما يعرف بالبحث الفونولوجي. وقد استقريت في سبيل ذلك عددا من المصادر النحوية واللغوية العربية القديمة، وحاولت الوقوف على مذاهب اللغويين العرب في تعليلهم للتغيير النطقي واسبابه وعلاقته بموضوع الصوتيات الخالص، ووجدت اراءهم - على قِدَمِها - لا تختلف كثيرا عن تعليلات المحدثين.

اما الفصل الثالث، وبحسب ما يمليه التدرج في مستويات الدّرس اللغوي، فقد خُصّص لبحث أثر السياق في الدرس الدلالي. وبهذا الصدد لا بد من ان اقدم تعريفا موجزا جدا بعلم الدلالة، وتطوره، نظرا للمعطيات الجديدة التي يزخر بها هذا العلم، مما يعد غريبا، غير مألوف، في الدراسات اللغوية العربية الموروثة. وقد جاء هذا التعريف مندمجا في تحديدنا لمفهوم السياق والمعنى، وكذلك الوظائف الدلالية للسياق، وتنوعها، ثم تناوَلْتُ اثر السياق في البحث الدلالي عند العرب، وفي هذا الصدد توقفت قليلا عند مفهوم الاصوليين للمعنى، واثر السياق فيه، وكذلك موقف البلاغيين، والمعجميّين، وتطرقت الى تصنيف المعجم العربي، وما تسوده من علاقات ثنائية بين الالفاظ وكذلك ضروب التفسير التي يحفل بها.

ويأتي الفصل الرابع الذي هو تتمة لِسُلَّم التحليل ليتناول اثر السياق في البحث النحوي، فقد اوضحنا في هذا الفصل مدى التجديد الذي طرا على دراسة التراكيب في النّحو الحديث، سواء لدى المدرسة التوزيعية أولدى التحويليين، واثر البُعد الخارجي - غير المقالي - في دراسة التراكيب، وتفسير ما هو مُلْبِسٌ او غامض. ثم توقفتُ عند

تعريف النحاة العرب للجملة، وانواعها، وتقسيمها وتحليلهم لها، وللعلاقات بين اجزاء التراكيب مما يقارب في طبيعته بعض النظر النحوي الحديث. ولما كان السياق على نوعين: مقالي وحالي فقد خصصنا فصلاً لموقف النحاة من العامل الخارجي، غير اللغوي، كعلم المخاطَب ببعض عناصر التركيب، ونيّة المتكلّم، والظروف والملابسات المحيطة بالحدث، ثم بسطنا القول في العلاقات التاليفية او السياقية التي شغلت النحويين العرب في بحثهم لتماسك الجملة الشكلي، مما اشار إليه، ونبه عليه، الدكتور تمّام حسان في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها".

وبالفصل الرابع، الذي يتناول التراكيب، يستكمل البحث حلقته التي تبدأ بالصوت وتنتهي بالجملة.

وافضت إلى الفصول الاربعة التي تتالف منها الرسالة خاتمة قصيرة تضمنت النتائج التي أحْسَبني توصلت إليها من خلال البحث.

ولا بد لي في نهاية الامر من توجيه الشكر الى استاذي الدكتور محمود السمرة، - رئيس الجامعة الاردنية - الذي اشرف على هذا البحث، وتابعه، منذ تَخَلُّقِه فكرةً في ذهن صاحبه إلى أن اصبح خُطة وفصولاً متتابعة قراها وعرض لما فيها من الأوهام والثغرات، ودون عليها من ملاحظاته وتصويباته ما انتفعت به أجزل النفع، وافدت منه اكبر الفائدة.

كما اتوجه بالشكر والامتنان إلى استاذي الدكتور إحسان عباس الذي اطلع على مُسَوّدة هذا البحث، ومنحهُ من وقته - على كثرة انشغاله وازدحامه بالاعمال - الشيء الكثير، مما جعل لملاحظاته وتصويباته أطيب الاثر في نفسي.

والشكر اولاً واخيراً لكل من ساعد في اعداد هذا البحث وطباعته وتنقيحه ، ولكل من قدم لي معونة مباشرة ، او غير مباشرة ، والله اسال ان اكون قد وُفِقتُ فيما ندبت له نفسي من العمل ، وان يكون حظي فيه كحظ المجتهد من أَهل الفقه ، إن اصاب فله اجران ، وإن فاته الصواب كان له اجر واحد ، وبالله التوفيق .

الباحث

الفصل الأول

السياق والدرس اللغوي الحديث

١ - تطوّر الدّرس اللغوي

٢ - سوسير وعلم اللغة الحديث

٣ - حلقة براغ

٤ - المدرسة اللغوية الانجليزية

٥ - المدرسة اللغوية الامريكية

٦ - نظرية السياق: اللغة والاصطلاح

٧ - المفهوم النظري للسياقية ودورها في البحث

٨ - اللغويون العرب والسياق

(١) تطور الدرس اللغوي:-

اختلف اللغويون في تعريف اللغة، ولكنهم متفقون - على اقل تقدير - في أنها نظام، اعتباطي، من الرموز الصوتية يستخدمه الناس للاتصال مع بعضهم بعضاً (١). ويختلف هذا النظام عن غيره من انظمة الاتصال لدى الكائنات الحية الاخرى؛ فهو نظام مزدوج يتالف من نظامين: احدهما صوتي والآخر دلالي. وهذان النظامان يمكن انتاج وحداتهما الصوتية والدلالية، وإعادة انتاجها، ولا تعتمد على اي صلة طبيعية بينها وبين ما ترمز اليه من المعاني. فاصوات الحيوانات قد تدل على الغضب او الجوع مثلاً في حين ان الاصوات في اللغة متغيرة، ويستطيع بواسطتها الانسان التعبير عن اشياء محسوسة واشياء مجرّدة. وهي -اي اللغة - بنظامها هذا تتمتع بسمات جماعية، واخرى فردية؛ فطريقة استعمالها تختلف من شخص إلى آخر، والناس لا يتكلمون بطريقة واحدة، وان كانوا يستخدمون نظاماً موحداً، ولو اخذنا طريقة العاملات في خليّة النحل لوجدنا انها تستخدم الطريقة ذاتها في إرشاد زميلاتها إلى الحقل دون ادنى درجة من الخلاف. واللغة - في نهاية المطاف - لغة يمكن أن تُتَعلّم، وتُكْتَسب، وتصبح جزءاً من مكونات الاشخاص، وعنصراً حيوياً ناقلاً للثقافة والتراث. (٢)

وتختلف لغة الانسان عن أنظمة الاتصال عند غيره في ان تلك الانظمة منغلقة على ذاتها، وغير تجريدية، فلا يمكن للحيوان او الطير او

---

1 - Wardhough, Ronald. Introduction to Linguistics. NewYork. 2nd ed., 1977, P. 3.

2 - Ibid, PP. 25 - 28.

النحل ان يجادل ويناظر بواسطة لغته ، ولا يتاتي له ان يكون فكرة ، او نماه يتحدث فيه عن هذا النظام ، ونحوه ، واساليبه كما هو الشان بالنسبة للغات الانسان. (١)

من أجل ذلك حظيت لغة الانسان منذ القديم بقِسْط وفير من الاهتمام والدراسة والبَحْث، وسُمّيت البحوث التي تنصبّ على دراسة اللغة تسمياتٍ كثيرة منها: علم النحو، وعلم الصرف، وفقه اللغة، وفقه اللغة المقارن، وعلم الاصوات. ويضم هذه الاشياء جميعاً مصطلح شديد الاتساع في دلالته وهو مصطلح "علم اللغة العام". وقد شاع استخدام هذا المصطلح بشكل موسّع في القرن العشرين، ويشمل علم الاصوات بفروعها المختلفة: الصوتيات النطقية Articulatory Phonetics والصوتيات الالية Acoustic Phonetics والصوتيات التجريبية Experimental Phonetics والصوتيات التطورية Evolutionary Phonetics والصوتيات اللغوية Linguistic Phonetics والصوتيات السَّمعية Auditory Phonetics(٢).

والى جانب "علم الاصوات" يشمل علمُ اللغة: علمَ المعاني او "الدلالة" Semantics وعلم التراكيب او "النحو" Syntax وعلم الأسلوب او "الاسلوبية" Stylistics.

---

1 - Boulton, Marjorie, The Anatomy of Language, Routledge and Kegan Paul London, 1978, PP. 6 - 9.

٢ - د. محمد حلمي هليل (مقدم): الصوتيات، تاليف: مالمبرج، بارتيل، ترجمة وتقديم الدكتور محمد حلمي هليل، المعهد الدولي للغة العربية، الخرطوم، ط اولى، ص٦.

والمعروف ان هذه العلوم ظهرت بشكل اساسي في العصر الحديث، وقامت على اساس البحث في اللغة من حيث هي لا من حيث الغاية او الهدف التي تستخدم من اجلهما. يقول شومسكي Chomsky في التعليق على دراسة اللغة: "اذا كان الهدف هو لغة الانسان ووظائفها العقلية والسيكولوجية، فإن علينا اولا" ان نجيب على السؤال: ما هي اللغة بدلا" من الاجابة على سوال: لماذا هي؟"(١).

والحق ان ما يذهب إليه شومسكي ليس جديدا" ابدا"، فقد سبقه إليه عالم اللغة السويسري فردوناند دو سوسير(٢) Saussure (١٨٥٧ - ١٩١٣) ونظرا" لاهمية ارائه واثرها في الدرس اللغوي فسنقف بإزائها وقفة قصيرة متانية.

(٢) سوسير والدرس اللغوي الحديث:-

يُقْسَم تاريخُ علم اللّغة عادة" إلى مرحلتَيْن اثنتين، إحداهما قبل سوسير والاخرى بَعْده.

وقد اتسم علم اللغة قبل سوسير بنَمَطَيْن من الدراسة والبحث، الأول منهما هو فقه اللغة المقارن، والثاني هو علم اللغة

---

1 - Savill - Troike, The Ethnography of Communication (An Introducion) Basil Black well, Oxford, 1 Pub.(1982) P.3.

والمعروف ان شومسكي عالم لغوي امريكي معاصر ذو نظرية خاصة في النحو شرحها في كتابه الابنية النحوية Syntactic Structures وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية يوئيل عزيز وصدر ببغداد، ١٩٨٧. ويقرن اسم شومسكي بنظرية النحو التوليدي او التحويلي.

2 - Jounathan Culler, Saussure, The Harveater Press, Britain. (1947), P. 6.

المقارن، وقد شاع اسم فرانز بوب Franz Pope(١)، وشاعت دراساته حول نظام الجرّ في اللغة السَّنْسِكريتية. وفي القرن التاسع عشر تزايدت توجهات الباحثين نحو دراسة اللغة من حيث هي وعاء للفكر. وبرزت مدرسة في النحو عرفت باسم Port - Royal Grammarian. وتعمّق اللغويون في دراسة الصّلة بين اللغة وعملية التفكير، واحتلت العلاقة بين اللفظ والمعنى أولى المَراتب في المشكلات اللغوية (٢). وهذا بدوره قاد إلى البحث في الجذور البدائية للغات، والغوص في معرفة الدَّوال ووظائفها الدّلالية. واهتم هورن توكس Hoorn Tooks وأتباعُه بالنظر إلى الالفاظ من حيث هي علامات(٣). وقطع العلماء في القرن الماضي شوطاً كبيراً في دراسة الصلة بين اللغة ومُجْرَيات عملية التفكير.

ويقال في أحيان كثيرة إن سوسير هو الأبُ الحقيقي لعلم اللغة الحديث، ولولا آراؤه التي وضعت دراسة اللغة في نظام متّسق لما ظهر الكثيرُ من النظريات اللغوية في القَرْن العشرين. وقد أفادَ سوسير من معاصريه، الا انّ اميل دوركهايم Durkheim وسيجْموندْ فرويد Freud هما اكثر معاصِريه أثراً في افكاره على صعيدَيْ علم الاجتماع، وعلم النَّفْس(٤).

---

١ - ولد بوب في المانيا سنة ١٧٩١ وتخصص للفيلسوف الالماني ويندهمان واقام في باريس من ١٨١٢ - ١٨١٦ واستمع الى دروس المستشرق سلفستر دي ساسي، وتعلم العربية والعبرية، والفارسية والسنسكريتية، وسافر إلى لندن، والتقى همبولدت سنة ١٨٢١. له عدد من المؤلفات ابرزها كتابه حول "السنسكريتية مقارنة بالتقليمات الصرفية المعروفة في اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية". انظر: د. ميشال زكريا، الالسنية المبادئ، والاعلام، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ص ٢٧٣.

2 - Culler, Saussure, P 56.

3 - Ibid, P 57. وانظر = Vachik, The Linguistic School of Prague (An Introduction to it's Theory and Practice) Indiana University Press, Bloomington, London, 2nd Pri. 1970, P. 15.

4 - Culler: Ibid, P.7.

ولد سوسير في جنيف (١٨٥٧) والتحق بجامعتها عام (١٨٧٥) ليتخصص في دراسة الفيزياء والكيمياء، والاختلاف من حين لآخر إلى حلقات البَحْثِ في النّحو الإغريقيّ واللاتيني. ويتزايد اهتمامه بالبحث اللغوي، ليقطع دراسته في جامعة جنيف ويغادرها مبعوثاً إلى ليبزغ لدراسة اللغات الهندو-اوروبية. ويُصْدر في (١٨٨٧) اوّل مؤلفاته: "مذكرات حول النظام الصّوْتي للصّوائت في اللغات الهندو - اوروبية القديمة". ويحاضر بعد ذلك في برلين وباريس في الفيلولوجيا، ويصبح في عام (١٨٩١) عضواً نشيطاً في الجمعية الالسنية الفرنسية ... ثم يعود الى جنيف ليحظى بكرسي اللغات ويلقي سلسلة من المحاضرات في الالسنية العامة. ويُتوفى قبل ان يتمها في فبراير (شباط) من عام ١٩١٣. وتُجمع هذه المحاضرات، وتُحرّر، وتَصْدُرُ في كتاب يحمل عنوان: Cours de Linguistique Ge'neral(١).

وابرز ما جاء به سوسير، ممّا كان له اثره العميق في النظرية اللغوية الحديثة، تَفْريقُه بين اللغة Langue والكلام Parol، فالكلام عنصر من عناصر اللغة او اللسان، واما العناصر الاخرى فتشمل الاداءات الخارجية التي تَصْدُر عن المتكلم وتؤدي دوراً خطراً في التاثير على مَصير اللغة ذاتِه (٢).

وبذلك تشمل دراسة اللغة جانِبَيْن، احدهما: يتمثل في الكلام نفسه، والآخر يتمثل في دراسة الطبيعة المستقلّة للغة من حيث هي

---

1 - Culler: Ibid, PP. 13 - 17.

٢ - سوسير، فرديناند: محاضرات في الالسنية العامة، ترجمة د. يوسف غازي ومجيد نصر، دار النعمان للثقافة، جونيه، لبنان، بلا تاريخ، ٣١.

نظامٌ اجتماعيّ(١). ويسلّم سوسير بان العوامل الخارجية المؤثرة في اللغة مُهمّة، ودراستها تعود بالفائدة، الا ان التعرف على اللغة من حيث هي "نظام" لا يمكن ان يتمّ استنادا لهذه العوامل، بل لا بد من تفحّصها داخليا. ويشبّه اللغة برقعة الشطرنج، فكما ان من المفيد معرفة اصل الشطرنج الفارسي فكذلك من المفيد ان نعرف أصْلَ اللغات وتاريخها، الا ان هذا لن يفيد في اكتساب المهارة التي تتطلبها لعبة الشطرنج، او المعرفة بطبيعة اللغة (٢).

ويهتم سوسير بدراسة "الوحدات اللغوية"، والوحدةُ اللغوية هي الصوت، فإذا اجتمع عدد من الاصوات تكوّنت الكلمة، وهذه الاصوات او الكلمات ليست لها طبيعة جوهرية، وإنما هي اشكال ترمز إلى المعاني، في الوقت الذي تنعدم فيه الصلة الطبيعية بين هذه الوحدات وتلك المعاني. فالعلاقة - في راي سوسير - بين الوحدة اللغويّة (الدّالّ) والشئ الذي تشير إليه (المدلول) علاقةٌ اعْتباطيّة Arbitrary. ويبرهن على صحة رايه هذا بالقول: إن بعض هاته الوحدات يمكن ان يُؤدّي معانيَ متعدّدة ومختلفة بحَسَب السّياق، ولو كانت الصّلَةُ جوهريّة بين اللفظ والمعنى لما ساغ ان يتغيّر معناه بحسب الموقع. (٣)

---

١ - السابق: ٣٢ وانظر ايضا:-

Manfred Bierwish, Modern Linguistics, Muton Co. Hungary (1971) P 16.

٢ - سوسير: السابق، ٣٦ - ٣٧.

٣ - سوسير: السابق ٩٨. وقارن بكتاب د. صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الادبي، مكتبة الانجلو - المصرية، القاهرة، ط١، (١٩٧٨)، ص ص ٣٣ - ٣٧.

ويؤكد في بحث آخر من بحوثه في الالسنية العامة على ان دراسة اللغة تسير في اتجاهين، الاول منهما: يهتم بدراسة التطور الزَّمَني والتاريخي للغة Diachronical، في حين انَّ الثاني منهما يهتمّ بدراسة العلاقة القائمة بين أشياء موجودة، مستبعداً كل تدخل زمني Synchronical. ويجب ان لا تقوم الدراسة العلمية لها على الخلط بين النوعين، وإنما لا بد من اتباع احد المِحْوَرَيْن: التّعاقُبي او التزمُّني.(١)

(٣) حلقة براغ والبحث اللغوي الحديث:-

في اثناء إلقاء سوسير لدروسه اللغوية العامة في جامعة جنيف كانت قد بدات تظهر في العاصمة التشيكوسلوفاكية براغ Prague مدرسة لغوية حديثة، اصبحت تعرف فيما بعد بحلقة براغ اللغوية Linguistic Prague Circle. ومنذ البداية كانت ثمة افكار مشتركة، واخرى تاثر بها علماء هذه الحلقة بآراء سوسير مباشرة. والحق ان اول ظهور عَلَنيّ لهذه الحلقة كان في عام (١٩٢٦) مع ان آراء باحثيها نشرت قبل ذلك بقليل من الوقت.(٢)

---

١ - سوسير: السابق ١٠٢ وانظر = Culler, Ibid, P 35.

2 - Vachek, Josef, The Linguistic School of Prague, P. 4.

ومن المؤلفات التي صدرت في وقت مبكر مؤلفات فيلهام ماثيسوس الذي أعدّ بحوثه اللغوية في ضوء الفكرة الأساسية لسوسير، وهي الدراسة الوَصْفِيَّة للغة بعيداً عن اي تصوّر تطوّري او تاريخي، وهو ما سبق ان اشرنا اليه بكلمة Synchronical. ويتابع رومان ياكبسون أبحاثه في العشرينات.(١) وتخطو المدرسة المذكورة في الثلاثينات خطواتٍ كبيرة نظراً لتزايد العلماء النابهين فيها، ولتزايد بحوثهم الجديدة لا سيما في حقل الفونولوجيا او علم الاصوات التنظيمي. ويقوم باحثو الحلقة بعقد عدد من المؤتمرات اللغوية، كان الأول منها في امستردام (١٩٣٢) والثاني في روما (١٩٣٣) والثالث - وهو خاص بالصَّوْتيات - في لندن (١٩٣٥)(٢) ويُطْلَق، في أحدِ هذه المؤتمرات، وهو مؤتمر امستردام، على هذه المجموعة من الباحثين الاسم الذي اصبح متداولاً، وهو "حلقة براغ" او مدرسة براغ L'Ecole de Prague.

ويتلقى علماء براغ اراء سوسير في شئٍ من الدّهشة عندما اعيدت طباعةُ كتابه (دروس في الالسنية العامة) ثانيةً، ويشدهم إليه، بصفةٍ خاصّة، تفريقه الواضح بين اللغة Langue والكلام Parol الا ان ما

---

1 - Vachek, Ibid, PP. 4 - 5. ولم اعثر في المراجع المتوافرة على ترجمة لفيلهام ماثيسيوس. اما رومان ياكبسون Roman jakobson فقد ولد بموسكو ١٨٩٦ وابدى منذ سنيه الاولى اهتماما باللهجات والفولكلور واطلع على اعمال سوسير وهسرل Husserl وفي عام ١٩٢٠ اسس مع جماعة من الطلبة "النادي اللغوي بموسكو" ومنه تولدت مدرسة الشكليين الروس. وفي عام ١٩٢٠ انتقل إلى تشيكوسلوفاكيا واسهم الدكتوراه عام (١٩٣٠) واسهم في إنشاء النادي اللغوي في براغ. انتقل إلى برونو (١٩٣٣) ودرس في جامعة مازاريك Mazaryk مبلوراً نظريته في الخصائص الصوتية الوظائفية. وانتقل إلى الدانمارك (١٩٣٩) والنرويج ودرس في جامعة كوبنهاجن واوسلو، مبدياً اهتماماً كبيراً بلغة الاطفال انظر: عبد السلام المسدي، الاسلوب والاسلوبية، الدار العربية للكتاب، تونس (١٩٧٧)، ص ٢٤١.

2 - Vachek, Ibid, P. 10.

يجعله اكثر من غيره تاثيرا، هو كلامه عن الدراسة الوصفية للغة بدلا من الدراسة المِعْيَاريّة والتاريخية ، اي تفريقه بين Synchronical الثّابت و Diachronical (تعاقبي). وكانت هذه الفكرة من اشدّ الافكار اثرا في بحوثهم اللغوية إلى جانب تاثرهم بماثيسوس Mathesius الذي مر ذكره (١).

ومن الآراء التي ردّدها علماء حلقة براغ ما كان قد جاء به سوسير حول العلاقة بين الوحدة اللغوية (اللفظة) وما ترمز إليه من المعاني. يقول كارشيفسكي Karcevskiy: "الصلة التي تقوم بين اللفظة او العلامة اللغوية (Sign) ومعناها صِلةٌ إعتِباطيّة . ومما يؤكد ذلك، ويؤيّده، أنّ العلامةَ اللغويّةَ ذاتُ طبيعةٍ تمكّنُها من ان ترْمِزَ لغَيْرِ معنىً، والقيامَ بغيرِ وظيفة . والوظيفةُ الواحدة يمكن ان تُؤدّىٰ باكثر من علاقة ، فكل علاقة لغوية تستطيع ان تكون من العلامات المشتركة والمتباينة اعتمادا على السياق الخاص Particular context الذي تتبواه (٢).

ويهتمّ علماءُ هذه الحلقة بالجانب الصّوتي اهتماما كبيرا، وهذا يمثل تاثرا بسوسير يتجلّى في إلحاحهم على الجانبين الفونولوجي والمورفولوجي. وتبعا لذلك نجدهم ينظرون إلى اللغة بوَصْفها شبكةً من العلاقات، او مجموعةً من الانظمةِ المتداخلة ، وهذا

---

1 - Ibid, P. 18 - 19.

2 - Vachek, Ibid, P. 31. Culler, Ibid, PP. 19 - 23.

- وهذا هو راي سوسير حرفيا.

ما يعنيه فينوغرادوف(١) بقوله :"اللغةُ نظامٌ منَ الانظمة "(٢) وإلى هذا يُعزى اهتمام علماءِ هذه الحلقة بالنُّظم والنّحو من حيث دوره الوظيفي. وقد عُني ماثيسوس بتحليل الجُمْلة من جهتين، الاولى: الفكرة Theme التي تدور حولها العبارة، وهي التي يتم استخلاصها من القَوْل،او من السياق المُتقدّم Preceding Context واما الجهة الثانية فهي الخَبَرُ، اي المعلومةُ الجديدةُ التي تَنْقُلها العبارة إلى السّامع او القارئ. وهو ما يسمّيه بعض النحويين الامريكيين مبتدأ وخبرا Topic and Comment(٣). ويستنتج من دراساته لنَظْمِ العبارة في الانجليزية ان المبتدا فيها دائما هو المتقدم الا في الحالات التي يُسْتخدم فيها نوْع آخرُ من البناء النّحوي كالبناء للمجهول Passive Voice(٤).

ويستكمل كارشيفسكي بحوثَه بمقارنة الابنية النحوية للانجليزية مع الابنية النحوية للغتيْن التشيكيّة والسلافية، ويتاثر بنتائج هذه البحوث علماءُ كثيرون منهم النحوي الامريكي نوم شومسكي Chomsky الذي يتجلّى في طريقته لدراسة الأبْنِيَةِ النّحوية شَبَهٌ كبير بطريقةِ البراغيّين في تناوُلِ هذا المَوْضوع.(٥)

---

١ - فينوغرادوف (١٨٩٥ - ١٩٦٩) من اشهر اللغويين الروس، اهتنى بدراسة اللغة الروسية، مباشرا بسوبيسير، وحاول تطبيق المناهج الحديثة. شارك في مؤتمرات حلقة براغ. والكلمة المقتبسة من خطاب القاه في احد هذه المؤتمرات. من مؤلفاته: النثر الادبي، لغة الادب، الاسلوبية ونظرية الخطاب الادبي. انظر عبد السلام المسدي (السابق)، ٢٤٧.

2 - Vachek, Ibid, P. 28.

3 - Ibid, P. 89.

4 - Ibid, P. 91.

5 - Vachek, Ibid, P. 94.

ويُعنى ياكيسون - وهو من اكثرهم تاثرا بسوسير - بتحليل الحدث الكلامي Act of Speech ويضعُ اسسا راسخة ووثيقة لضبط عملية التّحليل فليس يكفي في نظره ان يتناول اللغويُّ مادة الكلام ليحلّلها، بل لا بدّ من ان تشتملَ عمليّة التحليل شخصيّة المتكلم والمُسْتَقْبِلَ (المتلقّي) ونوعَ السياق الذي يندرِجُ فيه الحَدَثُ الكلاميّ، واطارُه، والرموزُ التي يمكن ان تكون ذات صلةٍ خاصّة بالمتكلّم او السّامع، وكذلك قناةُ التوصيل، سواءٌ اكانت القراءة ام الاستماع ام المشاهدة، وهذه هي العوامِلُ السّياقية في نظره.(١)

فالمتكلم Speaker تجب معرفة الاشياء التي تميّز شخصيته عن المجموعة الكلامية من حيثُ: وضعهُ الاجتماعي، وانتماؤه، وثقافتُه، وعناصرُ كلامِه الشخصية: كاللهجة، والإيقاع، والحاحِه على تكرار الفاظٍ معينة او عبارات خاصة، ويبدو في هذا الجانب من الدراسة اللغوية ان الباحث غير معنيٍّ برَصْدِ البُعد الاجتماعي بالمعنى الذي حدّده سوسير في مفهومه للسان، اما السّامع Listener فتندرج تحت هذا العامل دراسةُ التّنغيم والأصواتِ التي تصاحبُ إطلاق الجمل Sentences Intonation. وامّا نوع الكلام ومادّته فقد يكون شِعْرا،(٢) وفي هذهِ الحالِ يُعْنى المتكلمُ، لا سيما اذا كان الشعر شعرا غنائيا Lyrical Poetry بوصف مشاعِرِه الخاصّة، وعواطفه، واي كلام عن الحقيقة يأتي في مثل هذا النّوع من الكلام لا بد ان يكون مندرجا في وظيفَتِه التّعْبيريّة. وعلى العُموم تَبْقى للّغة - في هذا

---

١ - انظر: صلاح فضل: نظرية البناءية (مرجع سابق) ص ص ٣٩٨ - ٣٩٩. وانظر: سعيد الغانمي: الاستعارة عند ياكبسون (الاقلام العراقية) ١٩٨٨، ع٣، آذار (مارس)، ص ٥٣.

2 - Vachek, Ibid, P 35.

السياق - وظيفَتُها التوصيليّةُ التي توجبُ على السّامع (المتلقي) ان يُميّز بين ما يُقال له على سبيل الامر او الطّلب ليرْفَضَهُ او ينفّذه (١).

والواقع ان تأثُّر علماء اللغة بآراء سوسير تأثُّرٌ جليٌّ وواضح. ففي فرنسا يأخذ فندريس Vendryes برأي سوسير فيما يتعلق بقيمة الجانب الصّوتي، والتقليل من شان الكتابة بصفتها عاملاً مُثبّتاً لأوضاعِ اللغة. لذا يذهب إلى ان اللغة لغتان: سَمْعيّة وبصرية. (٢) ويَقْسِمُ الدوالَّ إلى قسمَيْن: احدُهما دوالُّ النسبةِ، والثاني دوالُّ الماهيّة، وكلاهما له أثره في تكوين الصّورة اللفظية التي ترتبط في الاذهان بمفهوم معيّن. (٣)وهذا القول ترديد لراي سوسير في عمليّة الاتصال باستخدام الوحدات اللغوية، وتكوين الصّور السّمعية والصور النطقية والمفاهيم التي تنشا عن ذلك في الذهن. (٤)

ويأخذ هنري لوفيفر Lefebrre بالمبدا الذي سعى لتقريره سوسير من حيث انّ الوحدات اللغوية مجموعةُ من العلامات التي لا ترْبطُها بدلالاتها ايّ رابطةٍ طبيعيّة، وان اللغة نظام من العلامات لا يختلف عن النُّظُم التي تحدّد انْماط الاتصال، والسلوك في الحياة الاجتماعيّة. (٥) ويأخذ بمبدا التفريق بين اللغة والكلام. مؤكداً إن اللغة ظاهرة اجتماعية شاملة في حين انّ الأشكالَ الاخرى للاتصال

---

1 - Ibid, P 36.

٢ - فندريس: اللغة، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الانجلو - المصرية، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٣٢.

٣ - المرجع السابق: ١٠٥ - ١٠٦.

٤ - سوسير: محاضرات في الالسنية العامة (مرجع سابق) ص ص ٨٨ - ٨٩.

٥ - هنري لوفيفر: اللسان والمجتمع، ترجمة مصطفى صالح، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣ ص ١٨٥.

الكلامي، والحياةِ الاجتماعيّة، ظواهر ترجع في تكوينها إلى مستخدم اللّغة . (١) .

ويعكِفُ علماءُ اللغةِ في كوبنهاجنْ على تاصيل نظريّة جديدة في اللغة على ضَوْءِ الافكار الجديدة لعلم اللغة السوسيري. وهذه النّظريّةُ توصف عادةً بالتعليقيّة نسبة الى التّعليق Glossematics. فقد اخذت هذه المَدرَسَةُ طائفةً من مبادئ سوسير النّظرية ، واعطتها مفهوماً جديداً في التطبيق. فهم يزعمون انّ اللغة شكلٌ لا جوهر، ولا يمكن التعرُّف على جوهرها إلا في الميدان الوظيفيّ. وبكلمة اخرى فإنهم يجزمون بان الجَوْهر الذي لا يتمثّل في بنية ما لا يعدو ان يكون شيئاً ضبابياً خالياً من اي قِوامٍ فِعْليّ، واللغة في راي هيلمسليف(٢) شبكةٌ من العَلاقات،او بكلمة ادق:شبكة من الوظائف، وهي كيانٌ مستقلٌ ذو علاقاتٍ داخلية (٣) .

(٤) المدرسة اللغوية الإنجليزية :-

تختلف المدرسة اللغوية الإنجليزية عن غيرها من المدارس في انها لم تتاثر بسوسير في جانبه الإيجابي حَسْب بلْ صاغت تاثّرها به في إطار الردّ على بعض مقولاتِه الاساسيّة أيضاً . وفي مقدّمتها تاكيده على أن الكلام عنصرٌ فرديّ، ولاصلةَ له بالبُعدِ الإجتماعي. ويرجع هذا

---

١ - المرجع السابق : ص ٣١١.

٢ - هيلمسليف Hjelmslev (١٨٩٩ - ١٩٦٥) عالم لغوي دانماركي تتلمذ في باريس لانطوان ميليه Meillet وشارك في انشاء النادي اللغوي بكوبنهاجن عام ١٩٣١، وعمل على وضع نظرية بنيوية شمولية لظاهرة اللغة . من مؤلفاته : "مقدمة في النظرية اللغوية" و"مقدمة في اللغة" و "محاولات لغوية".

٣ - صلاح فضل : النظرية البنائية (مرجع سابق) ص ١٠٩.

الموقف لدى المدرسة الإنجليزية إلى أصولٍ قديمة درَجَتْ عليها، فمن العلماءِ الذين اثروا في المدرسة الإنجليزية هامبولد Hamboldt - من العلماء الالمان في القرن التاسع عشر - الذي يُؤْثر عنه قولُه: "إن اللغة لا تعدو أن تكون انعكاساً للعامل الاجتماعي والثقافي والنَّفسي، وهي تمثيل لهذه العناصر مجتمعة."(١).

وتاثرت المدرسة الإنجليزية بعالم لغوي آخر هو بريل Bréal الذي كان قد ألّف كتاباً بعنوان "عِلْمُ الدّلالَة" Semantique. وهذا الكتاب نقل إلى الإنجليزية بعنوان Semantics "عِلْمُ الدَّلالة"، وصدرت الترجمةُ في لندنَ عام ١٩٠٠(٢)، وانتقلت الآراء التي عبّر عنها بريل هذا إلى البَحْثِ اللغويّ الإنجليزي.

تُضاف إلى هذا آراء الباحث اللغوي الالماني دارْمِسْتَتْر Darmesteter صاحب كتاب "حياةُ الالفاظ" La Vie de Mots وفيه يذهب للقول بوجود ثلاثةِ عوامل تُؤثّر في حياةِ الالفاظ، هي: "العامل

---

1 - Ducrot / Todorr) Encyclopedic Dictionarys, Socioling uistics, P. 62.
والظر لمزيد من التفاصيل:

Wilhem Von Hamboldt's Conception of Linguistic Relativity. Roger - Brown, Muton, 1967, PP. 24 - 39.

وهامبولدت (١٧٦٧ - ١٨٣٥) درس في جامعة فرانكفورت ثم في جامعة كوبنهاجن. تعرف سنة ١٧٨٩ إلى الشاعرين شيلر وغوته. وزار باريس عام ١٧٩٧ وقام بزيارة لمنطقة الباسك ودرس لغاتها الدارجة. عين عام ١٨٠١ سفيراً، واوفد الى مؤتمرات في فينا (١٨١٣ - ١٨١٥) ثم عين سفيراً في لندن حيث التقى فرانز بوب Pope عام ١٨١٠، راس جامعة برلين، وتوفي سنة ١٨٣٥.

2 - Firth. J. R. Papers in Linguistics, London, 1964. P.15.
وبريل هذا عالم لغوي فرنسي صدر كتابه "علم الدلالة" في باريس عام ١٨٩٧.

المنطقيّ، والعاملُ النفسي، واخيراً العامل الاجتماعي(١)". وعالم اخر كان له تاثيرُه في علم اللغة الانجليزي، وهو انطوان مِيّيه الذي سبقَ ذكره، فقد ذهب إلى ان كل تَغيّر دلالي يطرأ على اللفظ مردّه إلى السياق، او إلى الارتباط باستعمال سياقي معيّن يتبَعُه اطرادٌ بين اللفظ ومعناه الجديد (٢).

وقد تعاوَر هذه الافكارَ حوْل اثر الشّيوع والتداول الاجتماعي للوحدات اللغوية في تغيير معانيها عددٌ من الباحثين الذين مهدوا لظهور المدرسةِ اللغوية الانجليزية، ومن هؤلاء عالم الدلالة سْبَرْبَر Sperper(٣) الذي يؤكّد ان كل لفظة تكتسب معنى جديداً إنما تكتسبهُ نظراً للوظيفة التي يمنحُها لها السياق(٤).

وانتهت هذه الآراء والافكار إلى برونسلاف مالينوفسكي(٥) Malinowski الذي تاثر بإميل دوركهايم وآرائه حول الاثر الاجتماعي

---

1 - Firth, Ibid, P. 11.

2 - Ibid, p.13.

- وانطوان مييه عالم لغوي فرنسي تاثر به عدد من اللغويين في مقدمتهم Ibid, P. 13 هالمسليف الدانماركي. على بدراسة اللغات الهندية - اوروبية واشرف على اول مؤتمر علمي للغة في لاهاي سنة ١٩٢٨. له بحث بعنوان علم اللسان نقله إلى العربية محمد مندور، انظر: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، (دت)، ٤٢٨ - ٤٦٧.

٣ - هوهانز سبربر Sperber احد علماء الدلالة وقد اثرت آراؤه في كل من مالينوفسكي وفيرث وغيرهما.

4 - Firth, Ibid, PP. 13 - 14.

٥ - عالم لغوي وانثروبولوجي بريطاني (١٨٨٤ - ١٩٤٢) مدين باكثر افكاره لعالم الاجتماع الفرنسي اميل دوركايم، ويقوم منهجه على مبدأ التحليل البنيوي الوظيفي. من مؤلفاته البارزة: ديناميكية التغيير الثقافي، بحارة غرب المحيط الجنوبي (١٩٢٢)، انظر: قصة الانثروبولوجيا تاليف د. حسين فهيم، الكويت، ط اولى، (١٩٨٦)، ص ص ١٦٤ - ١٧٦.

للغة ، وكانت له بحوث ذات طبيعة انثروبولوجية توصّل من خلالها للقول بأن انماط الكلام تتاثر بانواع الحِرَف، وان الكلمات التي تشيع بين افراد مجموعة حِرَفِيَّةٍ معينة تختلف عن الكلمات التي تشيع بين افراد جماعة حِرَفِيَّةٍ اخرى. فصيادو الاسماك - مثلاً - يستخدمون الفاظاً ، وتراكيبَ في المخاطباتِ تختلف عن الالفاظ التي يستخدمها الحمّالون، واستدلّ من دراساته على ان الالفاظ الخاصة باوساط هذه الجماعات لها وظائفُها العمليّة ، وعلى الدارس ان يتامل هذه الوظائف(١).

ويبتدع مالينوفسكي مصطلح Phatic Communion ويعني به نوعاً من الاتصال اللغوي لا يهدف إلى نقل الافكار بل إلى تقوية الصلات والوشائج الاجتماعية بالدرجة الاولى، مثل عبارات المجاملة والتحيّة ، وهذا التواصل في نظره يمثل وظيفة من وظائف اللغة .(٢) وتعكِفُ المدرسة الانجليزية على دراسة هذه العبارات، وصلاتها بالجماعات، مؤكّدة ان اللغة جسرٌ للعلاقات بين الافراد (٣).

---

1 - Firth, Ibid, P. 30. وانظر ايضاً P. 143 .

Vachek, The Linguistic School of Prague, P. 33.

٢ - انظر في تفسير المصطلح: محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري (مرجع سابق) ٢٠٨.

3 - Vachek, The Linguistic School of Prague, P. 33.

وتجد فكرة مالينوفسكي حول ترابط اللغة والظرف الاجتماعي صداها العميق في اعمال العالم اللغوي جون روبرت فيرث(١) J. R. Firth وتلاميذه، فقد اعجب فيرث بهذه الفكرة إعجاباً شديداً، واستطاع ان يعيد صياغتها بما هو اوضح منها عبارة، واكثر فائدة. ويذكر فيرث لتوضيح الفكرة جملة: (انا قادمٌ غداً). I am coming to morrow فهذه الجملة يمكن ان تكون "تنبأ للقدوم الآن" ويمكن ان تكون "وعداً" ويمكن ان تكون "تهديداً" و"إنذاراً"، وتحليل هذه الاحتمالات قاد فيرث إلى القول بما هو اكثر المصطلحات اهمية في علم اللغة الحديث، وهو مصطلح: "السياق الحالي" Situational Context. وحتى هذا المصطلح لم يكن جديداً كل الجدة، فقد سبقه إلى استعماله مالينوفسكي، غير انه توسع في الاتكاء على هذه الفكرة لدراسة النصوص، والخطابات، متناولاً ما يحيط بها من ظروف، سواء اكانت متصلة بالمكان ام بالزمان ام بالمشاركين في الكلام، الى جانب وظيفة الخطاب، والغاية المقصودة منه.(٢) مما يُذكّر بتحليل العوامل السياقية لدى ياكبسون(٣).

---

١ - (١٨٩٠ - ١٩٦٠) اهتم بدراسة اللغات الشرقية اذ كان قد عاش في الهند وعمل هناك، وتاثر بنظريات اللغويين الهنود، كما تاثر بآراء العالم اللغوي الانثروبولوجي مالينوفسكي. وحاضر فيرث في جامعة لندن في مادة الدراسات الشرقية والافريقية، وهو اول من درس هذه المادة منذ اقرارها عام ١٩٤٤. اهتم بشكل خاص بدراسة المكون السوسيولوجي للدراسة اللغوية والدلالة والبنية والنظم. د. ميشال زكريا ص٢٨٨. وابرز مؤلفاته هي: بحوث في علم اللغة Papers in Linguistics وكتاب Tongues of men and Speech. ولمزيد من الاطلاع على ابحاثه ومنهجه اللغوي، Mitchell. T.F, Prinicples of Firthian Lignuistics, London. Longman Group. 1st pub. 1975. وهو مجموعة مقالات مختارة

2 - Ducrot/Todorove: Encyclopedic. PP. 63 - 65.

٣ - راجع هذا البحث ص٢٤، وانظر، صلاح فضل: نظرية البنائية (مرجع سابق) ص ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٥) المدرسة اللغوية الامريكية :-

في الوقت الذي شرع فيه فيرث في تطوير بحوثه كانت "حلقة براغ" توسع مجالات البحث في وظائف اللغة ، وهذه الافكار انتقلت بسرعة إلى امريكا عن طريق الجهود اللغوية التي قام بها الباحث المعروف سابير (١) Sapir وهي جهود جعلته يحتل موقعاً مهماً وكبيراً في حركة التطور اللغوي الحديث.

عُنيَ سابير بدراسة اكتساب الطفل للغة ، ملاحظاً ان تعلم الانسان للغة يختلف عن تعلّمه لاي شيء اخر كالمشي مثلاً . فهو يستمر في تعلم اللغة واكتسابها مدى العمر ، ويخضع تعلُّمه لها لما يحيط به من ظروف، ولا يمكن ان يخضع لنمط واحد منها او لقَوْلَبَةٍ محددة . والكلام - في نظره - نشاطٌ متغيّر كلما انتقلنا من مجموعة كلامية او فئة اجتماعية إلى اخرى. وهذا النشاط نشاطٌ يبذله الانسان، وهو جزء من الميراث الثقافي لكل مجتمع. وهذا التراث لا يختلف في طبيعته وقيمته عن الدين او المعتقدات او العادات او الفنون التي تميز شعباً عن غيره . (٢)

واهتم ايضاً بدراسة العادات النُّطقية ، والتبدلات الصوتية بحسب الزمان والمكان والبيئة ، مذكّراً بتركيز كل من سوسير وحلقة براغ في الميدان الفونولوجي(٣) . ويذهب للقول بان مثل هذه

---

١ - ولد في بوميرانيا Pomerania في المانية عام (١٨٨٤) وارتحل إلى الولايات المتحدة وعمره لا يتجاوز خمس سنوات. ظهر اول ابحاثه وكان من لغات العنود الحمر الامريكيين. ودرس في جامعة شيكاغو وجامعة ييل Yale وهو من الباحثين الاوائل الذين اوضحوا طبيعة الصلة بين علم اللغة والانثروبولوجيا . توفي سنة ١٩٣٩ ومن اهم كتبه على الاطلاق كتاب "اللغة" Language الذي صدرت الطبعة الاولى منه عام ١٩٢١.

2 - Sapir, Language, NewYork, (1949), P. 4.

3 - Ibid, PP. 43 - 44.

التبدلات تتاثر بالفروق الاجتماعية والطبقات، فلو درسنا هذه التبدلات لدى طبقة من المجتمع اللندني وقارناها بالطبقة ذاتها من المجتمع في نيويورك لوجدنا البون كبيرا* بين العادات النطقية لكلتا الفئتين. ولكن هذا لا يتنافى مع تسليمه بان لكل فرد - من مستعملي اللغة - اثره القوى في عاداته النطقية وطرائقه في الانتقاء والتركيب والربط.(١)

وقد اهتمت المدرسة النحوية الاميركية بالتحليل البنيوي للجملة، واوْلَت الجانب الشكلي في النَّظم اكبر اهتمام، ويبرز في هذا الميدان شومسكي Chomsky الذي بدا دراساته منذ عام ١٩٥٥ وكان تلميذا* لهاريس Harris(٢) ويصدر في عام (١٩٥٧) كتابه "الابنية النحوية" Syntactic Stractures(٣) لتدخل الالسنية

---

1 - Ibid, PP. 147 - 148.

والغريب ان هذا الراي الذي يورده سابير في كتابه "اللغة" مطابق تماما لراي ابن حزم الاندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦هـ/٩٩٤ - ١٠٦٤م) في اثر البيئة الاجتماعية على الفروق والتبدلات الصوتية، انظر النص: عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٩٨٥) ص ١٠٦، وقارن: الاحكام في اصول الاحكام، تحقيق احمد محمد شاكر، وتقديم د. إحسان عباس، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، المجلد ١/ص ص ٣١ - ٣٢.

٢ - هاريس: هو عالم لغوي امريكي من اصل روسي، ولد عام (١٩٠٩) وهاجر إلى الولايات المتحدة، ثم حصل على الجنسية عام (١٩٢١)، ودرس في جامعة بنسلفانيا منذ سنة (١٩٣١) كان من رواد التيار التوزيعي، ثم تاثر بتلميذه شومسكي متحولا* إلى المدرسة التحويلية من مؤلفاته: مناهج البنيوية اللغوية Methods in Structural Linguistics والابنية الرياضية في اللغة: Mathmatical Structures of Language ومقالات في علم اللغة التحويلي، ولمزيد من التوضيح لمصطلحي التوزيعية والتحويلية انظر الفصل الرابع.

٣ - انظر: شومسكي: البنى النحوية، ترجمة د. يوئيل عزيز، بغداد، ط١، ١٩٨٧.

البنيوية مرحلة جديدة بمدوره . وكانت آراؤه ثمرة للجهود السابقة التي انتهت إلى هاريس مرورا بكل من سوسير وسابير وتروبتسكي Trubetzkey(١)، ورومان ياكبسون. وقد تم التاليف بين هذه الابحاث وفقا للاساس السيكولوجي الذي عُني به شومْسكي الى جانب المنطق الرياضي.(٢) وتبعا لذلك نجد شومسكي يهتم بدراسة نظرية اكتساب اللغة ، ويستخدم مصطلحا جديدا هو السليقة Competence تعبيرا عن الكفاءة اللغوية الكامنة لدى الشخص الناطق باللغة إذا كان قد نشا عليها منذ الطفولة ، كما عبر بالاداء Performance عن التحقّق الفعلي لمقدرة هذا الشخص وكفاءته اللغوية في الكلام . وهو صاحب القول: بان كفاءة المتكلّم وسليقَته اللغوية تمكّنه من انتاج وحدات لغويةلم يسمع بها من قبل، وفهم وحدات لم يسمع من قبل بها ايضا ، ولكنها ناتجة اصلا او متولدة عن الوحدات المعروفة لدية ، إذ إن من خاصية اللغة انها ذات نحو توليدي يُمكّن ابنَ اللغة من انتاج عدد لا نهاية له من الجمل باستبدال العلاقات النحوية بين الالفاظ. وتحدَّث عن الخاصّيّة المزدوجة للعبارة ، والبِنْيَة السطحية Surface Structure والبِنْيَة العميقة لها Deep Structure.(٣)

---

١ - هونيكسولاي ترويتسكي (١٨٩٠ - ١٩٣٨) المؤسس الحقيقي للفونولوجيا في علم اللغة الروسي الحديث، صدر له كتاب: (مبادئ الفونولوجيا) وقد ترجم إلى الفرنسية (١٩٤٩). وكان قد بدأ حياته العلمية بدراسة اللغات الفنلندية والاوجرية ، ولم يلبث ان توجه بعد ذلك لدراسة علم اللغة العام بصفته النوع الوحيد من العلوم الانسانية الذي اصبح له منهج وصفي علمي خلافا للفروع الاخرى. انظر: د. زكريا ابراهيم: مشكلة البنية ، مصر، ط اولى، ١٩٧٦، ص ٦٢.

2 - Manfred. Bierwish, Modern Linguistics,Translated from German by Muton and Co., Hungary, (1971), P. 54.

3 - Wardhough, Ronald, Introduction to Linguistics, P. 117.

ويعنى شومسكي الى جانب عنايته بالنحو التحويلي - Transformational Grammar بإستراتيجيّة المتكلّم والسّامع، ودورها في عملية الاتصال اللغوي، مؤكداً ان المتكلم عندما يصوغ عبارة ما فإنه يتعرض لسلسلة من العمليات المعقدة، اولاها: ظهور الفكرة Thought ثم الرغبة Wish ثم الغاية من الإرسالية الكلامية. وبالتالي فإن عملية التّحدّث تتم على النحو الآتي:-

بناء الفكرة -------> نيّات المتكلم -------> موجات صوتية. (١)

Thought Structure ----- Speaker Strategy ----> Sound Waves

ويذهب في دراسته لموقف السامع إلى القول بأن السامع يتصف دوماً بالذكاء والسرعة في تصحيح ما قد يَسْمَعه من جُمل غير نحوية، او غير دقيقة التّصويت، ومثال ذلك انه إذا سَمِعَ متكلماً يقول:-

He ate a good deal

فإنه يبادر على الفور، ودونما انتظار، لتصحيح هذا الخطأ، بحيث يَسْمَعُ الجُمْلة على انّها:-

He ate a good meal

ويتقبّلها على هذا النحو في حين أنّ سَمْعَهُ يكون قد أباها على النحو السّابق. (٢)

ولهذا يفرّق شومسكي بين القدرة على الاداء في الكلام المكتوب والكلام المحكي، ففي الكتابة ثمة ما يكفي من الزمن لإحداث التكيّف المطلوب في طبيعة العمل السيكولوجي، بحيث يتاح لصاحب الكلام المكتوب ان يراعي القواعد التي سبق له أن اختزنها، تماماً مثلما يمنح الوقت الكافي للاعب الشطرنج كي يفكر بالخطوة التي يخطوها والخطوة المقابلة. (٣)

---

1 - Manfred, Ibid, P. 64.
2 - Ibid, P. 68.
3 - Ibid, P. 69.

ويؤكد شومسكي أن من واجب السامع عند الاستماع للكلام المحكي تلقف الكلام جميعه قبل ان يقرّر ما إذا كان المعنى الذي فهمه هو المطلوب او لا، وهنا تبرز اهمية السياق اللغوي في تحديد البعد الدلالي للوحدة اللغوية، فمثلاً كلمة Landing في العبارة التالية :-

The landing was dangerous.

كلمة مُلْبِسَة، إذ على السّامع اختيارُ واحدٍ من المعاني المُعْجَميّة الثلاثة لهذه اللفظة، ولكنه يسارع إلى فهم المراد فيما لو كانت العبارة كما يلي:-

The Landing was high

فاقتران Landing بـ High استبعد اللّبس. (١)

وعلى هذا النحو يُقرّ شومسكي - على الرغم من اهتمامه بالجانب الشكلي للنّظم - بالدّور الذي يؤديه السياق في البعد الدلالي.

وفي كثير من بحوث شومسكي وتلاميذه يجري التوكيد على ان معاني الكلمات قد تتغير بحسب الظروف السياقية، كما ان مضمون الحدث اللغوي لا يتحدّدُ بما يقال، بل ثمة معانٍ لا يُصرّح بها المتكلم، وهي التي يمكن الاستدلال عليها بالعودة إلى الظرف المحيط به وبالسّامع. (٢) ويتناول شومسكي -بناءً عليه - ما سمّاه الدلالة التوليديه Genarative semantic، وهي البحث في الانحراف الدلالي الذي ينجم عن التغايُر بين معاني المفردات إلى جانب الافتراض الذي يُضْمِرُه المتكلّمون (٣). وهو قريب مما سماه العرب بالعدول عن اصْلِ الوَضْع.

---

1 - Ibid, P. 59.

٢ - هادل فاخوري: اللسانية التوليدية والتحويلية، منشورات لبنان الجديد، بيروت، ط اولى، (١٩٨٠)، ص ٧٨ - ٧٩.

٣ - المرجع السابق نفسه، ص ٨٠.

وقد صنفت الدلالة التوليدية في نوعين: أحدهما داخلي، وهو الذي يستنتج من التركيب نفسه، والآخر خارجي وهو المُقيَّد بالظروف التي تتيح لكل من المتكلم والسامع تعيينها بملاحظة الشئ الخارجي المقصود، ووقوعه في مجال إدراكهما الحسي، وهذا النوع من الدلالة لا يمكن ان يقومَ إذا كان المتكلّمُ والسامعُ متباعِدَيْن كما هو الحال في المخاطبات عبر الهاتف او في البثّ الإذاعي والمراسَلة. (١) ومن العناصر المساعِدة في الدلالة الخارجية الاشاراتُ والرسومُ وإمارات الوجه. (٢)

والمتأمل فيما سبق يلاحظ عناية اللغويين المحدثين المبالغ فيها فيما يتعلق بنُظُمِ الكلام، من صوتيّةٍ ودلاليةٍ ونحويةٍ (٣). وفي كل الأحوال كان الغرض الرئيسي للباحث اللغوي هو تحقيق معرفةٍ اوسع بقدرة اللغة على الافصاح عمّا في نفوس المتكلمين، وقدرتها على ان تكون وسيلة اتصال تَحْمِل في طيّاتها وظائفَ تعبيرية. ومن ذلك انها تقرّب ما بين المتباعدين، وتجعل شُهودَ الحدث الكلامي مُلمّين بدقائق الاحوال النّفسية لدى بعضهم بعضاً. ولذلك ترى اللغويين على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم وميولهم الفلسفية والعلمية يولون "السياق" اهمّيةً كبيرة سواء في دراستهم للجانب الدلالي او النحوي او الصّوتي.

فللسياق اثره البالغ في تمكين السامع من تقبّل الرسالة واستلامها من المتكلم، وللسياق دوره في إيضاح الوحدات الكلامية والتفريق بينها، حتى لا يقعَ السّامع في اللّبس.

---

١ - المرجع السابق، ص ٨٥.

٢ - السابق، ٨٦، وسوف نرى في نهاية هذا الفصل كيف ان موارد الخواطر بين النحو التحويلي من جهة والجاحظ (٢٥٥هـ) والغزالي (٥٠٥) من جهة اخرى كان متقاربا ودقيقا، كموقع الحافر على الحافر.

٣ - للاستزادة انظر: احسان حسان: الاصول، دراسة إبستمولوجية في الفكر اللغوي العربي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٢، (١٩٨٨)، ص ص ٢٦٣ - ٣٧١.

وللسياق اثره الذي لا حد له في إكساب الكلمات دلالاتٍ مغايرة لدلالاتها التي تنص عليها المُعْجَمات، ومن اجل ذلك استحوذت المسالة السياقية - كما سبق ان اشرنا - على عناية الدارسين، ومضوا بهذه المسالة خطوة إلى الأمام حتى صيغت في قالب نظري، واصبحنا نقع في الكتب اللغوية الحديثة على اصطلاح: النظرية السياقية Contextual Theory وهي نظرية محتاجة إلى توضيح، وهذا ما نتصدي له في الصفحات القليلة التالية.

(٦) نظرية السياق: اللغة والاصطلاح:-

السياق في اللغة لفظ ذو معان كثيرة، وعندما يكون الامر متصلاً ببحوث اللغويين المعاصرين فإنه غالباً ما يدل على الاطار الذي جرى فيه التفاهم بين شخصين او اكثر، ويشمل ذلك الزمن الذي دار فيه الحديث، والمفاهيم المشتركة، والكلام السابق للمحادثة.(١) وهو يُرادفُ القرينة Context فللكلمتين مدلول واحد، وفي هاته الحال يفضل ان يسمى سياقاً لغوياً. وهو يشمل البيئة اللغوية المحيطة بالكلمة او الجملة، وقد يضيق ليشمل البيئة المحيطة بالصوت اللغوي (الفونيم) او الزيادة الصوتية (المورفيم) (٢).

والتحليل السياقي هو تحليل المعاني بحسب ورودها في السياق، والتمام او التتميم السياقي Contextual Completeness هو ان تكون الجملة ناقصة في ذاتها ولكنها كاملة اذا أُخِذَ السياق بالاعتبار، اى ما يعبّر عنه - عادة - بالتقدير الذي يعني الاكتمال النحوي.(٣)

---

١ - محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٢ مادة Situational Context. وانظر طاهر حمودة: نظرية المعنى عند الاصوليين، الاسكندرية، ط١، ١٩٨٣، ص ص ٢١٣ - ٢٢١.

٢ - السابق، مادة: Context.

٣ - السابق، مادة Contextual Completeness.

ويستخدم الغربيون مصطلحات كثيرة يدخل فيها السياق، منها الاحتمال السياقي Contextual Probability، وهو احتمال وقوع كلمة بعد اخرى، او احتمال وجود فونيم وآخر بعده.(١) ومن ذلك مثلاً قول الشّاعر (من الطويل):-

ولكنْ إذا حُمَّ القَضاءُ على امْرِئٍ فلَيْسَ لَهُ بِرَّيقيهِ...

يتوقع السّامع "ولا بَحْرُ"، فهذا ضرب من ضروب الاحتمال السياقي. والنظرية السياقية Contextual Theory هي النظرية التي تفسر القضايا اللغوية بالعودة إلى السياق. والتغيُّر السياقي Variant Contextual هو التغيُّر الذي يطرأ على البنية الصّرفية للكلمة بحسب موقعها في السياق، فقد يحدّد السياق نوع البنية وهل هي فعل او اسم، وهل هي اسم فاعل او اسم مفعول، وهذا موجود في العربية كما هو موجود في غيرها من اللغات. فكلمتا Star, Face في الانجليزية اسمان، ولكنهما قد تتحولان في بعض الاستعمالات إلى فِعلين، ومثال ذلك الجملة التالية:- The governer well star in a new movie.

والعبارة التالية:- Some people can never face reality (٢)

فقد وقع التغيير في البنية الصرفية للكلمتين دون إضافة او زيادة، وفي اللغة العربية نجد كلمة (يزيد) فعلاً في سياق واسماً في سياق اخر، فتقول: "يزيد رجلٌ طيبٌ"، وتقول "لا تُنْقِصُ الصدقةُ المالَ بل يزيدُ بها." والكلمات التي من هذا النوع كثيرةٌ جداً. وكلمة

---

١ - الخولي، السابق، مادة Contextual Probability.

2 - Langacker, Ronald, Language and it's Structure, Some Foundemental Linguistic Concepts, Harold, Brack and World Inc, U.S.A. 1967 - 68. P. 75.

(مُحْتَلّ) تستعمل في سياق معين اسماً للفاعل، فتقول: "العدو المُحْتل". وتكون في سياق آخر اسماً للمفعول، فتقول: "الوطن المُحْتل". فالسياق هو الذي اوضح ايّ البنيتين الصّرفيّتين هي المقصودة.

والسياق هو النّص تارة، وتارة هو اجتماع الالفاظ بعضها إلى بعض، وكذلك الجمل، وهو - في طور آخر - الشئ الذي يربط بناء موضوع تجري كتابته او يتمّ تاليفه، وقد تكون عناصر الربط متعددة، وهو العلاقة التي تنتظم اجزاء العمل الكتابي، وتجعلها متسقة في خطاب واحدٍ مُتَسَلْسِل.(١) والسياقيّة مصطلح يعود إلى القرن الثامن عشر، وفي معجم تخصّصي آخر نجد ما يؤكد السابق، ويوطده، فهو تتابع الكلمات قَبْلَ لفظةٍ معينة او بعدها، سواء كان هذا التتابع في شبة جملة Phrase او في عبارة طويلة Utterance او في نص Text، وهو الذي يجعلنا، في الغالب، نفهم المعنى المُراد من اللفظة او العبارة او الجملة سواءً اكانت طويلة ام قصيرة. ومثال ذلك كلمة Loud في العبارة: Loud music التي نفهم منها انها تعني Noisy (مثير للضّجيج) ولكن هذه الكلمة في عبارة اخرى، نحو:-

A tie with a loud pattern.

فإنها تدل على معنى آخر، وهو تنافر الألوان(٢) Unpleasantly Colorful. والسياق كلمة تطلق بشكل موسع على الظرف الاجتماعي - Social Situation الذي يحيط بعملية الكلام، ويستند

---

1 - The Oxford English Dictionary, London,1978, Vol2, Context P. 902.

2 - Jack, Richards, Longman Dictionary of Applied Linguistics. London, 1st Pub, 1985.. P. 61.

إليه عند دراستها دراسة لغوية. فالقول على سبيل المثال: إن كلمة Spinster (عانس) لا يحسن ان تطلق الا على من كانت كبيرة السن، وغير متزوّجة، قول ياخذ بمفهوم سياقيّ مُعيّن، ولكن مفهوماً اخر يَسْمَحُ بإطلاق هذه الكلمة على كل امراة فاتها الزواج، وإن لم تكن كبيرة، مفهوم ياخذ بسياق اجتماعي اخر. (1)

ويستخدم الغربيون لفظاً اخر وهو المعنى السياقي Contextual Meaning وهو المعنى الذي يستخرجه المخاطب من الكلام استناداً للسياق: اي معنى لفظة من الالفاظ، او عبارة من عبارات النص، فمثلاً اذا قيل:- Do you know the meaning of war?

فإن السّامع قد يفهم أحدَ امرَيْن، إما ان القائل يسال عن معنى كلمة War وفي هذه الحال لا بد ان يكون السياق الذي سيقت فيه العبارة درْساً في اللغة، وإما ان يكون المُراد معرفةُ ما تعنيه الحرب من قتلٍ وموتٍ ودمارٍ ومعاناة، وفي هذه الحال لا بد ان يكون المتكلّم من الجنود الذين يجادِلون سياسياً يُفَضّل اللّجوء إلى الحرب. (2)

ويشير الغربيون إلى نوع آخر من السياق، وهو السياق الصوتي Phonetic Context ويَعْنون به تاثيرَ المواقِع التي تتبوأها الاصواتُ اللغويةُ على طريقةِ نُطقها، وإخراجِها، وصفاتِها من حيثُ الشدةُ والرخاوَة، والجَهْرُ والهَمْس، فصوت (S) في الانجليزية معروف للجميع بانه صوت مهموس، الا أن هذا الصوت يُلفظ بطرقٍ كثيرة تبعاً لتنوع السياق الصّوتي وكثرته، وبحسب تنوع الوحدات الصوتية المتقدّمة

---

1 - Ibid, P. 62. وانظر Boulton, Anatomy of Language, P. 10.

2 - Ibid, P. 62.

عليه او التالية له ، فهو يفقد صفة الهمس ويبدو مجهورا اذا وقع بعد الاصوات (b. d. g) ويصبح مماثلا لصوت (Z) فنقول Bags و Beds و Roads.

فدراسة الصوت وما يقع له من تغييرات وتبدلات نطقية حسب الموقع هو نتيجة لما يسمّى بالسياق الصوتي(١) وهذا قريب مما اشار إليه ميللر وسماه السياق اللفظي Verbal Context فقد فرق بين السياق الذي يشير إليه السيكولوجيون ودوره في اكتساب اللغة ، وهو يعني بالطبع: السياق الاجتماعي، والسياق الذي ينشا عن علاقة الألفاظ بعضِها بِبَعْض: "ففي اللغة تكتسبُ كلّ وحدةٍ لغويةٍ مختارةٍ وظيفَتها من موقِعها في السّياق، فإذا شئنا نقلَها من موقع إلى اخر فإنها ستؤدي وظيفةً جديدة ، يعرفها علينا الجوُّ اللفظي الجديد ، ونستطيع القول بعبارة مُخْتَصرة : إنّ السياق اللفظي لأي مفردة هو الذي يحقق لها الجوّ التّوْصيليّ المُناسب. (٢)".

والسياق لدى باختين(٣) - وهو ناقد ادبي - احدُ ثلاثة اركان تقوم عليها دراسة النّص: أولها تجميع المعطيات المادية حول العمل

---

1 - Firth. J. R, Papers in Linguistics, Oxford University Press London, 4th ed., 1964, P. 4.

2 - George Miller, Language and communication, NewYork, 1st Pub, 1963, P. 81.

٣ - هو ميخائيل باختين Bakhtin من الشخصيات المؤثرة في الثقافة الاوروبية في منتصف القرن الحالي، ذاعت اعماله انتباه المهتمين منذ (١٩٦٣) عندما اعيد نشر كتابه عن دستوفسكي Doetoievsky الذي ظهرت الطبعة الاولى منه عام (١٩٢٩) وفي (١٩٦٥) صدر له كتاب اخر عن رابليه Rabelais وترجم الى الفرنسية (١٩٧٠) وفي (١٩٧٣) تم الكشف من ثلاثة كتب له صدرت سابقا باسماء مستعارة ، واحد هذه الكتب بعنوان "الماركسية وفلسفة اللغة" والثاني بعنوان: "الفرويدية". وفي (١٩٧٥) نشر باختين كتابا اخيرا بعنوان "قضايا الادب والجماليات"، توفي عام (١٩٧٥)، وهو روسي الجنسية.

واعادة تركيب السياق التاريخي Historical Context ثم ياتي بعد ذلك الركنان الآخران. وهما: التفسير بواسطة القوانين الاجتماعية والنفسية، ثم تاويل العمل الابداعي.(١)

اما نورثرب فراي Northrop Frye فيؤكد على اهمية السياق التعاقبي للاعمال الابداعية، بل يذهب إلى ما هو ابعد من ذلك فيوصي بإقامة العلاقة ما بين العمل الادبي وسياق الكلام غير الادبي، مع كل ما يتعلق بالثقافة الملائمة لفهم الادب. وقد اوضح هذا في كتابه The Critical Path(٢). ويقول في موضع ثان: "لا يعدو فهم النص الادبي وَضْعَهُ في مَوْضعه من السِّياق"، سياقِ عَصْره، وما ظهرت فيه من مولّفاتٍ وكتبٍ تتناول الادبَ وغيرَه".(٣)

ويعقّب غراهام هو(٤) على اعمال ريتشاردز وطريقته في نقد الشعر قائلا: "إن قراءة القصيدة خارجَ سياقِها لا تعدّ قراءةً ابداً".(٥)

---

١ - تزيفتان تودوروف: نقد النقد، ترجمة د. سامي سويدان، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٢، ١٩٨٦، ص ١١.

٢ - السابق، ص ٩٦ وفراي من اكثر النقاد شهرة في القرن الحالي، اهتم في البداية بالدراسات المتخصصة، فصدرت له كتب عن بليك Blake وشلات دراسات من شكسبير، وواحدة عن ملتون Milton وفي (١٩٦٣)، صدر له كتاب خرافات الهوية Fables Of Identity وفي (١٩٧٠) صدر له كتاب البنية العنيدة، The Stubborn Structure ومن ابرز اعماله سلطة الخيال، والثقافة ومواجهة وسائل الاعلام، وكتاب "تشريح النقد" Anatomy Of Criticism وقد ترجم للفرنسية عام (١٩٨٢) وكتاب "نظام الرموز الكبير" الذي نقل إلى الفرنسية بعنوان La Grand Code وصدر عام ١٩٨٤.

٣ - تودوروف: السابق، ص١٠١ نقلاً من كتابه (البنية العنيدة) ص٨٨.

٤ - غراهام هو احد النقاد البريطانيين وعضو هيئة التدريس في جامعة كمبردج، صدر له بالعربية كتاب (مقالة في النقد) من ترجمة محي الدين صبحي، دمشق، ١٩٧٣. وله كتاب: اخر الرومانسيين من رسكين إلى ييتس. وله ايضاً "الشمس السوداء" ودراسة في ادب لورنس Lawrence وكتاب "الصورة والتجربة: تأملات في الثورة الادبية" وكتاب "الحلم والرسالة". وكتاب الاسلوب والاسلوبية: Style and Stylistics.

٥ - غراهام هو: الاسلوب والاسلوبية، ترجمة كاظم سعد الدين، بغداد، ١٩٨٥، ص ٩٢.

ويذهب ايان واط Watt إلى القول بسياق اخر وهو السياق الايديولوجي. وهو المكون من خطابات اخرى استُعْملت في عَصْرِ النّص، سواءٌ اكانت خطابات فلسفية ام سياسية ام علمية ام دينية، ام جمالية. وقد يتجاوز ذلك إلى معطيات عن الواقع الاقتصادي نفسه.

وهذا السياق سياقٌ متزامنٌ Diachronical اي متحرّكٌ تاريخياً من نقطة إلى اخرى، ولذلك يسمّى عادة بالسياق التاريخي.(١)

وثمة سياق اخر وهو السياق الادبي، والمراد به الماثورات الشعبية والادبية، وذاكرة الكتّاب والقرّاء التي تبلورت في اعْراف نَوْعيّة، وانماطٍ سرديّة، واسلوبيّة شائعة، وهو سياقٌ لا يخلو من التّعاقُبِ والتّجانُسِ في الوَقْتِ نَفْسِه.(٢)

والنّظرُ فيما تقدم من دلالات للسياق لغةً واصطلاحاً يجعلنا ننبّه إلى الملاحظات التالية:-

١ - يتفق جُلّ أهْل الراي، والبَصَر باللسان على انّ للسياق اثراً في البحث الدلالي، وان له فضلاً في تمييز الدلالات المختلفة للفظة الواحدة بحسب الاستعمال والموقع.

٢ - والسياق بهذا المفهوم يتعدّى ما هو معروف من حيث انه تتابع للاصوات والالفاظ ليشمل فضلاً عن ذلك الجو البيني والنفسي المحيط بكل من المتكلّم والسامع، اي ان السياق سياقان:لغويّ واخر حالي، او مقالي واخر مقامي.

---

١ - تودوروف، السابق، ص ١٠٤ وايان واط من النقاد الانجليز الذين شاعت شهرتهم بعد عام ١٩٦٠. من مؤلفاته: صعود الرواية The Rise of the Novel وله كتاب: ولادة الرواية الانجليزية من خلال مؤلفات ديفو Defoe وريتشاردسون Richardson وفيلدنج Fielding وكتاب كونراد في القرن التاسع عشر Conrad in the Nineteenth Century.

٢ - تزيفتان تودوروف، المرجع السابق، ص ١٠٨.

٣ - والسّياقُ يَشْمَلُ أيضاً الجوّ العام المحيط بالنص اللغوي. ودراسة هذا النص، وفهمه فهماً عميقاً، ودقيقاً، وشاملاً، محتاجٌ إلى معرفة بالعوامل السياقية، وفي مقدمتها الثقافة والبيئة والوسط الاجتماعي ... الخ.

٤ - والسياق هو الذي يقرّر قيمة اللفظة او العبارة من حيث وظيفتها التوصيلية، تبعاً لعلاقتها بما يتقدم عليها من الفاظ او يتلوها.

وفي ضوء هذه الملحوظات نامل النظر في طبيعة "السياقية" من حيث هي نظرية لغوية حديثة ذات مرتكزات اساسية ثابتة، وسيكون تاملنا لهذه النظرية متسقاً مع النسق التاريخي لتطور البحث اللغوي.

(٧) المفهوم النظري للسياقية ودورها في البحث:-

يؤكد سوسير في كتابه "دروس في الالسنية العامة" اهمية الدور الذي يحتلّه السياق في الدرس اللغوي. فاللغة - في نظره - شبكةٌ من العلاقات، وكل جزء في هذه الشبكة متاثر بالاجزاء الاخرى، وكل عبارة تستمد قيمَتها من تقابُلِها مع العبارات الاخرى. وعندما يتغيّر موقع اللفظ، او العبارة، فإن هذا التغيير يصيبُ باشره ساثرَ النص، تماماً مثلما تُحْدِثُ نَقْلَةٌ ما لاحد أحْجار رُقعة الشُّطْرَنج تغييراً جديداً يؤثر على مصير اللعبة كاملة.(١)

وغير بعيد عن هذا ما كان قد ذهب إليه فندريس Vendryes من حيث ان الذي يعيّن قيمة الكلمة الوظيفية، في كل الحالات التي نوقشت

---

١ - سوسير، محاضرات في الالسنية العامة (مرجع سابق) ص ص ١١٠ - ١١١.

فيها ، إنما هو السياق.(١) ففي كل مرة يجري فيها استعمال الكلمة تكتسب معنى يحدّدُه الجوّ اللفظي الذي هي فيه، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدةً على الكلمة على الرغم من المعاني المتنوعة التي في وُسعها ان تدلّ عليها. والسّياق هو الذي يُخلّص الكلمة من الدلالات القديمة التي تدَعُها الذاكرةُ تتراكمُ فيها، وهو الذي يهيء لها قيمةً حضورية. وكلّما كثرُ استعمال لفظةٍ في سياقات مختلفة كثرت المعاني التي تدلّ عليها، كما ان اللفظة التي نسمَعُها للمرّة الاولى، او نسمع بها مركبة تركيباً جديداً إنما نعتمد في فهم دلالتها الجديدة على سياق النص.(٢)

ومن الخواصّ التي تمتاز بها اللغات اعتمادها الاستعمال المتنوّع السّياق في إثراء مخزونها من الالفاظ.(٣) وعلى الرغم من ان بعض اللغويين يظنّون كل الظن ان التجديد في الوحدات الدلالية للغات يرجع إلى تغييرات عارضة في الاصوات الا انه لا نُكرانَ في انّ الهَجْرَ والاستعمالَ هما من أسباب مُواتِ الالفاظ وحياتها. فالسياق "يحيي الالفاظ"(٤) او يطويها بالانصراف عن استخدامها في المخاطَبات اليومية.(٥)

ويؤكد لوفيفر(٦) في "اللسان والمجتمع" على ان السّياق هو

---

١ - فندريس، اللغة (مرجع سابق) ص ٢٣١.

٢ - نفسه، ٢٥٣.

٣ - نفسه، ٢٧٢.

٤ - نفسه، ٢٧٣.

٥ - نفسه، ٢٧٩.

٦ - فيلسوف وعالم اجتماع وعالم لغوي فرنسي من ابرز كتبه كتاب: "اللسان والمجتمع" وقد مر ذكره في السابق.

الحَكَمَ الفَيْصلُ في تمييز معاني الوحدات الكلامية ذات الدلالات المتعدّدة ،او ما يسمى بالمشترك اللفظي "فكلمة Mouton" بالفرنسية لها معنيان على الاقل، في الاول منهما: تعني حيوانات حية. وفي الثاني: اللحوم التي تباع في دكاكين القصابين. "والمُعوّل في الإبانة عن ايّ المعنَيَيْن هو المُراد على السياق، فالمعنى الذي تنمّ عليه زُمْرة الفاظ في تركيب قد يختلف في دلالاته وغناه عن دلالات الالفاظ مستبعدة من السياق". (١) ويتوسّع الباحث في هذا الامر مشيرا إلى الدور الذي تقوم به القَرينة الاجتماعية في إزالة اللَّبس الذي ينشا حول الصِّلة بين الدّلالة واللفظ. (٢)

وقد اخذ علماءُ حلقة براغ - وفي مقدّمتهم رومان ياكبسون Jakobsonبالاشارة التي اوردها سوسير فيما سماه العلاقات السياقية. ووضع ياكبسون نظرية جديدة في دراسة اللغة والادب انطلاقا من هذه الإشارة، مطلقا على "العلاقات السياقية" اسما جديدا هو "علاقات المُجَاورة" اما العلاقات الايحائية "التي تكلم عليها سوسير فقد سمّاها ياكبسون "علاقات التشابه". (٣) وحاول بعد ذلك تحديد قوانين التَّسَلْسُل السياقي، (٤) فوجد ان هذه القوانين تنحصر فيما يلي:-

١ - علاقة تَضمُّن، وهي ان يقتضي وجود وحدة نصية وجود الوحدة الاخرى. ومثال ذلك وجود جملة اسمية يقتضي وجود المبتدا.

٢ - علاقة تضمُّن بسيطة، وهو سياق تؤدي فيه وحْدَةٌ ما بالضرورة إلى الأخرى، كمعرفة جواب الشرط مثلا من خلال فعله.

---

١ - لوفيفر: اللسان والمجتمع (مرجع سابق) ص ص ١٠٤ - ١٠٥.

٢ - نفسه، ص ١٨٥.

٣ - انظر: د. صلاح فضل: النظرية البنائية (مرجع سابق) ٣٠ والعلاقات السياقية لدى سوسير هي الخلاف الذي ينشا بين العناصر المكونة للسلسلة الكلامية.

٤ - نفسه: ١١٥.

٣ - علاقة توافق.(١)

والسياق في رايه يحتلُّ مركزاً مهماً في عملية التوصيل، فلكل حدث كلامي خمسةُ عناصر مترابطة هي: المرْسِلُ والمتلقّي ومحتوى الرسالة والقناة والشيفرة او" الكود" Cod(٢) واما علاقة هذه العناصر ببعضها بعضاً فمتغيرةٌ بحسب الوظيفة الرئيسيّة لكل منها. وهي في رايه تتم على النحو التالي:-

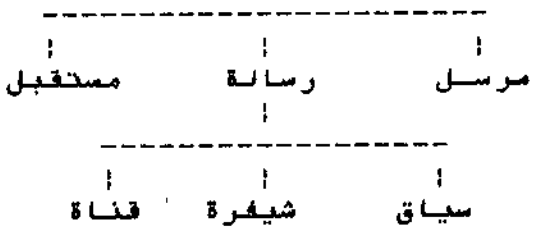

فالرسالة لا بد لها من سياق تندرج فيه، والا فقدت فيها "الشيفرة" قدرتها على محاورة المتلقي.

والعوامل التي ذكرناها هي التي سمّاها ياكبسون "العوامل السياقية" وقد توسع في مفهوم السياق ليشمل بالاضافة الى السياق المقالي دائرةً أوْسع هي التي تسمى بالسياق "المقامي" Context of Situation. وكان قد استعمل هذا الاصطلاح - كما سبق ان اشرنا - عالم اللغة الانثروبولوجي مالينوفسكي.(٣) وجاء فيرث Firth ليتوسع في هذه النظرية، جاعلاً من دراسة اللغة بعامة، من

---

١ - نفسه، ١١٦.

٢ - نفسه، ص ص ٣٩٨ - ٣٩٩ وانظر: د. سعيد الغانمي: الاستعارة عند ياكبسون (مقالة) مجلة الاقلام، بغداد، (٢٥ار)، ١٩٨٨، ص ٥٣.

3 - Durcot/Todorove, Encyclopedic Dictionary, PP. 64 - 65.

حيث الاصوات والالفاظ والتراكيب والمعاني، دراسة قائمةً على العلاقة بين العناصر اللغوية والسياق الاجتماعي Social Context(١)، وقد زاد في الإتكاء على هذه الفكرة في دراسة النصوص بتناول ما يحيط بها من ظروف، سواء أكانت متصلة بالمكان ام بالزمان ام بالمشاركين فيها، إلى جانب الغرض الرئيسي للنص.(٢)

يقول فيرث: إن اي دراسة او ملاحظة للاصوات اللغوية، او اي عُنْصر اخر من عناصرِ اللّغة، هي دراسةٌ ناقصةٌ ما لم تعتَمِدْ كلّيا على السياق.(٣) والأمر ليس ضرورةً في دراسة الاصواتِ حسب، وإنما هو ضرورةٌ ايضا في دراسة الالفاظ، فالمبدا الاساسيّ الذي قامت عليه المعاجمُ اللغويةُ بدءا من الدكتور جونسون Johnson حتى نهاية القرن الماضي (التاسع عشر) هو المَعْنى. والمعنى الكامل للفظة الواحدة لا يمكن تقديمه الا بتَقْليب وجوه الاستعمال، ولا تُتَصوّر دراسة المعاني المختلفة للفظة الواحدة ما لم يُؤخذ السياق بالاعتبار.(٤) وقد يتطلّب تصنيفُ معاني اللفظة الواحدة الاخذ بالمبدا التاريخي Historical Principle وهذا ما كان داب عليه المعجميّون في اوائل القرن الحالي. فوجدنا منهم من يصنّف الدلالات بحسب العَصْرِ او بحسب الحقيقةِ والمجازِ او العُموم والخُصوص.(٥)

---

١ - انظر: د. مصطفى لطفي: اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، معهد الانماء العربي، بيروت، لبنان، ط٢، (١٩٨٢)، ص٤٦.

2 - Durcot/Todorove, Ibid, P. 65.

3 - Firth, Papers in Linguistics, P. 4.

4 - Ibid, P.7. وانظر Boulton, The Anatomy of Language, P. 10. والدكتور صمويل جونسون Dr. Samuel Johnson (١٧٠٩ - ١٧٨٤) هو مؤلف معجم اللغة الانجليزية الشهير.

5 - Firth, Ibid, P. 8.

ويفند فيرث ما ذهب إلى القول به كل من ريتشاردز (١) واوجدن في كتابهما معنى المعنى The Meaning of Meaning من حيث ان المعاني تنشأ نتيجة العلاقات الكامنة في عقل الانسان، وهي التي تصل بين الالفاظ والمدلولات، فالدلالات تنشأ في راي فيرث بطريقة "سياقية" تتحكم فيها القرائن الحاليّة التي تصاحب عمليّة الكلام إلى جانب القرائن الخاصّة بنظام اللغة سَمْعاً ونطقاً، وذلك عن طريق خبرة المتلقي، ومعرفته بذلك النظام، ويَسْتَنْتِجُ من ذلكَ انَّ اللغة مجموعة ضخمةٌ من العلاقاتِ السياقيّة المعقّدة المتشابكة التي تشمل الصوتيات والنّحو والمُعْجَمات والدّلالة. (٢)

فمن حيث الاصواتُ يرى فيرث انّ من الواجب دراسة الصوت اللغوي في إطار علاقاته السياقية؛ اي ما يسمى بالسياق الصوتي Phonetic Contextحيث العلاقاتُ، والمتغيّرات الصوتيةُ، تاخذ حقها من الدّرْس، بحسب موقعها من السياق، وقد تشملُ هذه التغيرات النغمة Tone والنَّبْرَ Stress وطولَ الصوت Length. (٣)

ويدعو فيرث إلى دَمْج المستويَيْن الصوتي والصرفي في دراسة واحدة، او منهج واحد للدّرْس، اذ لا يمكن دراسة "الدلالة اللغوية" بعيداً عن الصّرف. Morphology كما لا يُمكن دَرْس الصَّرف بمَعْزِل عن الدّرْس الصوتي. (٤) والباحثُ اللغوي المُعاصر محتاجٌ إلى مَنْهَجٍ جديد

---

١ - ريتشاردز من نقاد بريطانيا المعاصرين له كتاب "مبادئ النقد الادبي" نقله إلى العربية د. مصطفى بدوي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٣. وكان قد بدا حياته العلمية بمؤلف حول اسس علم الجمال (١٩٢٢). The Foundations of Aesthetics واصدر مع زميله عالم النفس اوجدن C.K. Ogden كتابه: The Meaning of Meaning "معنى المعنى" الذي ذكرناه، عام (١٩٢٣) وقد وصف المؤلفان بانه دراسة لتاثير اللغة في الفكر وسمياه علم الرموز. ويعرف ريتشاردز بصعوبة اسلوبه الكتابي.

2 - Firth, Ibid, P. 19.

3 - Ibid, PP. 20 - 23.

4 - Ibid, P. 23.

يتناوَلُ في نَوْعِه الصَّوتَ الخالِصَ في اثناء دراسته للعلاقات الصوتية السياقية المُنْدَرِجة في التركيب الصَّوتي او النظم. وهذه الدراسة القائمة في نظره - على التحليل الوظيفي للصوت اللغوي في وضعه السياقي هي الخطوةُ الاولى في طريق دمج المستوَيْين الصرفي والدلالي. (١)

ويتوسع فيرث في بحوثه الدّلالية مراعياً الدور الذي يقوم به الظرف الإجتماعي المحيط بالمتكلمين،والسامعين،في توصيل الرسالة الكلامية. وابدى اهتماماً اكبر بهذا الذي وَسَمه مالينوفسكي بـ"سياق الحال" وتنبأ بان ياخذ به الباحثون في اللغة والاتصال بحيث يظهر علم خاص هو"علم اللغة الإجتماعي".

Sociological Linguistics. وهذا العلم سيعمد لتناول السياق الثقافي Contex of culture وسوف يصنّف الوظائف الكثيرةُ لها بحسب الأحوال المناسبة (٢).

ويستعرض فيرث أدلّةً كثيرة تؤكّد انّ معرفةَ الإنسان بالثقافة الموروثة للغة تساعده في معرفة دلالات الالفاظ، فإذا فتحنا معجماً كبيراً على كلمة مثل Set وجدنا عدداً من الصفحات قد يصل إلى ثماني عشرة صفحة في شرح هذه اللفظة،واكثر من مائة وخمسة واربعين معنى، ولكن السّامع حين يسمع هذه اللفظة في عبارة يلفظها احد الاشخاص فإنه لايستعيد المعاني كلها وإنما يبرز المعنى الخاص للفظة بحسب اعتياده للسياق الذي تتردد فيه، وهو السياق الذي

---

1 - Ibid, P. 24.

2 - Firth, Ibid, P. 27.

اصبح جزءاً من ثقافة اللغة السائدة. فالمرء منا يولد فرداً ولكنه محتاج لكي يعيش وينمو ويتطور إلى اختلاط بالناس، وهذا الاختلاط تنشأ عنه معرفة خاصة بالألفاظ المتداولة، اولاً: في نطاق الأسرة، ثم - ثانياً - يتزايد هذا الوَعْيُ الشخصيّ وينمو بنمو الدائرة واتساعها مع تدرّج الحياة مرحلةً مرحلة. (1) ولذلك دعا فيرث إلى منهج خاص في دراسة اللغة يعتمد على وضعها في إطارها الاجتماعي، او في سياقها الحالي والمقالي. فلكي نفهم النُّظُم التي تنطلق منها المخاطبات علينا ان نتجاوز حدود اللغة ذاتها، والتامل في عناصر اساسية اخرى لاغنى عنها للباحث، مثل: الكلام والسمع، والكتابة والقراءة، والفصيح والمحكيّ، وجلّ أشكال الخطاب في المدرسة والمحكمة والكنيسة، وكل مايخطر بالبال من انماط كلامية خاصة "(2).

وتحليل المخاطبات عند فيرث يبدأ بإعادة الخطاب إلى سياقه الثقافي من جهة، وإلى "سياق الحال": اي الظرف اللاصق بالخطاب وعناصره. (3). وهذا السياق يشمل دراسة تجربة المتكلم (صاحب الخطاب) (أ) ثم تجربة المتلكم (ب) إلى آخر المتكلمين، ثم يتناول دَرْسُ سياق الحال اجزاءً اخرى منها سياق الفعل (verb) وسياق الصوت، واي عناصر اخرى تقع في نص الخطاب(٤).

ويوضّح فيرث اهمية تفحُّص هذه العناصر التي هي خارج هامش الخطاب اللغوي، بقوله: ان دلالات الألفاظ لاتنحصر في الدور الذي تقوم به من حيث انها دوال على المعاني، وهذه الدلالات لاتتحقق من

---

(1) Ibid, PP. 28 - 29. وانظر P. 144.

(2) Ibid, P. 30.

(3) Ibid, P. 36.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه الفكرة انظر =
- Kother/ Light (editors), The world of words, Boston, USA. 1987, P. 361.

خلال المعاني فقط، ففي اثناء الكلام تؤثر الظروف والاعمال التي يقوم بها المتكلم في افهام السامع المعاني، والزائر قُبَيْل ان تصل إليه معاني الكلمات الترحيبية التي يلقاه مضيفه بها يلمح السرور والبشاشة في وجهه وحركاته واساريره. كما ان المُضيف يتلقى تاثير كلماته على الضيف بمراقبة الوجه، وردّ الفعل المباشر. وعلى هذا النّحو تتدخل عناصر غير لغوية في طريقة فهم الاشخاص بعضهم بعضاً وتؤثر فيها، حتى طريقة الجلوس وتقديم الكاس، وكل مسلك يصدر عن الاشخاص يؤثر تاثيراً عميقاً في دلالات الالفاظ.

ومن اجل ذلك فإن الزعم بان الكلمات وحدها هي التي تؤدي إلى الدلالات والمعاني من غير الاخذ بالاعتبار الظروف السياقية المقصودة التي تسمى سياق الحال: Contex Of situation زَعْمٌ بعيد عن الدقة (١). وهذه العناصر الخارجة عن الخطاب تؤثر أيضاً في الجانب الصوتي للكلام تاثيرها في التركيب النحوي والدلالي، فالحدث الكلامي حدث ملئ بالعناصر الحركية، مترع بالإبداع والخَلْق (٢).

وقد تناول فيرث من خلال مفهومه هذا "السياق الحال" كثيراً من الموضوعات التطبيقية التي هي من اختصاصات علم اللغة الاجتماعي. واندفع إلى ذلك متمشياً مع القاعدة التي وضعها لدراسة المخاطبات فهي لابد ان تقوم على ثلاثة اركان، الاول منها هو: اللغة، والثاني هو البراعة في استخدامها بحيث تحمل عند الاستعمال قيماً حقيقية، والثالث: ملاحظة الظروف المحيطة بالمتكلم والسامع من النواحي كافة (٣).

---

(1) Firth, The Tongues of Men and Speech, Oxford University Press, London, 2nd ed 1960, PP 110 - 111.

(2) Ibid, P. 111.

(3) Ibid, P. 135.

ومن النماذج التطبيقية دراسته للغة "البيع والشراء" في بعض مناطق من البيئة الليبية. وقد عززت هذه الدراسة ما كان قد ذهب إليه ؛ بحيث اكدت على قيمة العوامل السياقية التالية :-

١ - الحالة المباشرة للمتكلم كأنْ يكون واقفاً يؤشّر للحافلة وهي منطلقة صباحاً.

٢ - النشاط العملي الذي يصدر عن المتكلّم في أثناء كلامه ، هل يقوم بشراء قطعة ملابس مثلاً ، او يتناول طعامه ، او يُلقي محاضرة ؟ فلكلّ نشاط من هذه الأنشطة دوره في التاثير على العملية الكلامية.

٣ - وظيفة الكلام ، وما إذا كان الهدف منه الاعتذار او الشتم او اللوم.

٤ - واخيراً مستوى المتكلّم الثقافي والمهني وبيئته الجغرافية وعلاقاته (١)

وقد ذهب فيرث إلى ماهو ابعد من ذلك قدما إلى مراعاة جنس المتكلّم ، وهل هو ذكر ام انثى؟ فالتجارب والدراسات التي اجريت على حوار الجماعات وتركيبه الخافع - في رايه - لعوامل مُجْتَمعيّة راسخة ، وثقافية مشتركة ، وتنوّع في النطق والتنغيم والاستعمالات وتوظيف الحديث، دلّت، دلالة اكيدة ، على انّ كلام الرجال مختلف - في طبيعته ونظامه - عن كلام النساء (٢).

---

1) Michell. T. F. Principles of Firthian Lingaistics. Longman group., 1 et pub. 1975. PP. 166 - 198.

(2) Ibid, P. 113.

لقد كانت آراء فيرث وبحوثه حافزاً لعدد من تلاميذه واتباعه سواء في انجلترا او في امريكا لمتابعة الدراسات السياقية للغة، ومن الذين اقتفوا اثره: هاليدي Halliday وماكنتوش وقد توسع في دراسة اللغة من حيث هي ظاهرة اجتماعية هايمز Hymes الذي الف مع جون غيمبرز (١٩٦٤) كتاباً بعنوان: Ethnography of communication: اكدا فيه من خلال الدّرْس التطبيقي دور اللغة في تصوير السمات العرقية والاخلاقية والثقافية والإجتماعية للشعوب(١). وتوسع في هذا الاتجاه عالمان آخران هما: كريستال ودافي (١٩٦٥) في كتابهما: Investigating English Style الذي ذهبا فيه إلى ضرورة الاخذ بالنسق التالي عند دراسة الخطاب:

١. الخصائص الاسلوبية الشخصية للمتكلم.

٢. اللهجة المحلية له.

٣. الفترة الزمنية (التاريخية) التي ينتسب إليها صاحب الخطاب.

٤. وسيلة التوصيل: كتابيّة أو شفوية.

٥. نوعية الخطاب اهو موجّهٌ للغير ام مناجاة للنفس.

٦. نوعية العلاقة بين المتكلم والسامع.

٧. نوع الموقف،وهل هو جدلي، او محاضرة، أو شعر، او نثر قصصي(٢).

---

(١) انظر = د. مصطفى لطفي: اللغة العربية في إطارها الإجتماعي، ص ٤٦ وقد شاع هذا المصطلح وهو (اثنوغرافيا الإتصال) بعد صدور الكتاب المذكور، وكانت الدراسة الوصفية للكلام تتم قبل ذلك من خلال ملاحظات الإنثروبولوجيين. وقد القى كتاب هايمز وزميله باثره على الجيل الجديد من اللغويين امثال: شيرزر Sherzer ودارنيل Darnell، انظر=

Mariel Saville - Troike,The Ethnography of communication, oxford, England, 1st ed, *1982) PP. 1 - 2.

(٢) د. مصطفى لطفي: السابق ص ٥٠.

ويؤكد هؤلاء الباحثون بصفة خاصة على "دور الدراسة الوظيفية للغة باستبعاد دراسة الأبنية النحوية التي شغلت شومسكي كثيراً، والتركيز بدلاً من ذلك في دراسة الاستعمال اللغوي، وقواعد الكلام، والطرائق التي يتقيد بها المتحدثون - بصفة خاصة - من طرق للحديث والنطق والتراسل في حالات محدودة" (١). ويمثّل قِسْمٌ منهم على هذا بالإشارة إلى ألفاظ يضمّها المعجم الذي يقدم لها شرحاً معيناً، ولكننا بمجرد سماع هذه الألفاظ نجد أنفسنا فوراً وقد اصبحنا في خانة محددة؛ فكلمة "نظافة" او "نظيف" تضعنا فوراً في سياق لغة الإعلانات، وكلمة "تحقيق" تضعنا فوراً في مجال لغة الجرائد والصحافة، لاسيما العنوانات الرئيسة فيها، وكلمة "ملاعق" تنقلنا فوراً إلى اجواء المطاعم والفنادق، اما لفظة (ياقة) فتذكّر بسلسلة من مفردات الخيّاطين والتراكيب المتداولة في اوساط صانعي الالبسة.

وبصرف النظر عن القواعد الدلالية والنحوية التي يلتزمها المتكلمون جميعاً، فإن اختلاف طبيعة الكلام من شخص إلى آخر يعود إلى فروق دقيقة في الأجواء التي ينتمي إليها المشاركون في الحديث، والدليل على ذلك استدعاء تلك الألفاظ لهاتيك الأجواء" (٢). وهذا مايؤكده الباحثون من حيث أن عملية التحدث، ودراسة الكلام، إنما هي دراسة لمجموعة من العلاقات المعقدة، والأجواء المتداخلة (٣). ويحتاج فهمنا لعملية الإتصال الى تصنيف المستويات

---

(1) Malcolm Coulthard, An Introduction to Discourse Analysis, Longman, 6 th imp, 1983, PP. 30 - 31.

(2) Ibid, P. 36.

(3) George Miller: Langnuge and Communication, P. 253.

اللغوية في سجلات سياقية Registers، والسجل السياقي - عادة - هو: المجال Field والمنحى Mode والعلاقة Tenor ويقصد بالمجال: الهدف او الغاية Purpose وبالمنحى الوسيلة الخاصة المتخدمة في التوصيل (كتابة او قراءة او مشافهة) وبالعلاقة تلك الروابط التي تقوم بين المشاركين Participants في الحدث الاتصالي(١).

وهذه العناصر تمثل قيوداً وشروطاً للكلام، وهي شروط اجتماعية ذات اثر عميق فيه، خلافاً لما كان ذهب إليه سوسير Saussure من ان الكلام هو العنصر الفردي في اللغة، وان لاصلة له بالقيود الاجتماعية (٢) علاوة على ان مثل هاتيك السجلات السياقية لها تاثيرها في تقويم الكلام والحكم عليه، وقد اكتشف هايمز Hymes - في دراسة له - ان بعض المجتمعات تجعل من اشتمال الكلام على معلومات اخبارية Informative معياراً للجودة، في حين ان بعضها يعدّ الإقلال من الكلام معياراً آخر (٣).

ولهذا يذهب هايمز إلى القول بان الطفل يكتسب لغته وسليقته من مصادر اخرى غير الأجرومية - كما يؤكد شومسكي - فهو يتعلم معها مقدرة اتصالية تقوم على مراعاة: متى يتكلم ومتى لايتكلم، وما الذي يتكلم عليه، واين،وكيف؟. اي ان الطفل محتاج إلى تعلم قائمة هائلة من الافعال الكلامية Speech Acts التي يضعها موضع التطبيق، ويعد هذا القسم من مقدرته مكملاً لمعرفته باللغة، وهو

---

(١) هدسن: علم اللغة الإجتماعي، ترجمة د. محمود عبد الغني عياد، ومراجعة: عبد الامير الاكسم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ١، ١٩٨٧، ص ص ٨٨ - ٩٠.

(٢) سبق ان اشرنا إلى تناقض سويسر في هذه المسالة، وانظر = هدسن، السابق ص ص ١٨٣ - ١٨٦.

(٣) هدسن: السابق، ص ص ٢٠١ - ٢٠٣.

جزء من الموقف القائم على التداخل بين اللغة والقواعد الاخرى المنظمة للسلوك الإتصالي"(١).

والمستخلص مما سبق ذكره ان النظرية السياقية تقوم على ركائز منها: النظر إلى الحدث اللغوي من حيث انه شبكة من العلاقات، فلا انفكاك بين المستوى الصوتي والصرفي والدلالي.

وبناء عليه فإن هذه المستويات يؤثر بعضها في بعضها الآخر، ولابد للباحث من ان ياخذ هذا بعين الاهتمام عند التحليل والدّرس. كما ان السياقية تعتمد على تامل العُقَدَ التي تصل خيوط هذه الشبكة، فتجاور الاصوات مثلا، او تتابع الالفاظ والعبارات، له تاثيره ونظامه في الخطاب، والدراسة السياقية توجب على البحث الانطلاق من حدود النص إلى الخارج، بحيث يراعي شان المتكلم، وشان المخاطَب السامع، وشان الحال الذي يتناوله الحديث ويدور فيه، والغاية من الكلام، وما شاكل ذلك من جوانب قد لاتبدو مؤثّرة ومهمة في الدّرس اللغوي: النحوي والبنيوي، إضافة إلى معرفة العادات النُّطقية والسَّمْعية، والاخذ بمبدا السجلاّت السياقية، فهذا كله يجعل من الدّرْس اللغوي درسا للغة في إطارها الاجتماعي، وهو الإطار الذي يجعل منها وسيلة اتصال، ووسيلة خَلْق، ووسيلة تعبير شديدة التعقيد، عالية الكفاءة.

ونتراجع الآن متساءلين: ماحظُّ البحث العربي اللغوي من السياقية؟ وهل اسهم علماء العربية في هذا الشان؟.

---

(١) هدسن، السابق ص ص ٣٦٢ - ٣٦٣.

ولكي نجيب على مثل هذه الاسئلة لابد من امتحان نمتحن فيه الدراسات والابحاث اللغوية العربية. إذْ من العسير على المرء ان يقارن وضعاً معاصراً، بكل مافي المعاصرة من الجدة والخبرة، بوضع قديم مرت عليه قرون وقرون. بيد ان النّبْشَ في التراث اللغوي سيسعفنا في تكوين صورة، نأمل في ان تكون تقريبية، حول موقف اللغويين العرب من السياق. وهذه الصورة سوف تشجع الباحث - ولاشك - في إجراء مثل هاته المقارنة.

٨ - اللغويون العرب والسياق:

لعل اقدم نص وقع بين ايدينا يشتمل على لفظة "سياق" بالمعنى الاصطلاحي الذي سبق الكلام عليه، ماجاء في "الرسالة" للإمام الشافعي (محمد بن إدريس): (١٥٠ - ٢٠٤هـ/٧٦٧ - ٨١٩م)، يقول "وفِطْرَتُه أنْ يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يُراد به الظاهرُ، ويُستغنى بأول هذا منه عن اخره، وعاماً ظاهراً يُراد به العامُّ ويدخله الخاصّ، فيستدل على هذا ببعض مأخوطب به فيه؛ وعامّاً ظاهراً يُرادُ به الخاصُّ، وظاهراً يُعْرفُ في "سياقِه" انه يُرادُ به غَيْرَ ظاهره". (١).

فالنص يؤكد ان السياق يؤثر على دلالة القول فيعدل به من الظّاهر الذي

---

(١) الشافعي (محمد بن ادريس)؛ الرسالة، تحقيق احمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية (مصورة) بيروت، لبنان، (د.ن)، ص ٥٢.

يدل عليه وينم عنه إلى غيره. ويقول في موضع ثان: إن من آي القرآن الكريم آياتٌ يحتاج بيانُها إلى معرفة بالحال للوصول إلى معناها، ومن أمثلة ذلك قولُه تعالى: "واسالهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر"(١) فهو إنما اراد اهل القرية، لان القرية لم تكون عادية في سَبْت ولا في غيره.(٢) وهذا لا يتوصل اليه الا بتذكر الحكاية المضمّنة في الآية.

والسياق في العربية لا يعني - على الدوام - سياق الحال، وإنما يعني ايضا النمط الذي يتخذه الحديث في تتابعه. فقد ذكر الزمخشري (٥٣٨هـ/١١٤٣م) في "اساس البلاغة" ان من المجاز قولهم: "فلان يسوق الحديث احسن سياق". و"إليك يُساق الحديث" و"هذا الكلام مساقُه إلى كذا" و"جئتك بالحديث على سَوْقِه: اي سَرْدِه"(٣).

والمجاز في كلمة سياق من الجذر الثلاثي "سَوَقَ" وقد وردت هذه اللفظة في تصاريف متعددة في القرآن الكريم، وهي بمعنى ساق الشئ من مكان إلى آخر(٤).

واستخدم الاصوليون والمفسرون كلمة السياق بالمعنيَيْن المتلازمين، وهما القرينة اللفظية، ثم القرينة الحالية. يقول الزركشي (٧٩٤هـ/١٣٩١م) في تصنيف الرّاغب الاصفهاني (٥٠٢ هـ/١١٠٨م) "الغريب القرآن": "وهو يتصيَّدُ المَعاني من السّياق، لان مدلولات الالفاظ خاصّة"(٥).

---

(١) سورة الاعراف: ١٦٣.

(٢) الشافعي: المصدر السابق ص ٦٢.

(٣) الزمخشري: اساس البلاغة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ١٩٧٩ مادة سوق.

(٤) سورة الاعراف: ٥٧، وسورة مريم: ٨٦، وسورة الزمر: ٧١، وسورة الانفال: ٦، وسورة القيامة: ٣٠.

(٥) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعرفة، بيروت (د ت) ٢٩١/١.

"وقد تتنزّلُ الآيات في رايه على الاسباب خاصة، وتوضع كل واحدة منها مع ما يناسبها من الآي، رعاية لنظم القرآن، وحُسْن السياق"(١) فالأحداث والمناسبات التي تتعلق الايات بها قد لا تمنع وَضْعَ الاية في موقع اخر يناسبها لجعل نظام السرد القرآني نظاما، متلاحما، متماسكا، متجانسا. وهذا بالطّبع يجعل من مهمة الشارح او المفسر مهمة صعبة معقدة، إذ عليه ان يفكك هذا النظام، ويعيد لكل اية موقعها من المناسبات والاحداث والمقامات للإلمام بالاحوال والقرائن. وهذه القرائن إما لفظية، وإما حالية، واللفظية معروفة لا ضرورة للكلام عليها ههنا. وقرائن الاحوال كالإشارات والرموز والحركات والسوابق واللواحق، وهي لا تدخل تحت حَصْر، ولا يختص بإدراكها مشاهدها بل قد تنقل لمن لم يشاهدها فِعْلُ الصحابة في نقلهم القرائن للتابعين بالفاظ صريحة، او بقرائن من ذلك الجنس(٢).

وفي موضع ثان يؤكد الغزالي (٥٠٥هـ/١١١١م) دور القرينة الحالية في تحقيق التواصل الذي عبر عنه "بالإفادة" حينا، وبّالبيان" حينا، آخر. "اعلم أن كل مفيد من كلام الشارع، وفعله، وسكوته واستبشاره، حيثُ يكونُ دليلا، وتنبيهاً بفحوى الكلام على علة الحكم، كل ذلك بيان. وهو، من حيث انه يفيد العلم بوجوب العمل، دليل قطعا، وبيان، وهو كالنّص(٣).

---

(١) السابق ١/٢٥.

(٢) الغزالي (ابو حامد): المستصفى من علم الاصول، المطبعة الاميرية، ١٣٢٢هـ، ١/ ص ص ٣٣٩ - ٣٤١.

(٣) نفسه ١:٣٦٧ والنص لدى الغزالي هو الكلام المحتمل بالإفادة من كل وجه، ومثاله قوله تعالى: "ولا تقتلوا انفسكم" وقوله: "ولا تقربوا الزنى" فهذا يسمى نصا لشدة ظهوره: المصدر نفسه ١/٣٣٥ - ٣٣٧.

ولا يسوغ لديه تاويل نص الخطاب دون الاتكاء على مثل هاتيك القرائن، وكل تاويل مفتقر اليها يجب رده، وإن كان محتملاً، لان القرائن الاخرى قد تدل على فساد ذلك التاويل ودفعه (١)

واعتمد الاصوليون على تمييز الأوامر من النواهي بقرائن حالية خارجة عن صيغة "افعلْ" و"لا تفعلْ". وذلك ان العربَ اطلقت هذه الصِّيَغ على اوْجُهٍ مختلفة، وليس الامر الا واحداً منها. وقالت المعتزلة: إن الامر لا يكون امراً الا بثلاث: إرادة المامور به، وإرادة إحداث الصّيغة، وإرادة الدلالة بالصيغة على الامر (٢).

واذا اردنا تفسير راي المعتزلة، وإيضاحه بكلمات ثانية، وجب ان تاخذ بمفهوم العلاقات، او العوامل السياقية لدى ياكبسون، وفيرث، وهي: الغرض والهدف والرسالةُ ونوايا المتكلّم الذي صدرت عنه الكلمات. وقد لوحظ ان الامر - مثلاً - يَرِدُ لغاياتٍ مغايرة، ومتنوعة لتنوع السّياق، فمنه الوجوب، كقوله: "اقِمْ الصلاة" ومنه النُّصحُ، ومنه الاباحة، ومنه الامتهان، ومنه التّحْقيرُ، ومنه الإهانة والتحقير، ومنه التسوية، ومنه الدّعاء، ويستدل على هاته المعاني بأَدِلّة تتمثل في القرائن (٣) التي هي الاحوال والاسباب التي يفهم بها المخاطب الكلامَ، وعدوله عن اصْلِ الوضع إلى غيره (٤).

---

(١) المصدر السابق نفسه: ١/٣٨٩ - ٣٩٢.

(٢) المصدر السابق ١/٤١٣.

(٣) المصدر نفسه ١/٤١٧.

(٤) الغزالي: المصدر السابق نفسه ١/٤٢٩ وسوف نتطرق إلى هذه الاساليب بالتفصيل لاحقاً.

ويغالي ابو حامد الغزالي في توكيده على وظيفة السياق الحالي بحيث يتوصل إلى ان تعابير الوجه ، وحركات المتكلّم ، تسهم في الابانة عمّا في نفسه ، مثلها في ذلك مثل الالفاظ: "ان قصد الاستغراق يُعْلَمُ بعلمٍ ضروريٍّ يَحْصُل من القرائن والاحوال ، ومن رموزٍ وإشاراتٍ وحركاتٍ من المتكلم ، وتغييراتِ وجهِهِ ، وامور معلومة من عاداته ومقاصده ، وقرائن مختلفة لا يمكن حصرها في جنس، ولاضبطها في وصف، بل هي كالقرائن التي يُعْلَمُ بها خَجَلُ الخَجِلِ وجُبْن الجبان ، كما يُعْلَم قصد المتكلّم إذا قال: "السلام عليكم" انه يريدُ التحية ، او الاستهزاءَ او اللهو"(١).

وقول الغزالي الذي اقتبسناه كاملاً يشف عن حقيقة كبيرة ، وهي ان الاصوليين المسلمين جعلوا من "السياق الحالي" الحَكَمَ الفَيْصلَ في تاويل الدلالات، وتحقيق التواصل عبر المخاطبات، وقد سبق الغزالي باقواله هذه آرفنج جوفمان ونظريته حول عمل الوجه Face - Work ودَوْره المؤثّر في عملية التواصل اللغوي(٢).

ويراعي المفسرون عند الكلام على شروط المفسر ضرورة إلمامه بالظروف المحيطة بالنّص عند تفسيره: لما لهذه الظروف من أثر في تعميم الدلالة ، او الحُكْم الشرعي، او تخصيصهما. فبيان سبب النزول مثلاً، طريق يؤدّي إلى فهم معاني الكتاب العزيز. وقد يكون اللفظ عاماً، الا ان سبب النزول هو الذي يفيد التخْصيص(٣). ويضرب المفسرون

---

(١) المصدر السابق نفسه: ٢/٤٢.

(٢) انظر: هدسن، علم اللغة الاجتماعي (مرجع سابق) ص ٢٠٤.

(٣) الزركشي (بدر الدين): البرهان في علوم القرآن (مصدر سابق) ٢٢١/١.

مثلاً على هذه المسألة فيقولون: إن مروان بن الحكم (٦٥هـ/٦٨٤) قال لابن عباس (٦٨هـ/٦٨٧م): لئن كان كلّ امرئ فرح بما اوتي، واحب ان يُحْمَدَ بما لم يَفْعل معذباً، لنعذّبَنَ اجمعون". فقال ابن عباس: "هذه الاية نزلت في اهل الكتاب". ثم تلا الاية (١). وقد عمد ابن عباس - في موقفه هذا إلى موضوع الاية، والسبب الذي نزلت من اجله، فانتفى اللَّبْسُ الذي احسّ به مروان، وهو ان يكون الحُكْمُ عاماً غير خاص. والايات التي يمثلون بها على هذه الحال كثيرة جداً.

ولهذا يعدّ المفسرون عِلْمَ المناسبة" من العلوم التي يجب ان يتفقه فيها المفسّر، وبخلاف ذلك لا يحقّ له انْ يخوض في كتاب الله تعالى، وليست المناسبة في معرفة اسباب النزول حسب، بل هي ايضا معرفة العلائق التي تربط اوائل السور بالاواخر، وتَعَلُّق الآي بالآي (٢) كما يشترطون للخوض في تفسيره المعرفة بالالفاظ، وهذه المعرفة ينبغي ان تكون على النّحو الذي عرفها عليه العرب عند نزوله، لتكون الدلالاتُ التي يفهمها منه مماثلةً لتلك التي فهمها المخاطَبُون، وارادها المتكلّم، وفي ذلك يقول مالك بن انس (١٧٩هـ/٧٩٥م) رضي الله عنه: "لا اوتى برجلٍ يفسّر كتاب الله غير عالم بلغة العرب الا جعلتُه نكالا" (٣) ويشرط مجاهد بن جبر (١٠٤هـ/٧٢٢م) على المفسر ان يكون عالماً "بلغات" العرب(٤) ويوجه

---

(١) المصدر السابق نفسه: ١/٢٧. والاشارة هنا إلى قوله تعالى في الاية ١٨٨ من سورة آل عمران: (لا تحسبن الذين يفرحون بما اوتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم".

(٢) الزركشي/ المصدر السابق: ١/٣٥ - ٣٦.

(٣) السابق نفسه ١/٢٩٢.

(٤) المصدر السابق نفسه ١/٢٩٢ ومجاهد بن جبر من التابعين، ذكر له كتاب في التفسير. وفي تاريخ وفاته نظر. الاعلام ٥/٢٧٨.

ابن عباس انظار المفسرين إلى اشعار العرب ليلتمسوا فيها فهم المعاني من غريب القرآن (١). وكان يقول: "ما كنت ادري ما فاطر السموات حتى اتى اعرابيان يختصمان في بئر، فقال احدهما: انا فَطَرتُها" (٢).

ولا يقبل من المفسّر علمُهُ بالقليل من شان العربية، فهو يحتاج إلى معرفة الاحكام النحوية، والإعراب الذي يميز المعاني، ويَقِفُنا على اغراض المتكلمين، احتياجه إلى معرفة البيان والبديع الذي هو أعظم اركان المفسّر (٣).

والشئ الذي لا ينبغي ان يغفل عنه هو "السياق"، يقول الامام بدر الدين الزركشي: ليكن محطّ نظر المفسّر مراعاة النَّظْم الذي سيق له الكلامُ، وإن خالف اصْل الوضع اللغوي، لثبوت التجَوّز، ولهذا تجد صاحب الكشّاف يجعل الذي سِيق له الكلام معتمداً، حتى كانه غير مطروح" (٤).

والنّص المذكور يجيز للمفسّر الذي يتعامل مع الخطاب القرآني ان يفسره في ضوء الغرض والهدف من الخطاب، على الرغم من ان الاخذ بالقاعدة النّحوية قد لا يتفق مع هذا. وهذا يعني ان القاعدة أُقْصِيَت من مجالات التحليل، واستبدلت بما يتعلّق بالخطاب من امور محتملة بهدف المتكلم. والسياقُ هو الفَيْصَلُ الذي يحدّد المرادَ من التراكيب والالفاظ المُشْكِلة. فهو: "من اعظم القرائن الدّالة على مُراد

---

(١) المصدر السابق ١/٢٩٣.

(٢) المصدر السابق ١/٢٩٣.

(٣) نفسه ١/٣١١.

(٤) نفسه ١/٣١١ ويعني بقوله غير مطروح انه كالمثبت في النص ولم يحذف لشدة دلالة السياق عليه.

المتكلم، فمن اهمله غلط في نظره، وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى: "ذُقْ إنّكَ انْتَ العزيزُ الحكيم"(١) كيف تجدُ سياقَهَ يدلّك على انّهُ الذليلُ الحقير"(٢).

ومثلما شرطوا للمفسّر شروطاً شرطوا للمجتهد اخرى فعلاوة على معرفته باللغات، والتمييز بين الالفاظ الوَضْعية والاستعارية، والنّص والظاهر، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصّل، ومفهوم الكلام ودلالاته بالتطابق او التضمّن او الاستِتْباع، شرطوا أيضاً معرفته بالتفسير والاخبار المحيطة بالآيات، "وما رُوي عن الصحابة المعتبرين كيف سلكوا مناهجها، ثم معرفة الاخبار بمتونِها واسانيدها، والإحاطة باحوال النَّقَلَةِ والرّواة، والوقائع الخاصة بها، وما كان عامّاً ورد في حادثة خاصة، وما كان خاصاً عُمِّمَ في حكمه (٣).

ويذهب ابن تيمية (٧٢٨هـ/١٣٢٧م) إلى ما هو ابعد مما سبق، فلا يعدّ المعرفة بّلغاتٍ العرب كافية للمفسّر، او المجتهد، بل لا بد لكليهما معاً من ان يعتادا هذه اللغة، بخلاف من يريد الانتقال اليها من لغة إلى اخرى(٤). وهذه مقالةٌ في مراعاة امر المفسر وشروطه عند الاشتغال في الفِقْه.

---

(١) الآية ٨ من سورة غافر.

(٢) الزركشي: المصدر نفسه ٢/٢٠٠ - ٢٠١

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٤، ١/٢٠٠.

(٤) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت - لبنان [د ت]، ص ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

والحق أن اللغويين العرب كانوا قد فطنوا إلى شان "السياق الحالي "ودوره في جَعْل الوحدات الكلامية اكثر غِنىً وثراءً ووضوحا لدى السامع او القارئ،ويُؤْثَرُ عن الجاحظ (٢٥٥هـ/٨٦٨م) انه اول من حاول تصنيف صُوَر الدلالة ، فجعلها خمسا ، لا تزيد ولا تنقص، وهي: اللفظُ والاشارةُ، والعَقْدُ (الحِساب) والخطّ،ثم الحالُ التي سماها "نصبةً"، والنصبة هي"الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات"(١) ويعني الجاحظ بالإشارة : عَمَلَ اليدِ والراس والعين والحاجِب والمَنْكِب وغير ذلك مما يَصْحب الكلامَ من حركات (٢). ولولا هذه الاشارات.في رأيه.لما تفهّم الناس معنى خاصٍّ الخاص، ومصداق ذلك قَوْلُ الشاعر (من الطويل):

اشارَتْ بِطَرفِ العَيْنِ خِيفَةَ اهْلِها
إشارةَ مذعورٍ، ولَمْ تتكلّم
فأيْقنْتُ انّ الطرفَ قدْ قال: مرحبا
واهلا وسهلا بالحبيبِ المتيَّم (٣)

اما "النصبةُ" فهي"الحالُ الناطقة من غير لفظ" والمشيرة بغير اليد ، اي ان الاشياء نفسها تقوم مقام الاسماء في الإبانة عن ذواتها،وعما في انفسها. ويردد الجاحظ امثلة ، كقول الخطيب قام على سرير الاسكندر وهو ميّت: الاسكندر اليوم اوعظ منه امس(٤).

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هرون، مكتبة الخانجي (مصر) والمثنى (بغداد)، ط٢، ١٩٦٠ جـ١ ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه : ١/٧٧.

(٣) المصدر نفسه : ١/٧٨ ولم ينسبها المحققُ إلى قائل معين.

(٤) المصدر نفسه ١/٨١.

ويتنبه الجاحظ إلى الأثر السلبي الذي يتركه انتزاع الكلم من سياقه، وبخاصة إذا كان الأمر في الفوادر من كلام الأعراب، فأي تغيير يجريه النّاقلُ في الإعراب أو في مخارج الألفاظ، يفسدها، ويبدد ما كان فيها من المؤانسة والإمتاع(١).

ويراعي اللغويون العرب ما ذهب إليه الجاحظ في جمْعِهم الامثال، نُقلِ عن ابي عبيدة (مَعْمَر بن المثنى) (١١٠ - ٢٠٩هـ/٧٢٨ - ٨٢٤م) قولُه: يجئ في الأمثال مالا يجئ في غيرها"(٢) ونُقل عن سيبويه: "إن الأمثال قد تخرجُ عن القياس فتحكىٰ كما سُمِعَت"(٣) وقال المرزوقي: "من شرطِ المَثل الا يُغيَّر عما يَقَعُ في الأَمْثل عليه(٤).

ومعنى ذلك ان العرب غلَّبوا الشائع الجاري في الاستعمال على القياس في هذا النوع من الكلام خاصة، لمراعاة الحال الدالة عليه. وكانوا عند شرح تلك الامثال يستعيدون الحال التي ضربت عليها(٥) وهذا ينسحب ايضاً على جمعهم موادّ اللغة، فقد ذُكرَ ان الواحد من ائمة اللغة كان يقيم في البادية اياماً يسمع فيها الاشعار والاقوال ويدوّنها كما هي، بل منهم من كان يغشى بيوت الأعراب ليسمع كيف ينطقون، ويكتب عنهم، حتى ألفوه، وعرفوا مُراده(٦).

---

(١) المصدر نفسه: ١/١٤٥ - ١٤٦.

(٢) السيوطي: المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد المولى وابو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، لبنان، ١٩٨٦ جـ١/٤٨٧.

(٣) المصدر السابق نفسه ١/٤٨٨

(٤) المصدر السابق نفسه ١/٤٨٨.

(٥) السيوطي: المصدر السابق نفسه ١/٤٩٤.

(٦) المصدر نفسه ٢/٣٠٧.

وعلى الرغم من اهتمام النحويين العرب بالقياس الا ان قسماً منهم قد أَوْلى السماعَ قيمةً كبرى. فالكوفيون رجّحوا في كثير من المسائل شان السماع على القياس(١). ويستند ابو الفتح ابن جني في بعض أحكامه على السّماع بدلاً من القياس، توكيداً للدور الذي يقوم به الشيوع، ودَوَرَانُ اللفظ على اللّسان(٢)، وفي احوال معينة نجده يستند في تفسير الوجه اللغوي على العودة إلى سياق الحال، ففي قول الشاعر (الطويل):

تقولُ وصكّت وَجْهَهَا بيمينها
أبَعْلِيَ هذا بالرّحى المُتَقاعِسُ(٣)

فذكره صكّ الوجه أعلمنا بانها كانت مُنْكِرةً لا متعجّبة. اي انه لما حكى الحال، "وصكّت وجهها" عُلِمَ بذلك قوة إنكارها، وتعاظم الصورة لها، هذا مع انك سامع لحكاية الحال، غيرُ مشاهدٍ لها ولو شاهدتها لكنتَ بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبْيَن، وقد قيل: ليس المُخْبَرُ كالمعاين(٤)

---

(١) د. تمام حسان: الاصول، دراسة ابستمولوجية في الفكر اللغوي عند العرب)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨ ص ٤٣.

(٢) ابن جني (٣٩٢هـ/١٠٠١م): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ط٢، ٩٨/.

(٣) البيت ورد في المبرد: الكامل في اللغة والادب، تحقيق محمد ابو الفضل، دار النهضة بمصر، ط١ (د ت) ج١/٣٥ والقائل فيه خلاف، فقد نسبها محقق الخصائص إلى نعيم بن الحارث الازدي ونسبها محقق الكامل نقلاً من المزوقي إلى العدلول بن كعب العنبري، اما المبرد نفسه فقد نسبها إلى اعرابي من بني سعد ابن زيد بن مناة بن تميم، وكناه بابي محلم ونسبه السعدي. ويحكى انه نزل به ضيوف، فقام إلى الرحى فطحن لهم فمرت به زوجة في نسوة، فقالت لهن: اهذا بعلي؟ فقال البيت:

ويليه قوله: فَقُلْتُ لها لا تَعْجَبي، وحَبَيْتُني
بلاني إذا التحفّتُ عنّي القوارسُ

(٤) ابن جني: المصدر نفسه ٢٤٦/١.

وفي موقع ثانٍ يذكّرنا ابو الفتح بما اوردناه من حرص الاصوليّين على استقصاء وجوه الاحوال التي تصاحب الكلام من رموز واشاراتٍ وتعبيراتٍ تعلو الوجهَ ،ومن سكناتٍ وحركاتٍ لها اثرها البليغُ في فحوى الخطاب. يقول "فالحمّالون والحماميّون، والسّاسة (اي الذين يسوسون الدّواب) والوقّادون ومن يليهم، يستوضحون من مشاهدة الاحوال ما لا يُحَصّلُهُ ابو عمْرو (١٥٤هـ/٧٧٠م) من شعر الفرزدق إذا اخْبِرَ بهِ عنه، ولم يَحْضُرْه يُنْشِدُه "(١).

ويتناول فيما يشبه البحثَ النّظري دور المشاهدة، وقسمات الوجه، والالتفات من حين إلى آخر نحو المتكلّم، واثر ذلك كلّه فيما يمكن ان نسمّيه "ستراتيجية" المتكلّم والسّامع. فالكلام عملية تدور بين قطبين ولا بد ان يُشْعِرَ كلٌّ منهما الآخر بالإقبال عليه، والاستماع له،والتجاوب مع كلماته، ولذلك قالوا: رُبّ إشارةٍ ابلغ من عبارة. وقال بعض شيوخ العِلم:" انا لا احْسن ان اكلّم انسانا في الظُّلْمة "(٢).

وقد لاحظ اللغويون العرب كما لاحظ الغربيون مؤخرا ان الاحوال الاجتماعية والعادات تؤثر في انماط الكلام وانواعه، بحيث يكثر تداول الفاظ معينة في مواقف خاصّة ويقل تداول غيرها. وهو ما سمّاه الغربيون بسجلات السياق Registers. ومن ذلك انهم وقفوا على استخدام العرب الفاظا مخصوصة في مخاطبات الملوك والأمراء، ولم يخاطبوهم باسمائهم، بل دلوا عليهم واشاروا لهم بلفظ الغيبة اجلالا لهم وتعظيما (٣).ووقفوا على الفاظ لا يحسُن التفوّهُ بها في

---

(١) المصدر نفسه ٢٤٦/١ - ٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه ٢٤٧/١.

(٣) المصدر نفسه ١٨٨/٢.

المجالس. واذا كان لا بد من ذلك فإن التورية والكناية وما شابه كفيلة بانقاذ المتكلم من استخدام المحظورات اللغوية Linguistic taboos ومن هنا كانت بعض الالفاظ الموجودة في المعجم غير جارية في الاستعمال لان العرف الاجتماعي واللغوي لا يسمح باستعمالها.(١)والرواية التي يوردها ابن شيث القرشي(٦٢٥هـ/١٢٢٧م) حول هذه الفكرة تذكّرنا بما نقلناه عن هدسن في "علم اللغة الاجتماعي" حول العُرْف عندما يتحوّل الى سلوكٍ لغوي قويّ له مرتبة الضّرورة. والامثلة على ذلك كثيرة، ولكن اقربها إلى الملاحظة مايوصف عادة بالمحظورات اللغوية، مثل كلمات السباب والشتائم، ومثال ذلك ان العرف يحظر استعمال كلمات معينة بالانجليزية مثل كلمة shit، ومع ان الناس يعرفونها، ويعرفون امثال هاته الكلمة معرفة جيدة، الا انهم لا يستعملونها ابدا! (٢).

ويلامس اللغويون العرب ظاهرة التفاعل بين الحياة الاجتماعية، ونُظُم المخاطبات، فيتكلمون عن الدور الذي يضطلع به المجتمع في توليد سجلات سياقية Registers خاصّة بكل جماعة كلامية. فقد كان الناس في مبتدا الحياة العربية الاسلامية لا يعرفون التصنّع في المخاطبات، ولا التملّق فيها، ولا عرفوا ألفاظ الالقاب والنّعوت التي اصبحت كثيرة، وبخروج الناس عن تلك الاحوال الى غيرها، ومن مكاتبة الأدنى للاعلى، ظهرت كلمات مثل: "مولاي" و"سيّدي" وظهرت الفاظ خاصّة بمخاطبةِ الامير، واخرى خاصّةٌ بمخاطبةِ الوزير، ونعوتٌ خاصّةٌ بالخَدَم، واخرى خاصة بالأشراف وهكذا...(٣).

---

(١) انظر: ابن شيث القرشي: معالم الكتابة ومغانم الاصابة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨ ص ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) هدسن: علم اللغة الاجتماعي (مرجع سابق) ص ص ٩٥ - ٩٦.

(٣) القرشي: معالم الكتابة (مصدر سابق) ص ص ٥٣ - ٦١.

ويلاحظ مؤلف "معالم الكتابة" "ان العرف الاجتماعي يؤدي إلى ذيوع الوحدة اللغوية (الكلمة) دون غيرها، ومثال ذلك ان كلمة "الأجَلّ" كانت تُستعمل في مخاطبة الوزير، ومن المحظور إطلاقها على غيره، ثم انْخَرَمَ الأمرُ فيها حتى نُعِت بها كل الناس، فاحتيج مع ذلك إلى لفظٍ آخر يعيد لها اقترانها بالوزير، فقالوا: "السّيد الأجَلّ" لتمييزه عن غيره (١).

ويتطرق البلاغيون بإسراف الى"سياق الحال" ويسمّونه مطابقة الكلام للمقام، او مراعاته للمتكلّم او للمخاطَب او للمناسبة، وقالوا: لكل مقام مقال. ونظروا في العبارة، وما يعرض لها من الحذف والذكر، او التقديم والتاخير، او التوكيد والاهمال من التوكيد، او الحقيقة والمجاز، وعمدوا في تفسير ذلك وتوجيهه التوجيه الذي يتطلّبُ دائماً التذكير بالسياق مقامياً كان ام مقالياً. يقول الخطيب القزويني في الايضاح (٧٢٩هـ/١٣٢٨م): "بلاغة الكلام هي مطابقتُه لمقتضى الحال، مع فصاحته. ،ومقتضى الحال مختلفٌ ومقامات الكلام متفاوتَةٌ، فمقام التنكير مُباينٌ لمقام التعريف، ومقامُ الإطلاق مباين لمقام التّقييد، ومقام التقديم مباينٌ لمقام التاخير، ومقام الذّكر مباينٌ لمقام الحذف، ومقام القَصْر مباين لِمقام خلافِه، ومقامُ الوصل مباينٌ لمقام الفصل، ومقام الإيجاز مباينٌ لمقام الإطناب، وكذا خِطابُ الذّكي مباينٌ لخطاب الغبي" (٢).

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٦.

(٢) الخطيب القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، ت محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٥، ١٩٨٠، ص ٨٠.

وهذا النص مُفْصِحٌ عن الشاو الذي بلغه البلاغيون في مراعاتهم للمقامات والاحوال التي تكتنف الخطاب، وتاثيرها في طرائق نظم الكلام واسلوب سَوْقه. ناهيك عن أنهم - كما تنمّ العبارة الاخيرة - ادركوا اهمية الوضع النفسي للمتكلم، والمخاطَب،او ما سماه المحدثون باستراتيجية المتكلم والسامع، فخطاب الذكي مختلف عن خطاب الغبي،اي ان المستوى الثقافي الذي اشار اليه فيرث،فيما تقدم،ذو صِلةٍ قويةٍ متينةٍ بطبيعة البيان.

ويتطرق اللغويون العرب الى شيء آخر يتطرق له السياقيون المحدثون، وهو اثر السّياق في البعد الصوتي للكلام (١) فالوحدات الصوتية الصغرى (الفونيمات) عندما تلتقي في البنية اللفظية تؤثر في بعضها بعضاً. وقد يلقي هذا التاثير بثقلة على الاصوات اللغوية فتتباعد وتتقارب.ويذكر ابن فارس (٣٩٥هـ/١٠٠٤م) في "الصاحبي"(٢) ان بعض الحروف تالف الاجتماعَ في كلماتٍ وبعضها يانفُ ذلك، بحسب المخارج. فالعربية تميل إلى تجنّب الالفاظ التي تتالف من احرف متباعِدَة المَخارج، مِثْل: (عَفْخٌ) مع ان هذه الأحرف اذا طرا عليها ترتيب اخر تجتمع مثل: "خَفَعَ"(٣).

ومن صور التغاير في الاصوات التي رصدها اللغويون ان النون الساكنة اذا جاءت بعدها باء لفظت (ميماً) نحو (عَنْبَر: عَمْبَر) وشَنْباء شَمْباء)(٤).

---

(١) راجع ما تقدم ص٤٨ وانظر Papers in Linguistics. P.4. وانظر ايضاً PP. 20 - 23.

(٢) هو ابو الحسين احمد بن زكريا المعروف بابن فارس له كتاب (المجمل) و(معجم مقاييس اللغة) وكتاب (الصاحبي في فقه اللغة) توفي سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م.

(٣) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، بدران للطباعة، بيروت، ١٩٦٣، ص ٨٢.

(٤) ابن فارس: المصدر السابق نفسه ١٧٥ وابن جني (الخصائص) مصدر سابق ٢٠١٣.

وقد ينشأ عن هذا التأثير قَبْضُ احدِ الاصوات، اي اسقاطه من الكلمة او اسقاط بعضه، بحيث يَقْصُر طولُ الصَّوْتِ فيقال: الخَلْخَل بدلاً من الخلخال، والمنا بدلاً من المنازل، وهو كثير في الشعر (١). وبهذا يفسّر اللغويون تهرّب العربِ من التضعيف الصوتي إلى الحذف؛ فقالوا: ظِلْتُ بدلاً من ظَلَلْتُ. ولجأوا إلى استبدال الصوت بآخر تجنباً لثقل صوتين متواليين متنافرين او متشابهين، فقالوا في حَيَيَان: حيوان (٢).

ويتكلم ابن جني في (الخصائص) و(سر صناعة الاعراب) على ظواهر سياقيه صوتية كثيرة جداً، في مقدمتها: مَطْلُ الصوت اللغوي: اي إطالته (٣). ومَطْلُ الحركة بحيث تكون مساوية في طولها للصوت الصّحيح (٤). ولاحظ ان لمطل الاصوات ومدّها اثراً بالغاً في الدلالة النفسيةِ للكَلِم، سواء فيما يتّصل بالمتحدّث ام بالمخاطَب (٥).

ومن الظواهر السياقية التي تناولها اللغويون العرب: تقريبُ الأصوات، كإبدال تاء افتعل طاء لتناظرها في التفخيم والإطباق، او دالاً لتناظرها في الجَهْر والشّدة، وقد علّلوا ذلك تعليلاً قائماً على أسُسٍ صوتيّةٍ خالصة (٦).

---

(١) المصدر السابق نفسه ٢٢٨.

(٢) ابن جني: الخصائص (مصدر سابق) ١٣ ص ١٨ - ١٩.

(٣) المصدر السابق ١٢٥/٣.

(٤) المصدر السابق ١٢٢/٣.

(٥) المصدر السابق ١٢٩/٣.

(٦) السيرافي (ابو سعيد): ماذكره الكوفيون من الإدغام، تحقيق صبحي التميمي، دار البيان، جدة، ط ١، (١٩٨٥) ص ٦٣.

ومن ذلك ايضاً ادراكهم صفة من صفات العربية الصوتية ، وهي: كراهية توالي اربع حركات، لذلك عمدوا إلى تسكين لام الفعل في مثل ضَرَبْتُ، وغيرها (١). ولم يترك اللغويون العرب ظاهرة صوتية عرضت لهم إلا تناولوها ، بما في ذلك التّنغيم ، والوقف والابتداء ، والحَمْل على المجاورة ، والقلب المكاني في الحركات والصّحاح، والإدغام التام والناقص، وحذف الصوت اللغوي حذفاً كاملاً مع التعويض عنه بحركة مماثلة ، وإضافة حركة للوَصْل كي لايكون ثمةَ انقطاعٌ في السلاسل الصوتية ،وهذه من المباحث التي سوف نقف لتناولها بالتفصيل عند الكلام على السّياق الصوتي، وهو الكلام الذي يرد في تضاعيف الفصل اللاحق.

---

(١) ابن السرّاج، الاصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان، ١٩٨٥، ط١، ٥٠/١.

الفصل الثاني

أثر السياق في البحث الصوتي

١ - السياق الصوتي phonetic context.

٢ - اثر السياق في البحث الصوتي العربي.

٣ - المماثلة وتقريب الاصوات Assimilation.

٤ - المخالفة Dissimilation

٥ - الاعلال Ablaut

٦ - الامالة

٧ - الهمزة والتنوع السياقي

٨ - التنوع السياقي للنون.

٩ - الابتداء والوقف.

١٠- التنغيم Intonation.

١١- القلب المكاني Metathesis.

١. السياق الصوتي

مر بنا في الفصل الأول أن السياق سياقان، احدهما : لغوي والآخر حالي، او مقالي واخر مقامي(١)، وان اللغة مجموعة ضخمة من العلاقات المتشابكة تبدا باصغر وحدة فيها وهي الصوت اللغوي او الفونيم Phoneme وتنتهي بالعبارة والفقرة . وللسياق دوره في دراسة هذه المستويات جميعا* . وقد ذهب فيرث إلى أن من الواجب دراسة الصوت اللغوي في إطار علاقاته السياقية اي ما يُسمى بالسياق الصوتي Phonetic Context حيث تاخذ العلاقات والمتغيرات الصوتية حقها من الدراسة والبحث بحسب موقعها في دَرْج الكلام لا من حيث هي وحدات منعزلة (٢).

ومن الواضح اننا لا نتكلم اصواتا* منفردة ، او منعزلة ، إذ الكلام الانساني مكوّن من سلسلة من الأصوات المتعاقبة المتشابكة إلى اقصى حد ، حتى لَيُخيَّل لبعض الناس ان من المستحيل التفرقة بين صوت واخر ، او وضع حدود بينهما في الكلام المستعمل ، وهذا يفرض علينا النظر إلى الاصوات في الكلام الفعلي، وليس النظر إليها منعزلة منفردة ، لان الكلام الفعلي هو مادة الدراسة ، وهو الكفيل بإبراز خصائص الأصوات ومميزاتها الحقيقية ،واذا كانت دراسة الأصوات تقوم على ملاحظة كل صوت بمفرده في مجال البحث الصوتي الخالص فإن البحث في السياق الصوتي: اي الفونولوجي Phonology يعمد الى دراسة هذه الأصوات ضمن علاقاتها السياقية : فيدرسها ويعيّن خصائصها التفصيلية تبعا* لتنوع السياق(٣).

---

(١) انظر الفصل الاول ، ص٦٣

(٢) Firth, Papers in Linguistics. PP. 20 - 23.

(٣) انظر: د. كمال بشر: علم اللغة العام (الاصوات) دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦، (الطبعة الاولى ١٩٦٩). ص ١٥٥.

والدارس لطبيعة الأصوات في سياقها الكلامي لا بد ان يستفيد من الدَّرْس الصوتي الحالي لها، ويؤكد المحدثون ان الباحث في المُتغيّرات السياقية التي تطرأ على الاصوات في اثناء الكلام لا بدّ من ان يوظف معرفته بخصائصها الفيزيائية من حيث الجَهْر والهَمْس، الشدّة والرخاوة، الاطباق والانفتاح. وهي معطيات يتم الحصول عليها بواسطة التحليل الصوتي التجريبي.

وتؤيد الطّرق الحديثة المتبعة في دراسة الاصوات، مخبرياً، وقوع تغيُّرات سياقية للصوت،وقد سجلت الأجهزة وجود مراحل تؤثر فيها السّواكنُ على الحركات،وتَبيَّن أن صوت (e) بالفرنسية قبل الصوت (I) لا يعطي الطيف ذاته الذي يعطيه قبل الصوت (u) او (a)(١). وسُجلت اجهزة القياس كذلك أن صوت الكاف في العربية لا ينطق النطق نفسه في كل سياق صوتي، فإذا تَبِعَتْه كسرة مثلا كما في كلمة "كتاب" اختلف مخرجه عن المضموم في كلمة (كُلْ) وكذلك اللام العربية فإنها تلفظ رقيقة تارة وطوراً بالتفخيم كما في كلمة (والله)(٢).

وهذا النوع من الدراسة السياقية للأصوات اللغوية يسمى (الفونولوجي) Phonology وهو البحث في التبدلات النّطقية التي تطرأ على الاصوات بحسب موقعها في الكلمة (٣). والفرق بين الفونولوجي وعلم الأصوات كالفرق بين اللغة Language والكلام Speech عند سوسير، فإذا كان علم الأصوات يبحث فيها من حيث هي اصوات مجرّدة فإن (الفونولوجي) يبحث فيها من خلال دورها الوظيفي

---

(١) مالمبرج، بارطيل: الصوتيات، ترجمة محمد حلمي هليل، المعهد الدولي للغة العربية، الخرطوم، ط١، ١٩٨٥ ص ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) د. محمود فهمي حجازي: مدخل الى علم اللغة، دار الثقافة، مصر ط٢، ١٩٨٦ ص ص ٣٨ - ٣٩.

(٣) Firth, Papers in Linguistics, P. 4.

داخل البنية اللغوية . فإذا قلنا إن النون صوت صحيح، مجهور، أسناني، الخ، فهذا وصفٌ يدخل في نطاق علم الأصوات المجرّدة ، اما إذا قلنا ثمة تنوعات من النون بحسب سياقها الصوتي فهذا هو الدَّرْس الفونولوجي(١) .

ويُعرِّف معجم Longman لعلم اللغة التطبيقي الفونولوجي بقوله : هو البحث في وصف أصوات اللغة من حيث تقابُلها مع أصوات اخرى في الكلمة ، او تاثيرها في بعضها بعضاً ، وملاحظة ان صوتاً منها قد يتزحزح عن مَخْرجه الأصلي ليتسق مع بقية اصوات الكلمة . كما ان الفونولوجي يُعنى بدراسة العلاقات الصوتية بين كلمةٍ واخرى في العبارة ، ويتامل الاثر الذي يتركه احد اصوات الكلمة من خلال ما يسمى العلاقات التاليفية ، ومثال ذلك أن كلمتي give وhim تلفظان في علاقة تاليفية Givim(٢)

وكان سوسير قد تحدث في كتابه عن الفونولوجيا ومكانتها في الدرس اللغوي الحديث، واقتفت آثاره مدرسة براغ التي نظرت الى الفونولوجي من حيث هو فرع من الدراسات اللغوية يعالج الظواهر الصوتية من حيث وظيفتها اللغوية (٣) ويضيف لانجيكر Langacker مُوضّحاً مهمة البحث الفونولوجي قوله : إن صوت (N) يلفظ عادة بملامسة طرف اللسان للثّة العليا ولكن إذا جاورته اللاصقة (th) في كلمة مثل tenth فإن نطقه يصبح مغايراً ، فاللسان في النطق

---

(١) د. حلمي خليل: العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ط الاولى، ١٩٨٨ ص ١٠٥، والتعريف الذي اورده نقل من تروبتسكي (١٨٩٠ - ١٩٣٨) وقد سبق التعريف به في الفصل الاول ،ص ٣٣

(٢) Longman Dictionary of Applied Linguistics, Phonology.

(٣) انظر Vachek, Linguistics School, P. 41، واحمد مختار العمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة ، ط٢، ١٩٧٦ ص ٤٥، وكمال بشر: علم اللغة العام، دار المعارف، مصر ط٢، ١٩٨٦ ص ص ٢٨ - ٣٠ وقارن د. عبد الحميد ابو سكين: التجويد والاصوات اللغوية ، مطبعة الامانة ، القاهرة ، ط١، ١٩٨٣ ص ٧ - ٨.

الجديد يلامس الاسنان نفسها، وتستطيع ان تلاحظ هذا التغيير في كلمات اخرى مثل eleventh وغيرها: وهذا التغيير النُّطقي يسمى تغييرا فونولوجيا، والبحث فيه هو البحث الفونولوجي(١)

ويُسمّى بعض الباحثين هذه الصوتيات الصوتيات التجميعية نظرا لعنايتها بالسلاسل Chains الصوتية، والمقاطع Syllables والمجموعات Groups واشباه الجمل Phrases والجمل ايضا Sentences ودراسة ما يطرا عليها من انحراف نطقي سببه السياق او ما يسمى بالفصل والوصل Phonetics of Juncture(٢). ويسميها آخرون فونولوجيا الكلام المتصل Combinatory Phonology ويصفها روبنز في كتابه علم اللغة بفنولوجيا الظواهر التطريزية Prosodic Phonology(٣).

والتغيير السياقي للاصوات ظاهرة معروفة في جميع اللغات ولا تقتصر عليها لغة معيّنة من لغات البشر(٤)ويؤكد العالم اللغوي الامريكي سابير Sapir ان مثل هذه التبدلات النُّطقية من الصعب إخضاعها للتحليل التجريبي إخضاعا شاملا بحيث يمكن استقصاؤها بشكل موضوعي دقيق، وذلك اننا نفترض نُطقا معينا للاصوات، ونتخذه قاعدة لدراسة الانحرافات النطقية التي تطرا عليها، مع ان هذه القاعدة تقوم اصلا على اقتراض غير دقيق، وسوف تظل النتائج المترتبة على هذا البحث نتائج شديدة الاختلاف والتنوّع(٥).

---

(١) Langacker, Language and it's Structure, P. 28.

(٢) مالمبرج، بارطيل، الصوتيات (مرجع سابق)، ٨٢.

(٣) كمال بشر، علم الاصوات العام ص ص ٤٤ - ٥٠.

(٤) مالمبرج،ن الصوتيات، ص٦٤ وانظر ايضا، Langacker ,Ibid, P.29

(٥) Sapir, Language, PP. 43 - 45.

وللبحث في المتغيرات الصوتية قيمة كبيرة في مجالات الدراسة اللغوية الحديثة. لأن هذه الدراسة والنتائج التي يمكن الحصول عليها منها مفيدة في مجال اكتساب اللغة، لا سيما بالنسبة للذين يتعلمون لغات ليست لغاتهم الأصلية. كما ان هذه الدراسة ونتائجها تفيدنا في معالجة بعض العيوب النُّطقية، وتسهم في تقويم اللسان الناطق بحيث اذا عَرف المُتكلّمُ الاداءَ الجيد للأصوات امكن ان يفصح عن نفسه دون ان تتعرض عملية الاتصال بينه وبين السامع لأي تشويش ينشأ عن الانحراف في النطق الصحيح للصوت اللغوي. من اجل هذه الاسباب جميعاً كان الاهتمام قديماً وحديثاً ينصب على دراسة التبدلات النطقية. وقد امتزجت هذه الدراسة قديماً بالبحث النحوي، ويُلاحظ ان "كتاب" سيبوية مثلاً وهو كتاب في النحو الفه صاحبه في القرن الثاني الهجري مملوء بالملاحظات الفونولوجية التي جاءت في خليط من المباحث الصرفية والدلالية والصوتية. وقد اطردت هذه الظاهرة في دراسات الباحثين بعده امثال المبرد (٢٨٥هـ/٨٩٨م) وغيره من علماء العربية (١).

ويؤيد علماء اللغة المُحدثون ما كان قد ذهب اليه علماء العربية من حيث أن دراسة التبدلات النطقية للأصوات تبعاً للسياق دراسة لا يمكن أن تتم بمعزل عن دراسة الصوتيات او دراسة الصرف، ويؤكد فيرث Firth في كتابه "بحوث في علم اللغة": ان التغيُّرات النُّطقية التي تبرز من خلال وجود الصوت في السياق، سواء اكانت تغييراً في النغمة Tone، ام تغيراً في النبرة Stress، ام تغيراً في طول الصوت اللغوي، يصعب ان تُدْرس في مَعْزل عن دراسة الصّرف

---

(١) د. حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص ٢٣.

Morphology(١) ويشير في موضع آخر الى ترابط البحث الصوتي الخالص phonetics والبحث في التبدلات النُطقية السياقية للاصوات(٢) فالباحث الذي يتناول الفروق والمتغيرات السياقية للاصوات في اثناء عملية النطق محتاج في تفسيره لها، وملاحظته اياها لمعرفة بالنظام الصوتي الشامل للغة (٣)،وفيما يؤكد فيرث وباحثون آخرون امثال Dike(٤) على تشابك الدراسات الصوتية والصرفية والسياقية نجد باحثين اخرين من امثال العالم اللغوي الامريكي هوكيت Hockete ينادون بضرورة الفصل بين دراسة الاصوات واي" دراسة اخرى ذات مَسٍ بالصرف او النحو، وحجتهم في ذلك ان الفصل بين هذه الانواع من البحوث يؤدي الى نتائج موضوعية دقيقة ؛ وقد غفل هؤلاء عن ان المستويات اللغوية تؤثر في بعضها بعضا* ، ولا شيء يمنع الاستعانة باحد هذه المستويات في دراسة الاخر(٥).

وايا ما كان الامر فإن القدماء والمحدثين حاولوا استقصاء الظواهر الصوتية التي تنشا عن وضع الاصوات في سياق، سواء كان هذا السياق كلمة واحدة او كلمتين او جملة : وما ينشا عن دَرْج الكلام واتصاله من انماط تنغيمية Intonation patterns تنزع عن الصوت بعضَ صفاته الاساسية (٦).

---

(1) Firth, Papers in Linguistics, P. 23.

(2) Ibid, P. 35.

(3) Ibid, P. 35. وانظر ايضا* : Manifred Bierwitc, Modern Linguistics, Mouton and Co. Paris, 1967, P. 27.

(٤) باحث لغوي امريكي اهتم اهتماما* كبيرا بدراسة الظواهر الفونولوجية للانجليزية . د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص ٢٩٨.

(٥) محمد سامي النور: علم الاصوات في القرن العشرين (مقالة)، عالم الفكر، م ١٨، ع٣، ١٩٨٧م، ص ٩٤٠ - ٩٤١.

(٦) كانديراثوف: اصوات وإشارات، دراسة في علم اللغة، ترجمه من الانجليزية ادوار حنا، وزارة الاعلام، بغداد، د.ت، ص ١٩٦.

ومن هذه الظواهر التي تم رصدها في اللغات ظاهرة الإعلال Ablaut وهي ان يتم تغيير الحركة لتناسب موقع النّبر او التنغيم في الكلمة، وهو ما يشبه الاتباع في العربية. ومن امثلة ذلك في الانجليزية تغيير صوت (i) في كلمة sing الى (a) في كلمة sang و (o) في كلمة song ومنه تحويل صوت العلة من صوت خَلْفي المَخْرَج الى اماميّ كما في الجمع Feet للمفرد Foot(١) وتسود اللغات ظاهرة سياقية اخرى هي المُماثلة Assimilation، وهي جعل الصوتين غير المتماثلين متماثلين. ومثال ذلك ان اهالي مدينة لندن ينطقون صوت (d) نونا، فيقولون Lonnon وفي الامريكية الدارجة يقولون wannerful بدلا من wanderful اما المخالفة Dissimilation فهي جعل الصّوْتين المتماثِلَيْن غيرَ مُتماثِلَيْن، ومن أمثلة ذلك التخلّص من احدى الرائين في كلمة Peregriuum اللاتينية والتعويض عنها بلام في الفرنسية pelegrin(٢) ويذكر ابن جني في كتابه (المُنْصف) ان كلمة "دَيْدَن" العربية اصلها: "ددن"، وقد أُضيفت اليها الياء تَخلّصا من وجود مَوْتَيْن متماثِلَيْن (٣).

ومنها ظاهرة الحذف hopology اي إخفاء احد المقاطع غير المنبورة في الكلمة مع تشديد النبرة على المقاطع غير المحذوفة، وهذا يظهر في نطقهم لكلمة untill على انها: till(٤). وقد تلجا

---

(١) ماريوباي، اسس علم اللغة، ترجمة احمد مختار عمر، طرابلس ليبيا، ١٩٧٢ ص ١٤٧.

(٢) نفسه: ١٤٨ وانظر: احمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي (مرجع سابق) ص ٣٢٥.

(٣) ابن جني: المنصف وهو شرح كتاب التصريف للمازني، تحقيق ابراهيم مصطفى، مصر ١٩٥٤ جـ١ ص ٢١٧.

(٤) مالمبرج، الصوتيات، ص ٩٠ وهو نظير قولهم بالعربية ولا تتسابزوا، انظر تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، د ت، ص ٢٩٨.

بعض اللغات الى اضافة حركة قبل الصوت الصحيح في اول الكلمة او قبل مجموعة من السّواكن، نحو إضافة E إلى كلمة Special اللاتينية في اللغة الاسبانية بحيث اصبحت Especial والى Stella فصارت Estella(١) والى جانب الحذف، والإضافة المُتقدّمة ثمة زيادة تقع حشواً لتسهيل النُّطق. ففي الكلمة اللاتينية Chamr اضيفت اليها (b) بالفرنسية لتصبح Chambr لتسهيل الانتقال من الصوت M إلى الصوت R(٢).

وشيءٌ آخر لاحظهُ الباحثون وهو تَرْقيقُ الصّوت اللغويّ وتفخيمه بحسب موقعه، وتاثير الاصوات المجاورة فيه. فصوت (L) في اللغة الانجليزية مثلا يتكون من اتصال طرف اللسان باللثة العليا Upper gums مع نفاذ الهواء من جانبي اللسان، وينتج عن ذلك صوت بسبب احتكاك تيار الهواء بحوافّ اللسان، ولذلك نجدها في نهايات المقاطع سواء في الانجليزية البريطانية او الامريكية ذات جَرْس مفخّم كما في كلمة Clerk وسبب التفخيم هو ارتفاع مؤخرة اللسان تجاه الحنك الرخو وهو الارتفاع الذي يتطلبه نطق الصوت المجاور (C) في حين ان الصوت نفسه يلفظ رقيقاً في كلمات اخرى مثل plain و Meal(٣) وهذا يشبه التفخيم الذي تكلم عليه اللغويون العرب فصَوْت الرّاء في "ضرب" اكثر تفخيما منه في كلمة "سَرَبَ".

---

(١) ماريو باي، نفسه، ١٤٨، وهذه الظاهرة تشبه اضافة الف الوصل في العربية انظر: د. محمد داود عبده: دراسات في علم اصوات العربية، مؤسسة الصباح، الكويت د ت، ص ٥٤.

(٢) ماريو باي، نفسه، ١٤٨.

(٣) مالمبرج: الصوتيات، ص ٧.

وتعد ظاهرة القلب المكاني في الأصوات الصّحاح والحركات من الظواهر السياقية الموجودة في اللغات، وقد رصد اللغويون تبادل الأصوات لمواقعها في الكلمة الواحدة، وسموها القلب المكاني Metathesis كما في جَذَبَ وَجَبَذَ وطَمْأَنَ وَطَأْمَنَ. واكثر ما يحدث هذا القلب بين صوتين متجاورين كما في "ملعقة" و"معلقة" وقد وُجد بين غير المتجاورين كما في "زواج" الذي يصبح بالدارجة "جواز" وآبار الفصيحة التي اصلها "اَبْآر". وجاء في "شرح الشافية" انهم يقدمون بعض حروف الكلمة على بعض، واكثر ما يتفق هذا في المُعْتلّ والمهموز، وقد يجئ في غيره (١) ويسمى الغربيون القلب بين صوتين متقاربين inversion وإذا كان القلب بين صوتين غير متقاربَيْن فيسمى Metathesis.ومن اوضح الأمثلة على ذلك كلمة Flaira الاسبانية فاصلها Frail. والقلبُ المُتَباعِدُ كما يقول عالم الصّوْتيات مالِمْبرج شائع في نُطق الاطفال، وكثيرا ما تحلّ الاصوات المائعة مثل (r) او (L) احدها مكان الاخر بالنّسبة للحركة (٢)،ومن ذلك ان كلمة brid اللاتينية اصبحت في الانجليزية bird وكلمة run الانجليزية اصلها urnon(٣).

وقد يكتسبُ الصوت اللغوي المهموس في موقعِه من الكلمة صفة الجَهْر فصوت - s - في الانجليزية صوت مهموس ولكنّه إذا جاء بعد الصوت (g) وهو صوت شديدٌ مجهورٌ اكتسبَ صفة الجَهْر كما في dogs،ولو قارنا بين نُطقه في هذه الكلمة ونطقه في كلمة Cats، للاحظنا الفرق

---

(١) داود عبده: دراسات في علم اصوات العربية، ص ٩١.

(٢) مالمبرج: الصوتيات، ص ٨٩.

(٣) Wordhough, Introduction to Linguistics, P. 202.

بوضوح. ويُسمّي اللغويون هذه الظاهرة (بالإجهار) وهناك ظاهرة اخرى هي تحويل الصوت المجهور الى مهموس كما في كلمة (حَبْس) فالباء المجهورة تاثرت بموقعها قرب السين، واصبحت مهموسة، فالبيئة الصوتية ذات تاثير كبير على الصوت اللغوي؛ وقلّما ينجو صوت من التاثر بالأصوات المجاورة، او التاثر بالموقع الذي يشغله في الكلام، وقلّما يُنطق الصوت في الكلام مثلما يُنطق منعزلا وحيدا. وتبعا لذلك فهو عُرضة لظواهر منها: الإطالة، والتقصير، والتاليف (من الانفيّة) والتشفيه (من الشفة) والإهماس، والتفويز، والإطباق، والهَمْز، والتقديم والتاخير، وكل ذلك يحدث للصوت اللغوي بتاثير من السياق الصوتي(١).

وقد اهتم المحدثون بظاهرة من هذه الظواهر السياقية وهي طولُ الصوت اللغوي، صحيحا كان او عِلّة، وزيادة هذا الطول ونُقْصانه من حين لآخر تبعا للسياق، فقد يكون لهذا الطول او القِصر اثرٌ مُمَيّزٌ في معنى الكلمة، وقد لا يكون له اثره، فطول الصّوت (a) في كلمة sad مقارنةً مع sat او الصوت (i) في rise قياسا مع rice يُميّز بين معاني الكلمات، وفي هذه الاحوال يكون طول الصوت اللغوي مرتبطا ببعض خصائص الأصوات المجاورة، او ببعض خصائص الصوت ذاته (٢)،ولا ننسى،في اخر الامر،ان هذه الظواهر كثيرة جدا.

---

(١) انظر محمد علي الخولي، الاصوات اللغوية، مكتبة الخريجي، الرياض، ١٩٨٧، ص ص ١٨٠ - ٢١٠.

(٢) داود عبده، نفسه، ص ص ٢٥ - ٢٦.

٢. أثر السياق في البحث الصوتي العربي

مر بنا في الفصل الاول ان اللغويين العرب عنوا ببعض الظواهر السياقية ذات الطابع الصوتي وتكلموا عما سموه : تقارب الاصوات، ومخالفة بعضها بعضاً في المخرج، وإشمام الصوت الواحد صوتاً ثانياً في النطق، إلى جانب اهتمامهم بالتنغيم، والقلب المكاني والإعلال، والادغام الذي يقع بين صوتين متجاورين، او صوتين متباعِدَيْن في كلمَتَيْن، كما في "غفور" رحيم"، واهتموا ايضا بالوَقْف والحركات وغير ذلك مما يقع في صميم البحث الفونولوجي لدى المُحْدثين. وقد علّق احد المستشرقين على عناية اللغويين العرب بالبحث الصوتي فاكد ان دراستهم انصبت على ما يُعرف بالدراسة السياقية او الفونولوجية (١).

وقد فسر اللغويون العرب عدداً من هذه الظواهر تفسيراً صوتياً لا صلة له بالنحو او الصرف، فسيبويه (١٨٥هـ/٨٠١م) يُحلّل هذه الظواهر ويحكم عليها من خلال العادات النُّطقية، والكلام المحكي، ولم يعتمد الكلام المدوّن. ولذلك نجده يعدّ حروف العربية خمسة وثلاثين حرفاً بدلاً من تسعة وعشرين" فزيادة ستة احرف هي النون الخفيفة والهمزة التي بين الالف والالف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، والف التفخيم، فهذه الاصوات ما هي إلا تبدّلات نُطْقية تَحْدُث للحروف الاصليّة، وهي: النون والهمزة والألف والشين والصاد. وزاد عليها حروفاً سبعة اخرى زعم انها لا تُتَبَيّن إلا بالمشافهة (٢).

---

(١) انظر جان كانتينو: دروس في علم اصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، الجامعة التونسية، تونس، ١٩٦٦ ص ١٧. وانظر عبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، دار القلم، مصر، ١٩٦٩، ص ٦٩.

(٢) سيبويه: الكتاب، تحقيق عبد السلام هرون، عالم الكتب، بيروت، د ت، جـ٤ ص ص ٤٣١ - ٤٣٢.

وترجع قدرة سيبويه على معالجة هذه الظواهر الى معرفته الدقيقة باوضاع الاصوات اللغوية العربية، ففي إطار بحثه للاصوات وخمائمها الثنائية من حيث الجَهْرُ والهمس، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والإطباق والانفتاح، استطاع ان يقع على ما يسمى في الاصطلاح اللغوي الحديث Distinctive features اي الملامح المُمَيِّزة. يقول: فلولا الإطباقُ لصارت الطاء دالا، والصاد سينا، والظاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام (١). ومعنى ذلك ان سيبويه وقع على السرّ الذي يجعل الصوت الواحد يقرب من صوت اخر الى درجة يَحْسُن فيها ان يُدغم فيه او لا يدغم. ويؤكد ابو علي الفارسي (٣٧٧هـ/٩٨٧م) ان تقاربَ المخرجَيْن او تباعدهما يؤثر في الصوتين فيقرّب احدهما من الاخر، او يتخالفان (٢). وكان تلميذه ابن جني (٣٩٢هـ/١٠٠١م) قد لاحظ ضرورة تقديم الصّرف على دراسة النحو، وذلك ان النحو يدرس احوال الكلام في الاستعمال، وما يعرض له من عوامل في حين ان الصرف يتناول ابنية الألفاظ الثابتة، ومعرفة ذات الشئ الثابتة اولى بالاهتمام واجدر من معرفة الاحوال المتنقّلة (٣)، اي انه لمس الاثر الذي يُحْدثه التشكيل الصّرفي للكلمة من تغيير في احوالها الثابتة. ولا شك في أنه يعني ما كان يطرا على الكلمة من تبدلات صوتية تشمل تقارب الحروف وما يجري لها من إعلال وتسكين وادغام وقلب مكاني وتقديم وتاخير. وينوّه المُحدثون بدراسات ابن جنّي لهذه الظواهر وتفسيره لها تفسيرا صوتيا قائما على الإفادة

---

(١) سيبويه، نفسه ٤/٤٣٦.

(٢) ابو علي الفارسي، الحجة للقراء السبعة، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي، دار المامون للتراث، دمشق، ط اولى، ١٩٨٤ جـ١ ص ص ١٣١ - ١٣٢.

(٣) ابن جني، المنصف (مصدر سابق) ١/٤ - ٥.

من معرفته بخصائص الأصوات اللغوية (١) ومن بين الظواهر التي درسها دراسة جيدة ظاهرة المماثلة Assimilation التي سماها "تقريب الأصوات"،وهي تسمية يراها المحدثون قريبة الدلالة من كلمة "المماثلة" (٢).

وعُني القرّاءُ بالظواهر السياقية للأصوات، ويضع أحد المتأخرين من المهتمين بالقراءات قائمةً بأصوات العربيّة مرتبةً على وقوعها في المُعجم مبيّنا خصائصها الصوتية الأساسيةوما يطرأ عليها من تبدل نطقي بحسب الموقع، وما يعروها من تفخيم وترقيق، ومن إدغام وخلافه ؛ وهو مبحث يكادُ يتكرّر في كل مُؤلَّفٍ يُعنىٰ بالقراءات(٣).وسوف نخصص الصفحات التالية من هذا الفَصْل لدراسة بَعْض هاتيكَ الظواهر من خلال المصادر النحوية واللغوية العربية، مع التذكير-للمرة الثانية-بأنّ مثلَ هاته الظواهر تستعصي على الدراسة المستَقْصية الشاملة نظراً للتنوع الهائل في الأبنية الكلامية المنطوقة (٤).

---

(١) د. كمال بشر: علم اللغة العام (الأصوات)، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٢) د. عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة، بيروت، ط١٩٧٢/١، ص ١٤٠.

(٣) انظر: شهاب الدين القسطلاني (٩٢٣هـ) لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق عامر عثمان وعبد الصبور شاهين، لجنة احياء التراث، القاهرة، ط١، ١٩٧٢، ج١، ص ص ٢٢٣ - ٢٤٧.

(٤) انظر ١١٢ وسابير Language ص ٤٥.

٣. المماثلة أو تقريب الأصوات Assimilation

تناول سيبويه تاثيرَ بعض الاصوات ببعضها من حيث الجهر والهمس فالصوت المجهور يُؤثّر على المَّوت المهموس فينزع عنه صِفةَ الهَمْس ويكسبه صفة الجَهْر. ومثال ذلك التقاء الصاد المهموسة والدال المجهورة في كلمة مثل "مَصْدر" ومثل "قَصْد" فعند تلاقي هذين الصوتين يصعب الانتقال من المهموس إلى المجهور مباشرةً لذا يتم تقريب الصاد من الدال بإكسابها صفة الجَهْر، والصوت المماثل لها والقريب منها هو الزاي الا ان الزاي غير مطبق لذا يُلفظ الصوت الجديد بشئ من الإطباق الذي يجعل منه صوتاً غليظاً بين الصّاد والزاي فيقال: مُزدر" وُقزد"(١).

وتناول التماثل ما بين اصوات أُخَر لعللٍ صوتيةٍ جديدة: كالهاء والحاء، والعين والحاء، والغين والخاء، والقاف والكاف، واهتم بصوت النون الذي هو اكثر الاصوات العربية الصحيحة تعرُّضاً للتبدلات النطقية (٢)، فالنون تكتسبُ صفة الشفوية اذا جاورتها الباء كما في عنبر: عمبر. وتدغم مع الواو بغنة وبغير غنة كما في "مِنْ وال" وكذلك مع الياء. ويطرأ عليها الإخفاء اذا جاورت اي صوت من اصوات الفم (٣) بينما تحتاج إلى الإظهار اذا جاورتها اصوات اخرى من الحلق كالهمزة (٤) والهاء والعين والحاء والغين والخاء. ويفسّر

---

(١) سيبويه: الكتاب (مصدر سابق) ٤٧٧/٤ وانظر ابن جني: الخصائص (مصدر سابق) ١٤٤/٢ وسر صناعة الاعراب، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، دار احياء العلوم، مصر، الطبعة الاولى، ١٩٥٤ جـ١ ص ٥٦ و ٥٧.

(٢) سيبويه: نفسه ٤٥٢/٤.

(٣) الاخفاء عند سيبويه هو خروج الصوت من الانف. الكتاب ٤٥٤/٤.

(٤) كان سيبويه وغيره من اللغويين العرب يعتقدون ان مخرج الهمزة هو الحلق وقد اثبتت الدراسات الحديثة خطأ هذا الرأي، انظر ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية، ط٥، ١٩٧٩ ص ٨٩.

ذلك قائلا: "ذلك ان هذه الاصوات تباعدت عن مخرج النون، وليست من قبيلها، فلم تُخْفَ ههنا، كما لم تُدغم في هذا المَوْضع"(١).

واذا كان المحدثون قد ذهبوا الى ان المماثلةَ نوعان؛ تقدمية اي بتاثير الصوت المتقدم ورجعية اي بتاثير الصوت المتاخر، فإن سيبويه هو الآخر لاحظ ذلك، وتحدّث عنه، فهناك أصواتٌ في رايه تؤثر فيما يسبقها من حروف فتتماثل الاولى مع الثانية ،ومن ذلك م - ر - ف -ش. فالميم لا تدغم في الباء اذا قلنا اكرمْ به ولكنهم يقلبون الباء ميما إذا قالوا: "اصحبْ مَطرا"، فيلفظونها "اصْمَطَرا"، والفاء لا تدغم في الياء لانها من باطن الشفة السفلى واطراف الاسنان العليا ولكن اذا تقدمت الباءُ على الفاء وقع الادغام فقالوا في اذهب في ذلك: "اذْ هَفْي ذلك". وعلى هذا النحو نراه يتناول الراء مع اللام والشين مع الجيم وغيرها كثير.(٢)

ويفسّر سيبويه تقريب اللام التي للتعريف من بعض الاصوات اذا دخلت عليها، وهي احدَ عشرَ صوتا، بالقول: "إن اللام من طرف اللسان، وهذه الحروف تسعةٌ منها من طرف اللسان، واثنان يخالطانه، فلما اجتمع فيها هذا مع كثرةِ الكلام لم يَجُز الا الادغامُ كما لم يجز في يرى - إذْ كَثُرَ الكلامُ - الا حذفُ الهمزة"(٣).

ويضيف الزجاجي (٣٣٧هـ/٩٤٨م) ان اللام التي للتعريف ساكنة ولما كان بينها وبين هذه الحروف مخرَجٌ مشترك فانها صارت تدغم في هذه الحروف(٤) والحروف التي تتماثل معها لام التعريف عند القراء

---

(١) نفسه ٤/٤٥٥.

(٢) سيبويه: نفسه ٤ ص ٤٤٩.

(٣) نفسه ٤/٤٥٧.

(٤) الزجاجي: كتاب اللامات: تحقيق مازن المبارك، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥ ص ص ١٥١ - ١٥٣ وص ٥٤.

اربعة عشر حرفاً لا احد عشر كما هي عند سيبويه (١) ولا ثلاثة عشر كماهي عند ابن جني(٢)ولا تتماثل لام التعريف مع الاصوات الاخرى لبعد مخرجها عنها "فالأنعام، والحَرْثُ، والكَفُور"، لم يحدث فيها إدغام لأن المخرج الثاني من الفم فلما بعد المخرجان بَطلَ الادغام (٣).وقد ذهب ابن جنّي إلى ان اللام قد تُدْغم وهي ليست للتعريف في بعض الاصوات، وذلك لِقُرْب المَخْرج ، ومنها المّاد في (قلْ صَدق الله) (٤) والثاء في قوله "فهل ترى لهم "(٥) والثاء في قوله "هلْ ثُوب الكفّار) (٦).

وقد يحدث التماثل بين الثاء والتاء مع ما بينهما من بعد المَخْرج كما في قراءة من قرأ "كم لبثتم "(٧)،ويفسر ابو علي الفارسي ذلك مشيراً إلى ما بينهما من خصائص صوتية مشتركة فالتاء والثاء مهموسان،وكلاهما تصاحبه ملامسة اللسان لأصول الثنايا العليا،وما بينهما من اختلاف المخرج اختلاف يسير، فاجراهما القرّاءُ مجرى المِثْلَيْن (٨).وعلى هذا النحو اذا اجتمعت السين والصاد في سياق واحد. وقد قرأ نافع(٩): "يقبض ويبصُط"(١٠) فالظاء صوت مُسْتَعْلٍ اي

---

(١) ابو بكر بن الانباري: ايضاح الوقف والابتداء، تحقيق محي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط اولى، ١٩٧١ ص ٢٢٠.

(٢) انظر ابن جني: المحتسب في تبيين وجوه القراءات الشاذة، تحقيق علي ناصف واخرين، د.ت، القاهرة ١٩٨٦، هـ ١/١٦٥.

(٣) ابن الانباري: نفسه ٢٢١.

(٤) سورة آل عمران: ٩٥.

(٥) سورة الحاقة: ٨.

(٦) سورة المطففين: ٣٦.

(٧) سورة الكهف: ١٩.

(٨) ابو علي الفارسي: الحجة للقراء السبعة (مصدر سابق) ٢/٣٦٧ وهذه قراءة الكاني وحمزة وابن عامر.

(٩) هو نافع بن عبد الرحمن، اصله من اصبهان، ويكنى بابي رويم، توفي بالمدينة سنة ١٦٩هـ. انظر: ابو عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع،تحقيق اوتوبرتزل Pretzel - اسطنبول، ١٩٣٠،ص٤.

(١٠) سورة البقرة: ٢٤٥.

يتطلب ارتفاع اللسان الى الطَّبَق في حين ان السين صوت مُسْتَفِل، فاقتربت السين من الطاء لتماثلها في الاستعلاء ،ومقابلها في ذلك هو الصاد (١). وهذه الظاهرة الصوتية تطبع العلاقة بين الطاء والتاء. ففي كلمة مثل فسطاط تجذب السين الطاء إليها في الاسْتِفال فيلفظها الناطقون فستاط،ويقولون ايضا في"استطاعَ "اسْتَاعَ"(٢) ونحو ذلك ما نجده في"ازدَجَرَ"، "ومُدَّكِر"وغيرها من تبدلات نطقية سببها إجهار المهموس(٣). وقد أجمع اللغويون على تفسير المُمَاثلة في صيغة افتعل من الافعال الثلاثية المبدوءة بالاصوات المطبقة بالقول انها ناتجة عن الاثر الذي تتركه هذه الاصوات المطبقة في التاء وهي رقيقة ، وتقريبها من الاصوات المطبقة ادى الى جعلها طاء لانها نظيرَتُها في كل الخصائص الصوتية الا الاطباق؛ وهي اخت الطاء في المخرج، والطاء قريبة من هذه الاصوات في الاستعلاء والاطباق، ولذا قالوا في "اصتبرَ "اصطبر". وفي"اضترب اضطرب" وفي"اطترد اطرد" ليكون الصوت متفقا مع بَعْضه (٤) بَعْضا .

وقد تقع المماثلةُ - عند العرب - بين صوتين متباعدين تفصلهما اصوات اخرى، ففي قوله تعالى "الصراط المستقيم"(٥) قرئ الصراط المستقيم" وقرئ الزراط المستقيم، والاخيرة من القراءات الشاذة (٦)، والحجة لمن قراها بالصاد

---

(١) الفارسي، نفسه ٣٤٦/٢ - ٣٤٧.

(٢) ابن جني، سر صناعة الاعراب ١٧٤/١.

(٣) ابن جني، نفسه ٢٠٠/١ - ٢٠٢.

(٤) نفسه ٢٧٣/١.

(٥) سورة الفاتحة ٥.

(٦) انظر ابو عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع، ص ١٨.

توخّي الاطباقَ لوجود الطاء في اخر الكلمة، والحجة لمن اشَمَّها صوت الزاي ملاءمة السين في الصَّفير، وملاءمة الطاء في الجَهْر.(١)

ويتوسع القراء توسعاً كبيراً في باب المماثلة، ويتحدثون عن ذلك تحت عناوين متباينة كالادغام التام والناقص، وقد وجدوا ان مثل هذه المماثلة تقع بين اصوات كثيرة جداً كالذال والجيم، والذال والزين، والذال والخاء، والدال والجيم، والدال والسين، وغيرها مما يضيق البحث عن إحصائه وحصره دون ان يقع في الإطالة والاسهاب.(٢)

ولا تقتصرُ بحوث المماثلة على الاصوات الصحيحة. او التي تسمى بالصوامت Consonants بل تتجاوز ذلك إلى الاصوات التي هي بين الصوائت Vowels والصوامت كالواو التي ليست للمد ولا هي للين،وقد لاحظ اللغويون ان هذه الواو تفقد بعض صفاتها الصوتية لتتماثل مع التاء في صيغة افتعل كما في اتكل واتعد. والتاء من اصول الثنايا العليا والواو من الشفتين، وهذان مخرجان متقاربان، فإذا تجاور الصوتان من غير فاصل يفصل بينهما من حركة او ما شابه ذلك لفظت الواو تاءً ثم ادغمت في التاء الاصلية.(٣)

وتقع المماثلة بين الصوائت: اعني الواو والياء والالف. يقول سيبويه: الياء والواو بمنزلة الاصوات التي تدانت مخارجها، لكثرة استعمالهم اياها، فإذا كانت الواو، وليس بينها وبين الياء حاجز، كان العمل من وجه واحد، ورَفْعُ اللسان من موضع

---

١ - ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، تحقيق، د. عبد العال سكرم، دار الشروق، بيروت، ١٩٧١، ص ٣٨.

٢ - انظر: ابو عمر والداني، تيسير القراءات السبع، ص ص ٤١ - ٤٥.

٣ - ابن جني: سر صناعة الاعراب ١/١٦٤.

اخفّ عليهم، ومثالهما قولهم سيّد وميّب بدلاً من سيْود وميْوب. وإنما اجروا هنا الواو والياء مجرى الحرفَيْن المتقاربين.(١) ولو كان بينهما فاصل من حركة او غيرها لما فعلوا بهما ذلك لبعد ما بين الحَرْفَيْن.(٢)

والمعروفُ ان المُماثلةَ التي تقع بين اصوات المدّ(٣) تناولها النحاة العرب في مباحث الصرف في باب سموه باب الإعلال. وقد كان تصورهم منصباً على ان اصوات العلة،وهي الالف والواو والياء،ليست اصواتاً اصلية في الكلمة ولا غير معروفة الاصل، فالالف قد تكون منقلبة عن الواو او الياء، وتصوروا ان هذه الاصوات اصوات ضعيفة، ولذلك هي عُرْضة للتشكيل بحسب تركيب الكلمة وتقلُّباتها الصَّرفية. واذا وقفوا امام ظاهرة سياقية مثل موقن وموسر، قالوا: إن الياء جاءت ساكنة وقبلها ضمّة، والضمة اقوى من الياء فقلبت الياء واواً، وكان اصلها مُيْقِنٌ ومُيْسر.(٤) والحق ان هذه الظاهرة تشبه عندي ظاهرة الاتباع وهي تغيير الصائت، طويلاً كان او قصيراً، بصائت آخر ليماثل ما قبله او ما بعده، وليناسب المَقْطَع المنبور في الكلمة الجديدة.

---

١ - سيبويه: الكتاب ٤/٣٦٥.

٢ - نفسه ٤/٣٦٧.

٣ - للاستزادة انظر: د. غالب فاضل المطلبي: في الاصوات اللغوية - دراسة في اصوات المد العربية، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، ط الاولى، ١٩٨٤.

٤ - انظر: سيبويه: نفسه ٤/٣٣٨، وابن جني: الخصائص ١/٤٩.

وهذا نظير ما يقع في صيغ اسم المفعول مثل مَبيع ومَهيب، فقد تماثلت(واو) اسم المفعول فيهما مع الياء واصبحت ياء مبيوع ومهيوب اكثر طولا. وقد يقع التماثل بين الصائت نفسه والحركة التالية له كما في مقام ومقال،وكان اصلهما" مَقْوَم" "ومَقْوَل". والتماثل بين الحركات واصوات العلة يقع كثيرا في العربية ؛ الا ان عدم اخذ اللغويين بما كان قد ذهب إليه الخليل من ان الالف والواو والياء حركات كالفتحة والكسرة والضمة .(١) طبع آراءهم في التغيرات السياقية لها بطابع تحليلي يعتمد الأصْلَ والقَلْب.

٤ - المخالفة Dissimilation

تميل العربية الى تجنب التوليف بين اصوات متقاربة المخارج. ويقول ابن جني: فاذا تقارب مخرجاهما قَبُحَ اجتماعهما لا سيما حروف الحلق ولذلك فَلَّت مثل هذه الالفاظ:" المَهْهُ "و"الفَهَهُ"في العربية .(٢)

ويقول ابن خالوية في قراءة من قرا "اتحاجوني في الله "(٣): الحجة لمن خفّف انه لما اجتمعت نونان، تنوب إحداهما عن لفظ الاخرى، خَفَّف الكلمة بإسقاط إحداهما كراهيةً لاجتماعهما، كما قال الشاعر، [من الوافر].

رَأَتْهُ كالثُغامِ يُعَلُّ مِسْكـــا٠ يسوءُ الفالياتِ، إذا٠ فَلِيني.(٤)

---

١ - نفسه ٢٤٢/٤.

٢ - ابن جني: سر صناعة الاعراب ٧٥/١ - ٧٦، وانظر: المزهر للسيوطي ٣٤٣/١.

٣ - سورة الانعام: ٨٠.

٤ - ابن خالوية، الحجة في القراءات السبع، ص ١١٨ والبيت لعمرو بن معدي كرب: الخزانة، ٤٤٥/٢. وانظر في حذف هذه النون، ابن السراج: الاصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، بيروت ١٩٨٥، ١٢٢/٢.

ومن قبيل المخالفة كراهية توالي الصوت الواحد في الكلمة مرتين فزادوا صوتاً للفصل بين المتماثلين كما في كلمة (دَيْدَن) التي اصلها "ددن" وكلمة "ديدبون"، وكلمة "دؤدري"، وكل تضعيف في اول الكلمة ثقيل، فتوصلوا الى لفظه باضافة صوت الياء او الواو (١)، كما تكره العربية، وفقاً لملاحظات اللغويين، توالي الحركات لا سيما اذا كانت من جنس واحد. ففي الشعر لا تتوالى خمسة اصوات متحركة، وفي هذه الاحوال يُضْطرون إلى تسكين أَحَدها. (٢)

ومن قبيل المخالفة في الاصوات الصحيحة ما اشار اليه الخليل بن احمد (١٧٥هـ/٧٩١م) تعقيباً على قراءة الآية: "وقد خاب من دسّاها" (٣). و"الاصل دسَّسَها، وجعلوا الالف مكان السين لانهم استثقلوا اجتماع حرفين من جنس واحد"، ومثله: "ثم ذهب الى اهله يتمطّى" (٤) فالاصل يتمطّط. (٥) وسبيل العربية في التخلص من المتقاربَيْن: إما الادغام بِجَعْل الصّوتين صوتاً واحداً ينبو عنهما اللسان نبوةً واحدة، او بالقلب نحو تقصيت وتقضيت، او بالحذف نحو اسطعت بدلاً من استطعت (٦)، وتنابزوا بدلاً من تتنابزوا.

وقد تقع المخالفة في اصوات اللين والحركات. فاذا كانت الواو متبوعة بضمة كما في ادوُر واسوُق همزت الواو فقالوا: ادؤر واسؤق، لالتقائها مع الضم، اي حباً بالمخالفة واستثقالاً لتكرار المِثْلَيْن. (٧)

---

١ - ابن جني: المنصف (مصدر سابق)، ١/٢١٧.

٢ - سيبويه: الكتاب ٤/٤٣٩ و ٤٤١ و ٤٤٢، والمنصف لابن جني ١/٢٨، وسر صناعة الاعراب ١/٢٢٦.

٣ - سورة الشمس: ١٠.

٤ - سورة القيامة: ٢٣.

٥ - الخليل بن احمد: الجمل في النحو، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص ٢٨١.

٦ - ابو علي الفارسي: الحجة للقراء السبعة (مصدر سابق) ١/٢٠٨.

٧ - ابن جني: المنصف ١/٢١٤ - ٢١٥.

٥ - الابدال: Ablaut:-

واهتم اللغويون العرب باصوات المد او الصوائت، وتناولوا ما يحدث من تغيير سياقي عليها سواء بزيادة كمية الصوت، او تعاقبها مع الحركات او بحذفها وزيادتها في الكلمة. وكان قد مر بنا ان الخليل وتلميذه سيبويه - وشايعهما ابن جني - قد قالا بان الحركات بعض من اصوات المدّ وهي الالف والواو والياء.(١) وسموا هذه الاصوات اصوات العلة لانها ضعيفة تتشكل موتيا* بحسب ما يجاورها من اصوات صحيحة. فقد لاحظ ابو الفتح ان هذه الاصوات تتفاوت قِصَرا* وطولا* بحسب موقعها السّياقي. فاذا جاءت بعدها همزة - وهي صوت انفجاري حنجري صحيح - استطال بها النطق طولا* وامتدادا* نحو يشاء ويسوء ويجيء، ويزداد ذلك طولا* إذا جاء بعدها صوت صحيح مُضعَّف نحو: شابّة ودابّة.(٢)

ولكن هذه الاصوات إذا جاء بعدها صحيح ساكن حذفت، وذلك كقولنا: لم يخَفْ ولم يَبِعْ.. (٣) وكذلك الياء اذا جاء بعدها التنوين، وهو صوت صحيح ساكن، فيقال رامٍ وغازٍ بدلا* من رامين وغازين.(٤)، وقد يُظهرها المتكلم اذا وقف عليها ولم يتفوّه بالتنوين.(٥)

---

١ - ابن جني: المنصف ١/١٥٣.

٢ - ابن جني: سر صناعة الاعراب ١/٢٠.

٣ - سيبويه: الكتاب ٤/١٥٨.

٤ - نفسه: ٤/١٨٣.

٥ - ابن جني: اللمع في العربية، تحقيق فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت، ١٩٧٢ وهو تاريخ المقدمة، ص ص ١٤ - ١٦.

وتتعرض اصوات المد إلى متغيرات سياقية منها المَطْلُ، والقَصْر، والحذف. ومن بين الاحوال التي تتعرض فيها للمَطْل اذا تُليت بالهمزة على ما ذكرنا، او بالصوت المشدد، او أنْ يوقف عليها عند التذكُّر.(١) وقد ذهب ابن جني إلى ان مد اصوات اللين عند التذكر يساعد المتكلم على تَبْصِرَةِ السامع بالدلالة المقصودة من الصوت.(٢) ومن الامثلة التي يضربها على وجود دلالة نفسية لكمية الصوت الزائدة استخدام هذه الاصوات في اساليب النّدبة، فقولهم وازيداه، واجعفراه، يفسح من خلال المَطْل الذي طرأ على الالف عن معني الحسرة والتّفَجُّع.(٣)

وكما يتطلب السياق احياناً زيادة في كمية الصوت كذلك قد يتطلب نقصاً فيه. وفي مثل هاتيك الاحوال تنوب الضمة عن الواو والكسرة عن الياء.

وهذا يجري في الشعر كثيراً، قال الشاعر [من الرجز]:

كفَّاكَ كفٌّ لا تُليق درْهماً جوداً،واخرى تُعْطِ بالسَّيفِ الدّما.

يريد تعطي(٤) ومن ذلك في القرآن قوله تعالى:"يا عباد فاتقون"(٥) وقوله: "ويمح الله الباطل"(٦) وقوله: "يوم يدع

---

١ - انظر: الخصائص ١٢٥/٣، وابو عمر الداني ص ص ٣٠ - ٣١، وابن الجزري: تقريب النشر، ص ١٨.

٢ - ابن جني: نفسه ١٢٨/٣.

٣ - نفسه: ١٢٩/٣.

٤ - ابن جني: الخصائص ١٣٣/٣.

٥ - سورة الزمر: ١٦.

٦ - سورة الشورى: ٢٤.

الداع ".(١) و "سندع الزبانية "(٢) وهو في المفتوح قليل وبرايه أن ذلك كذلك لخفّة الالف اصلا. (٣)

وقد يحدث العكس فيمدّون الحركة فتصبح الفتحة الفا،والضمة واوا، طلبا للاستخفاف، يقول الشاعر [الكامل]:-

بينا تَعَنُّقِهُ الكماة وروغه يوما اتيحَ لهُ جرىٌ سَلْفَعُ

اي بينَ اوقات تعنّقه ، وقد اشبع الفتحةَ وانشا منها الفا. (٤) وكما جاء في مَطْل الكسرة : صياريف، ومطافيل، وجلاميد، ودراهيم. (٥) وفي مطل الضمة قالو: (من البسيط):-

وإنني حيثُ ما يُشْري الهوى بَصري من حيثُ ما سَلكوا ادنو فانظور (٦)

وما دمنا نتحدث عن الاعلال،وهو التغيير السياقي الذي يحدث لاصوات المد فإن الالف وهي احد هذه الاصوات تتعرض للإمالة. وقد مر بنا قول سيبويه في تَعْداد الحروف العربية ان من بين السّبعة الاحرف الزائدة الالف الممالة إمالة شديدة. فما هي هذه الامالة، وما صِلَتُها بالسياق الصوتي؟. ونظرا لاهمية هذه الظاهرة فإننا نفضل تناولها في فِصْلَةٍ مستقلة عن الإعلال.

---

١ - سورة القمر : ٦.

٢ - سورة العلق : ١٨.

٣ - ابن جني، نفسه ١٣٤/٣.

٤ - نفسه ١٢٢/٤، والبيت لابي ذؤيب الهذلي من مرثيته المشهورة.

٤ - نفسه ١٢٣/٣.

٦ - نفسه ١٢٤/٣.

٦ - الإمـــالة :-

وهـذه الظـاهرة لـم يتحـدث عنهـا اللغويـون الغربيـون، وهي الانحـراف بـالفتحـة نحو الكسرة .(١) والتنحّي بالالف نحو الياء .(٢) فـالالف اذا وقـع بعدهـا كَسْر نحـو قولنـا : عـابِد، وعالِم، ومساجِد ومفـاتيح أمَـا لوهـا للكسـرة التـي تليها . وفي راي سيبويه "انهم امالوهـا هذه الإمالة لانهم ارادوا تقريبها من الكسرة التي بعدها كمـا قرّبوا الصاد من الزاي في (مَصْدَر) التماساً للخفّة". فالالف في رايـه" قد تشبه الياء فارادوا ان يقربوها منها، في حين لو ان ما بعدهـا كان مضموماً لما امالوها لانها لا تتبع الواو من حيث انها لـم تشبهها ولو كان ما بعدها مفتوحاً لما امالوها لان الالف الزم مـع الفتحـة".(٣) ولا يمنـع الامالـة وجـود فـاصل صـوتي بيـن الالف والكسـرة . كالهـاء مثـلاً .(٤) وقـد رصـد سيبويه عدداً من الحالات السياقيّة التي تقع فيها الإمالة . ومن ذلك إذا كان اصل الكلمة من الفعل الثلاثي الاجوف نحو : طاب وهاب وخاف فقد قرئت مُمَالة ". وكذلك إذا سبقت الالف بياء نحو بيّاع، وكيّال .(٥)

واتساقاً مع مبدأ التناسب الصوتي بين الالف المُمالة وما حولهـا مـن اصـوات وحركات فقد ففى سيبويه جوازَ الإمالة اذا جاورت الالـف اصواتـاً مُسْتَعْلِيَة : اي طَبَقيّة ، كالصّاد والضاد والطاء والظاء والغيـن والقـاف والخـاء ، فهـذه الحروف تمنع الإمالة من حيث انها

---

١ - الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق فوستاف فلوجل، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٥، مادة : إمالة ، ص ٣٨.

٢ - سيبويه : الكتاب ١٢٤/٤.

٣ - نفسه ١١٧/٤ - ١١٨.

٤ - نفسه ١٢٤/٤.

٥ - نفسه ١٢٤/٤ وانظر: ابن جني: المنصف ٥٦/١.

حروف مُسْتَعلية" إلى الحَنك الأعلى، والألف اذا خرجت من موضعها استعلت الى الحنك الأعلى، وبذلك تقرب هذه الحروف من الألف وتقرب هي منها فيكون العمل من وجه واحد اخفّ على ذلك الناطق،ويستوى في ذلك وقوع الحرف من هذه الحروف قبل الألف او بعدها.(١) وشُغِل اللغويون بذكر المواقع التي تَحْسُن فيها الإمالة، واكد الفارسي في "الحجة" ان الإمالة في الوقف مستحسنة جدا"، وعلى هذا قراءة حمزة.(٢)

وقد تقع الإمالة للدلالة على الاصل الذي قلبت عنه الألف، كما في "زاد" على قراءة عامر لقوله تعالى: "فزادهم الله مرضا".(٣)

فقد نزع بالألف نحو الكسرة تحقيقا" لاصلها المنقلب عن الياء.(٤) ويُقوّي الإمالة في مثل هاته الكلمات"زاد"، وْباعْ" ان الاصل فيها كَسْرة، وليس فيهما اصواتٌ مُسْتَعلِيَة.(٥) وقد تقع الإمالة في الضم ايضا". وقرئت الآية :"واذا قِيل لهم" بإمالة الضمّة نحو الكسر "قُيل" وقد جاءت هذه الإمالة لجَعْلِ الفِعْل اشدّ مشاكلةً للاصل الذي هو الواو.(٦)

---

١ - نفسه ٤/١٢٨ - ١٢٩.

٢ - ابو علي الفارسي، الحجة للقراء السبعة (مصدر سابق) ١/٤٠٥ وحمزة هو حمزة بن حبيب امام اهل الكوفة، كان يكنى بابي عماره. ولد في عهد عبدالملك بن مروان سنة ٨٠هـ، وتوفي سنة ١٥٤ او ١٥٨ وقيل سنة ١٥٦. وانظر: شهاب الدين القسطلاني، لطائف الاشارات لفنون القراءات (مصدر سابق) ١: ٩٦ - ٩٧.

٣ - سورة البقرة: ١٠ وعامر هو عبدالله بن عامر بن تميم اليحصبي الدمشقي احد القراء السبعة توفي سنة ١١٨هـ.

٤ - ابو علي الفارسي، الحجة للقراء السبعة ١/٣٢٠ - ٣٢٧.

٥ - نفسه ١/٣٢٨.

٦ - نفسه ١/٣٤٥.

وليست الامالة على مثال واحد، وإنما هي نوعان: شديدة ومتوسطة، واطلقت عليها تسميات كثيرة: كالإضْجاع، والبَطْح، والكسر، والتقليل، والخلطيف، وبَيْنَ بين. ويذهب ابو عمرو الداني إلى ان الإمالة جاءت للتذكير بان اصل الالف الياء، فيما ذهب اخرون الى ان الإمالة لهجةٌ، وهي عامةٌ في نجد وتميم وقيس واسد، في حين ان الفتح شائع لدى اهل الحجاز.(١)

وعلى الرغم من اضطراب اللغويين والقراء في تحديد وجوه الإمالة ومتى تحسن ومتى لا تحسن، الا انهم اجمعوا على وصفها وصفاً يجعلها ظاهرة من الظواهر السياقية الصوتية، فمناسبة الصوت الممال للكسرة ظاهرة صوتية ليكون "عمل اللسان من وجه واحد".(٢) وقد كان اجماع القراء على الإمالة لتسهيل اللفظ الا ما كان من ابن كثير فإنه لم يُمِلْ شيئاً في جميع القرآن.(٣)

وإذا كان القدماء قد اهتموا بالإمالة فافردوا لها التآليف على نحو ما فعل ابن النّاصح في كتابه :"قُرَّة العَيْن في الفَتْحِ

---

١ - السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل، المكتبة العصرية، صيدا، ط١، ١٩٨٣م، وانظر ابن الجزري = تقريب النشر، تحقيق ابراهيم عوض، مصر، ط١، ١٩٦١، ص ص ٥٥-٦٥.

٢ - السيوطي: نفسه ١/٢٥٨ - ٢٥٩.

٣ - ابو عمر الداني: تيسير القراءات (مصدر سابق)، ص ص ٤٦ - ٥٤، والسيوطي: نفسه ١/٢٥٩ وابن كثير: هو ابو عبدالله بن كثير الداري، احد القراء السبعة، توفي بمكة سنة ١٢٠هـ انظر: ابو شامة المقدسي: المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تحقيق طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت، ط الاولى، ١٩٧٥، ص ١٥.

والإمالةِ بَيْنَ اللَّفظين" الذي ذكره السيوطي. فان المحدثين ايضا قد اهتموا بها اهتماما شديدا[١].

وهي في راي المتعمّقين منهم ظاهرة من الظواهر المتعددة التي شاعت في اللغة العربية، ومردّها طلب الانسجام الصوتي، والتماس الخِفّة، وهي من قبيل ما لاحظه المتقدمون من تاثير بعض الاصوات اللغوية في بعضها الاخر، وتاثير مخرج على مخرج.(١) وقد وقع التاثير في باب الإمالة مثلما وقع في غيرها من أبواب.(٢)

وقريبة من ظاهرة الإمالة ظاهرة اخرى تكلم عليها القراء وهي التفخيم، وقد نسب إلى الرسول-صلى الله عليه وسلم-قولُه :"نزل القرآن بالتفخيم".(٣)

والتفخيم كما يذهب بعض شُرّاح الحديث هو: تحريك اوساط الكَلِم بالضم او الكسر في المواضع المُخْتَلَفِ فيها دون اسكانها لانه اشبع لها وأفْخَم. وقال ابن عباس:"نزل القرآن بالتفخيم". وهو في نحو جُمُعَة بدلا من جُمْعَة ونُذُر بدلا من نُذْر[٤]. والتفخيم شيء آخر يَمَسّ الاصوات.

---

١ - د. عبد الفتاح شلبي: في الدراسات القرآنية واللغوية: الإمالة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٥٧، ص ٢٥٤.

٢ - نفسه: ٢٦٤ و ٢٦٥.

٣ - ابن الانباري، ابو بكر: ايضاح الوقف والابتداء، ص ١٤.

٤ - السيوطي: الاتقان ١/٢٦١ - ٢٦٢.

وقد مر بنا ان اللام إذا سُبقت بكسر لفظت مرققة كما في قولنا "بالله". وتلفظ مفخمة اذا سُبقت بفتحة كما في "والله". ويجري تفخيم الالف بعد الاصوات المُسْتَعْلِيَة عموماً والمُطبقة، نحو صال،وطال. ويذهب اكثر القراء إلى ان تفخيم الالف يكون حسب الفتحة التي تسبقها (١) على وَهْمٍ ان صال وطال حُرّكت فيها الصّاد والطاء بالفتحة. ومنه الاتجاه بالالف نحو الواو. وقد كان مَكّيُّ بنُ ابي طالب(٢) يقرا الصلواة بدلاً من الصلاة. وهذا مَحْضُ التفخيم، ولا علاقة للرسم هنا باللفظ،وكان وَرْشٌ يقرا الصلواة. (٣)

ويتكلم القراء عن ظاهرة صوتية اخرى هي "الإشمام". وهم يعنون بذلك تهيئة العضو الناطق لإخراج الصوت الذي هو الضم للدلالة عليه، ومن امثلة الإشمام قراءة :"مالَكَ لا تَأمُنّا"(٤) فاشمّوا النون المدغمة الضمة للدلالة على انها كانت مرفوعة. (٥) وتكلموا ايضاً عن الإخفاء والإظهار.

---

١ - القسطلاني، لطائف الاشارات ١/٢٢٠ - ٢٢١.

٢ - هو مكي بن ابي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي، يكنى بابي محمد وينسب للقيروان وكان اماماً بوجوه القراءات توفي سنة ٤٣٧هـ.

٣ - القسطلاني، نفسه ١/١٨٤ وورش هو عثمان بن سعيد من كبار القراء توفي سنة ١٩٧هـ.

٤ - سورة يوسف، ١١.

٥ - ابو علي الفارسي، الحجة للقراء السبعة، ١/٢١٣ - ٢١٤.

وغيرها من ظواهر صوتية ذات صلة بالسياق. ومن بين هذه الظواهر ظاهرتان تستحقان منا الوقوف، وهما الهمزة، ثم النون، وتستحقان منا وقفةً متأنّيةً لكثرة ما يعرض للهمزة والنون من صنوف التحقيق والإظهار والإخفاء والقلب وغير ذلك في الوصل والوقف، سواء بسواء.

٧. الهمزة والتنوّع السياقي:-

لاحظ القراء صعوبة في النطق تنشأ عن لقاء همزتين متواليتين في اول الكلمة كما في قوله: (أأنذرتهم، أأنتم، أألد) وسبب الصعوبة في النطق ان لسان المزمار يضطر الى العمل مرتين متواليتين نتيجة حبس النَّفَس لكون الهمزة من الأحْرف الشديدة التي تستدعي ذلك. وقد مالوا للتخلص من الصعوبة بتسهيل الهمزة الثانية، وسموها همزة (بَيْنَ بين) اي درجة متوسطة بين الهمزة والالف(١). وذهب بعضهم الى عدها الفاً خالصة (٢) ولكن اذا كانت الهمزة الثانية مخالفة للاولى في الحركة كما في قوله "قل أؤنبّئكم"(٣) وقوله "أانزل عليه الذكر"(٤) فان الوجوه في قراءة الهمزة تختلف،فبعضهم يَسْتَسْهِلُهَا كما في قراءة نافع، وبعضهم يحققها، وبعضهم يجعلها كهمزة بين بين(٥) ويُؤْثِرُ بعض القراء اسقاطَ

---

(١) ابن الجزري: تقريب النشر (مصدر سابق) ص ٢٣ وابو عمر الداني: تيسير القراءات السبع: ٣٢.

(٢) نفسه / ٢٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٥.

(٤) سورة ص: ٨.

(٥) ابن الجزري،اي نفسه ٢٧، وانظر ابو عمرو الداني: ٣٣.

الهمزة تخلصا من اجتماع المثلين. فيقرأ (هؤلا إن كنتم)(١). وعند التسهيل تجعل الهمزة صوتاً من جنس الحركة فاذا كانت مفتوحة (٢) جعلت الفاً واذا كانت مكسورة جعلت كالياء (٣).

وقد سهّل بعض القراء الهمزة المفردة اذا وقعت فاء في الكلمة نحو يومن، وموسفون، ويوشرون، وموتفكة وغيرها، بشرط ان تكون ساكنة. وفي بعض القراءات تفقد الهمزة حركتها وتنقل الى ما قبلها طلبا للتخفيف(٤) ومن القراء من كان يسهّل الهمزة ولا يحققها على الاطلاق كابي عرو بن العلاء (٥) ويختلف نطق الهمزة لدى القراء حسب موقعها من الابتداء والوقف. وإذا وقفوا عليها في اواخر الكلم خففوها سواء كانت ساكنة او متحركة اما اذا ارادوا الوصل فإنهم يحققونها. وفي حال الوقف والتسهيل تُلفظ كصوتٍ من اصوات اللين يجانس الحركة (٦) واذا كانت الهمزة ساكنةً في وسط الكلمة نحو بئرو ذئب وبئس فإنها تسهّل وتلفظ صوتاً مجانساً لحركة السابق فيقال بيروذيب وبيسَ. وفي الأحوال التي يكون ما قبلها ساكناً مثل شئ فان حركتها تنتقل لما قبلها وتخفّف لذا يقال "شيْ" والمشئمة: "المشيمة" (٧).

---

(١) نفسه: ٢٨.

(٢) نفسه ٢٩ وانظر ابن خالويه: الحجة في القراءات السبع ص ٤٢.

(٣) ابو عمر الداني، ص ص ٣٤ - ٣٥.

(٤) نفسه، ص ٣٦.

(٥) نفسه، ص ٣٧.

(٦) ابو عمرو الداني، نفسه ص ص ٣٧ - ٣٨.

(٧) نفسه ص ٣٩ - ٤٠ وانظر ابن جني: المحتسب في تبيين القراءات الشاذة ٦٧/١.

ويشير ابن جني الى ان بعض القراءات الشاذة اسقطت الهمزة التي للاستفهام من قوله "أانذرتهم" لكراهية اجتماع الهمزتين وقد اجازوا حذف همزة الاستفهام لقوة الدلالة عليه، وكان من حق هذه الهمزة ان لا تحذف لأن اختصار المختصر إجحاف به (١).

وقد ذهب القراء الى القول بان الهمزة في كلمات مثل: كساء وسماء ودعاء وبناء وظباء اصلها الواو او الياء وانها منقلبة عنها، وينفي المحدثون اي مماثلة بين الهمزة وكل من الواو والياء لاختلاف الخصائص الصوتية، والارجح ان تكون هذه الهمزة قد جاءت لتسهيل الوَقْفِ على مثل هاته الكلمات، لأن الوقفَ على الواو والياء بعد الألف غير مستساغ، لا سيما ان العربية لا تميل للوقف على موت او مَقْطع مفتوح (٢). ويُشبّه د. عبد الصبور شاهين الهمزة هنا بهاء السكت في كلمات مثل ماليهْ، وسلطانِيَهْ (٣).

والحق ان ما ذهب اليه عبد الصبور شاهين غير دقيق، فهاء السكت تحذف عند الوصل بينما الهمزة في حساء ودعاء لا تحذف ابدا، والشيء الاخر هو ان هاء السكت لا يمكن تحريكها كما هي الحال في الهمزة مما يؤكد ان الراي الذي ذهب اليه المتقدّمون من حيث ان الهمزة منقلبة عن الواو والياء ما زال هو التفسير الادق لمثل هذه الظاهرة الصوتية. وتظل سائر الملاحظات التي اوردها اللغويون والقراء عن تقلبات الهمزة تسهيلا او تحقيقا او حذفا من باب

---

(١) ابن جني، نفسه ١/٥٠ - ٥١.

(٢) انظر عبد الصبور شاهين، القراءات القرآنية ص ٨١.

(٣) نفسه، ص ص ٨٤ - ٨٥.

الظواهر السياقية (الفونولوجية) للسان العربي(١) فهذه الدراسة لها صلة باختلاف موقع النّبر في الكلمة وانتقاله من مَصْدر الكلمة الى وسطها او آخرها.

٨. التنوع السياقي للنون:

ويذهب المحدثون إلى ان الظواهر الفونولجية لصوت النون في العربية من اشد الظواهر شيوعا، اذ يعرض لها ما لا يعرض لغيرها من الاصوات الصحيحة الساكنة. وهي بعد اللام من اكثر الاصوات العربية شيوعا في الكلام، وهي اشد ما تكون متاثرة بما يجاورها من اصوات عند كونها ساكنة لأن التسكين يجعلها متصلة بما بعدها اتصالا مباشرا، واشد الاصوات تاثرا بها اللام والراء فهي عند جمهور القراء تفنى فيهما فناءً تاما (٢).

وتدغم ادغاما تاما اذا جاورت كلا من الباء: (من بعد) (٣) و(صمٌّ بكم) (٤) وتخفى فيها بغنة او بغير غنة، كما تدغم في اللام "فإنْ لم تفعلوا" (٥) والراء "من ربهم" (٦). وتعروها حالة بين الادغام والإظهار سماها القرّاء: الإخفاء، ولا بد معها من الغنّة.

---

(١) شاهين: نفسه ص ١٠٢ و ص ١٠٦.

(٢) د. ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية (مرجع سابق) ص ص ٦٧ - ٦٩.

(٣) سورة محمد: ٣٢.

(٤) سورة البقرة: ١٨.

(٥) سورة البقرة: ٢٤.

(٦) سورة محمد: ٢.

وهي تكون مع اصوات التاء والثاء والجيم والدال والذال والزاي والسين والصاد والضاد والطاء والظاء والفاء والقاف والكاف(١).

وفي الوقف على أواخر الآي، او الكلام العادي، تقلب النون الساكنة، كما في إذن، وما شابهها من كلمات مختومة بالتنوين، الفا.

ويجمع القراء على انه لا بد من اظهار النون الساكنة اذا جاورت حروف الحلق، وهي عندهم الهمزة والحاء والعين والغين والخاء (٢) والاظهار هو تمكين الصوت بنطقه وفقا لخصائصه الصوتية الكاملة من غير انحراف في المخرج او في غيره.

٩. الابتداء والوقف.

من الظواهر السياقية الصوتية التي استحوذت على اهتمام (٣) المتقدمين ظاهرتا الابتداء والوقف، وتتفرع عنهما ظاهرة التوَصُّل، وهي كسر الساكن وتحريكه لتسهيل الانتقال من صوت الى آخر او من كلمة الى اخرى وقد يلجأون الى العكس في حالات الوصل اذا كان الصوت الذي تنتهي به الكلمة من اصوات المد، كالالف فإنهم يحذون معه من المد. يقول ابن السراج: فإذا كان الاسم او الفعل منتهيا بالف او واو او ياء ثم اريد الوصل به مع الذي يليه قُبِض صوت

---

(١) انظر ابو عمرو الداني، نفسه ٤٥، وابن خالَوَيه، الحجة في القراءات السبع، ٤٤، وابن الجزري، تقريب النشر ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) ابن الجزري، نفسه ص ٤٣. وقد ثبت لدى المحدثين ان الهمزة صوت غير حلقي، واشرنا لذلك في السابق.

(٣) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

اللين، ونطقت حركة مماثلة له، فيقولون رمى الرجل، ومعزى القوم، فيلفظونها رم الرجل، ومعز القوم، ويَقْفِ القوم (١).

وكان الخليل ومن تبعه من كبار اللغويين قد اشاروا إلى زيادة الالف التي للوصل في اول الكلام، ومنهم من سماها همزة الوصل. وهي الف او همزة تتغير حركتها تبعاً لما بعدها او لما قبلها. اما إذا كانت في صدر الكلام فهي مكسورة ما لم يكن الصوت الثالث بعدها مضموماً نحو اخرج واقتل (٢) وقد ضمّوا الهمزة في مثل هذه الافعال كراهية الخروج من كسر الى ضم (٣). ويذهب بعض الباحثين إلى إنكار وجود الالف او الهمزة، وانما هي كسرة تقع في اول الكلمة، وقد جيء بالالف خطّاً لان العرب لم يتعوّدوا كتابة الحركة دونما حرف. ولذلك يقول ابن جني: أعلم ان هذه الهمزة انما جئ بها توصلا الى النطق بالساكن بعدها لمّا لم يكن الابتداءُ معه وكان حكمها ان تكون ساكنة لانها حرف جاء لمعنى، ولاحظّ له في الإعراب، وهي في اول الحرف" كالهاء التي لبيان الحركة، ونحو الالف التي في وازيداه فكما ان تلك ساكنة فكذلك كان ينبغي ان تكون ساكنة: وقال: انهم اختاروا همزة الوصل دون غيرها لانها تحذف في الوصل»(٤)

---

(١) ابن السراج: الاصول في النحو (مصدر سابق) ٢/٣٦٥ - ٣٧١.

(٢) الخليل بن احمد: الجمل في النحو: ٢٢٦ وانظر سر صناعة الاعراب ١/١٣٠ - ١٣١.

(٣) ابن جني: سر صناعة الاعراب ١/١٣١.

(٤) ابن جني: نفسه ١/من ص ١٢٧ - ١٢٨.

وهذا القول يدل على اضطراب اللغويين ازاء هذا الصوت الزائد، فعلاوة على انهم يخلطون بين الالف والهمزة فيفترضون ان الاصل في هذا الصوت ان يكون ساكناً ثم يجرى كسره: يؤكدون انه يُضم ويفتح حسب ما قبله من حركات او بعده، وكان بالامكان ان يتخلصوا من كل هذا التناقض لو انهم تصوروا الزيادة هنا في الكسرة او الفتحة لا غير، بيد ان الذي منعهم من ان يقولوا بذلك اعتقادهم بان الحركة لا يمكن ان تكون قبل الصوت الصّحيح(١) وعلى الرغم من قولهم إن همزة الوصل او الف الوصل - تسقط في دَرْج الكلام، فقد لاحظوا في بعض الحالات التي يسبقها فيها موتٌ صحيح ساكن مثل (قالت اُخرُج) ان هذه الالف لا تسقط ففسروا ذلك بضم التاء للتوصل بها الى نطق الخاء في: اخرج(٢). والحق ان الضمة هي-هنا-ضمة الخاء وهي نظير قوله: "للملائكة، اسجدوا" فالكسرة في اسجدوا هي كسرة التاء في الملائكة. والمعروف انه كلما التقى ساكنان في العربية توصلوا الى الثاني منهما بكسر الاول،وهذا الذي يسمى بلقاء الساكنين شئ معروف في البحث الصوتي جداً. وقد اومانا اليه سابقاً عند كلامنا عن المخالفة (٣).

والوقفُ هو قطع صوت القارئ او المتكلم على آخر الكلمة زمناً يتنفس فيه بنية استئناف القراءة. وللوقف شروطه ومقاصده، لان الوقف السليم يساعد السامع على فهم معاني القرآن، وبه يعرف الفارق بين المعنيين المختلفين، والنقيضين المتباينين، والحكمين المتغايرين. وقد يؤدي الوقف خطأ الى لَبْس، لذا قالوا: من لم

---

(١) ابن جني: نفسه ٣٤/١، يقول: فالحرف كالمحل للحركة. والحركة لا يمكن ان تكون قبل الحرف.

(٢) ابن جني: المحتسب في تبيين وجوه القراءات الشاذة ٧١/١.

(٣) وانظر ابو علي الفارسي: الحجة للقراء السبعة ٣٦٨/١ و٣٦٩.

يعرف الوقف لم يُعلّم القرآن(١). وهذا الذي ذهب اليه القراء تؤيده النظريات الحديثة في دراسة الكلام، فالعبارات او السلاسل الكلامية المتصلة تتفاوت طولاً وقِصَراً، ولا يستطيع المتكلم مهما اوتي من طول النَّفَسِ ان يُفضي إلى سامعه بكل ما يريده دفعة واحدة، فلا بد له والحالة هذه من ان يجزئ كلامه الى أجزاء يسمى الفاصل بين الجزء والآخر وقفاً، لتنظيم عملية التنفس. وهذا التوقف ضروري، وله صلة وثيقة بعملية الكلام، ويؤثر تاثيراً كبيراً في إيجاد المطابقة بين المضمون والتعبير(٢).

وما لم تكن ثمة مطابقة بين المضمون والموقع الذي نتوقع عنده الوَقْف يحدُث اللَّبْس، لذا فإن مبحث الوقف ذو مساس بسياق الحال وهو هنا متصل بالسامع الذي هو اولى من غيره بفهم المعنى. وقدرُوِيَ ان رجلين جاءا الرسول (ص) فتشهَّد احدهما، ثم قال: من يُطِعْ الله ورسوله فقد رشد،ومن عصاهما". ثم وقف إذ لم يستطع ان يمتد به النفس لاكمال العبارة، فقال له النبي (ص): قم واذهب، فبِئْسَ الخطيبُ انت. قالوا: كره الرسول ذلك لانه بوقفه ساوى بين المطيع والعاصي؛ وكان من حقه ان يقف على "رشد". ثم يبدا بعد ذلك قائلا: ومن عصاهما فقد غوى(٣) وقد شُغِل - بسبب ذلك - القراء في تحديد العلاقات المعنوية والصوتية الضرورية للوَقْف، ومتى يحسن ومتى لا يحسن، منعاً لوقوع القارئ والسامع في اللبس، والانحراف بدلالات القرآن. وقد جاءت هذه الشروط والمقاصد نابعةً من تصورهم لسياق

---

(١) القسطلاني: لطائف الاشارات لفنون القراءات ١/٢٤٩.

(٢) مالمبرج: الصوتيات، ٩٧.

(٣) القسطلاني: لطائف الاشارات لفنون القراءات ١/٢٥٥.

التتابع اللفظي والدلالي. فعلى سبيل المثال لا يجوز الوقفُ على الصفة دون الموصوف، ولا على المبتدا دون خبره، ولا على المضاف دون المضاف اليه، ولا المعطوف عليه دون المعطوف الا إذا كثرت المعطوفات وتعدّدت، وطال الكلام وعجزت الطاقة عن بلوغ الوقف لقِصَر النَفَس، وهي حالات كثيرة جدا" (١).

كما حذر القراء من الوقف الخاطئ، ورصدوا الحالات التي يؤدي فيها مثل هذا الوقف إلى زيغ المعنى؛ والخروج بالنص من دلالته إلى دلالة مضادة، ففي قوله تعالى: "فانتقمنا من الذين اجرموا وكان حقا" ". بعضهم وقف على كلمة حقا ثم ابتدا: "علينا نصر المؤمنين"(٢) فهذا الوقف قَلَبَ المعنى قلبا" كبيرا" (٣).

ومثلما حذّر القراء من الوقوف الخاطئ حددوا انواعا" منه: فالوقف التام هو الذي يحسن الابتداء بعده، ولا يكون ثمة ما يتعلق بالذي قبله كقوله تعالى في سورة البقرة: "اولئك على هدىً من ربّهم واولئك هم المفلحون"(٤) فهذا وقفٌ تام إذ يحسن ان تبدا بعده بقوله: "إن الذين كفروا"(٥). والوقف الحسن: وهو الذي لا يحسن الابتداء بالذي بعده ومثال ذلك الوقوف على لفظ الجلالة في "الحمد لله رب العالمين"(٦): لانه يقبح الابتداء بالمخفوض، والوقفُ

---

(١) نفسه ٢٥٦/١ - ٢٥٧.

(٢) سورة الروم: ٤٧

(٣) القسطلاني، نفسه ٢٦٣/١.

(٤) سورة البقرة: ٥

(٥) سورة البقرة: ٦

(٦) سورة الفاتحة: ٢

القبيح، الذي ليس بالتام ولا بالحسن، هو الذي يقطع العبارة، كقول من يقول "بسم" ثم يقف، أو "مالك" ثم يقف ليقول "يوم الدين" لأن هذا الابتداء غير صحيح (١) ونظراً لاهمية هذا الباب من ابواب العلم بالقرآن فقد كان العلماء يَشْرُطون على القارئ الالمام به الماماً تاماً، فلا يجيزون احداً الا بعد معرفة الوقف والابتداء (٢).

غير أن الوقف والابتداء لا يقتصر اثره على الدلالة من زاوية التلقي، بل له اثره في البناء الصوتي للكلام. وقد تطرق اللغويون العرب من سيبويه الى ابن جني لبعض الظواهر الصوتية التي تظهر في الوقف وتزول عند الوصل، ومن ذلك ان ربيعة تضيف لكاف الخطاب مع المؤنث شيناً فتقول: انكش بدلاً من إنك، واعطيتكش بدلاً من اعطيتك، تفعلُ هذا في الوقف فإن وَصَلت اسقطت الشينَ، وكذلك تفعل هوازن في الحاق الكاف سيناً (٣). وكان سيبويه قد تطرق الى هذا في الكلام على ظاهرة الوقف لدى قبائل تميم واسد، وهو الانحراف بصوت الكاف نحو الشين (٤).

وللوقف اثره ايضا في لفظ الحركة، واذا كان قد عرف عن العرب انهم لا يقفون على متحرك ولا يبدأون بساكن، فقد وضح انهم يعوضون الحركة بظواهر صوتية تعبر عن التحريك. ومن ذلك ظاهرة (الإشمام) التي اشار اليها سيبويه، وهو يعني بها ارادة التحريك او التضعيف عند الوقف. وقد اورد امثلة نتبيّن من خلالها انهم كانوا ينطقون الكلمة المتحركة عند الوقف على نحو مُشْعِر بالحركة. فاذا كانت ضمّةً رمزوا

---

(١) انظر ابن الانباري: ايضاح الوقف والابتداء (مصدر سابق) ص ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) السيوطي: الاتقان في علوم القرآن (مصدر سابق) ١/٢٣٠.

(٣) ابن جني: سر صناعة الاعراب ١/٢٣٥.

(٤) سيبويه: الكتاب ٤/١٩٩.

لها باستدارة الشفتين مثلا،وكانما يختلس المتكلم الحركة اختلاسا، فلا تكاد تظهر. أما التضعيف فقصد بذلك زيادة في كمية الصوت عند الوقوف عليه، وكانما هو تشديد له. فيقولون في الوقف "سَبْسَبّ" و"عَيْهَلّ". ولكن هذا لا يطرد اذا كان ما قبل الصوت الاخر ساكنا (١) وهناك ظاهرة صوتية اخرى تلازم الوقف وهي الرَّوْم، وهي ان تُشْعِر بإرادة التحريك في الوقوف على الهمزة (٢).

ويؤكد ابو علي الفارسي في "الحجة" ان الوقف يوجب اعلالا في الموقوف عليه اذا كان من اصوات المد التي هي الالف والواو والياء، ويستوي في ذلك صوت النون الساكنة فهي تصبح الفا في الوقف، والتاء تصبح هاءفي رحمة، ومن قبيل ما يحدث للالف في الوقف الإمالة والانتحاء بها نحو الياء (٣).

ويردُّ الوقف - احيانا - بعض ما فقده الصوت اللغوي، فالالف في ضمير المتكلم (انا) تَقْصُر في الوصل، اما في الوقف فإنها تظهر كاملة من غير قَصْر. وقد يضطرون الى زيادة هاء للوقف صوتا لا خطأ كما في "ارم" وما شاكله من الافعال المعتلّة الآخر (٤) وقد يُصيِّر الوقفُ تاء التانيث هاء، مالم تكن متحركة. ففي الوقف نقوله: طلحه وهمزه والهاء هنا - حسب قول ابن جني - بدل من التاء ولكنك في الوصل مضطر لاعادتها تاءً،واذا سُبقت بالف كما في مسلمات وهندات لم يجز تحويلها هاء (٥).

---

(١) نفسه ٤ ص ص ١٦٧ - ١٦٩.

(٢) نفسه ٤/١٧٧.

(٣) ابو علي الفارسي: الحجة للقراء السبعة ١/٤٠٥.

(٤) ابن جني: المنصف (مصدر سابق) ١/٩.

(٥) ابن جني: نفسه ١/١٦١.

وقد يُلْزِمُ الوقف المتكلّمَ بنقل الحركة التي على الصوت الاخير الى ما قَبْلَه تحاشيا لاجتماع ساكنين. وذكر الخليل في وصف هذه الظاهرة ان الاسماء: بَكْر وعَمْرو وعِجْل عند الوقف يحركون الاوسط الساكن فيقولون بَكِر، وعَمِرو، وعِجِل، وبهذا يكون المتكلم قد نقل حركة لام الكلمة إلى عينها (١). والفتحة عند الوقف قد تصير الفا للترنم، كما في قول الشاعر [من الوافر]:

كَسَرْتُ على المُوامَلَةِ العتابا وامْسَى الشيبُ قَدْ وَرِثَ الشَّبابا

فلولا الوقف في (عتابا) و(شبابا) لما ساغ ان تُمْطَلَ الفتحةُ (٢). وعند الوقف تتحول النون الخفيفة الساكنة الفا كقول الشاعر العجّاج [من الرجز]

يحسَبُه الجاهِلُ ما لَمْ يعلما شَيْخا على كُرْسِيِّهِ معمّما

اراد ما لم يَعْلَمَن (٣).

وقد يفطر الناطق في بعض الوقف الى إضافة صوت للكلمة وهو هاء السكت. وقد ورد في القرآن: "ما اغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه" (٤). ومنه قول بشر بن ابي خازم [من السريع]:

مهما لي الليلةَ مهما ليه اوْدى بِنَعْلَيَّ وسِرْبٍ بَاليه

يا اوسُ لو نالَتْكَ ارماحُنا كنتَ كمن تَهوي بِهِ الهاويه (٥)

---

(١) الخليل بن احمد: الجمل في النحو، مصدر سابق ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) الخليل: نفسه ص ٢٣٧، وابن جني: سر صناعة الاعراب ٨٤/١.

(٣) الخليل: نفسه ص ٢٣٩، وابن جني: نفسه ٨٤/١ وانظر اللمع ايضا ص ١٣.

(٤) سورة الحاقة: الايتان ٢٨ و ٢٩.

(٥) الخليل: نفسه ص ٢٦٥.

وهذه الهاء عند ابن جني لبيان الحركة وليست اسماً (١). ويوضح ابن الانباري العِلَلَ الصوتية (الفونولوجية) لوجود هذه الهاء: "إذا قلنا كتابي وحسابي وجدنا الياء مفتوحة فكرهنا ان نقف عليها من غير هاء لأن الفتحة لا تبين، فقلنا كتابيه وحسابيه" (٢).

ومن الظواهر الصوتية التي تلازم الوقف اسقاط الالف اذا تُلِيَت بتنوين. لأن التنوين نون ساكنة، ففي الوقف على كلمات مثل رحى وعصا تسقط الالف وتظهر النون وتبقى الفتحة للدلالة على أن الالف سقطت. وهذا لا ينسحب على المرفوع والمجرور فتقول فيهما: عصا ورحى من غير تنوين (٣).

وثمة اصوات في العربية تحتاج عند الوقف عليها الى مضاعفة الصوت وهي التي تسمى باصوات القلقلة، وابرزها القاف والجيم والطاء والدال والباء. (٤) ويفسّر ابن جني هذه الظاهرة فيعزوها إلى استحالة الوقوف دون شدة الضغط على المخرج (٥) ومن الاصوات ما يحتاج عند الوقف إلى النفخ (٦)، وهذه الاصوات هي: الزاي والظاء، والذال، والضاد، ولكن هذه الظاهرة الصوتية تزول في حالة الإدراج والوصل لأن "اخذك بصوت اخر يشغلك عن إتباع الحرف الاول صوتاً. وذلك نحو قولك خذها، وحزه، واخفضه، واحفظه (٧)" فلم تحتج في ذلك كله الى النّفخ.

---

(١) ابن جني: اللمع في العربية (مصدر سابق) ص ٤٣.

(٢) ابن الانباري: ايضاح الوقف والابتداء (مصدر سابق) ص ٣٠٤.

(٣) ابن جني: اللمع العربية ص ١٦.

(٤) القلقلة: صوت يحدث عند خروج الحروف بالضغط على موضعها ولا يكون ذلك الا في الوقف. انظر ابن الطحان الاشبيلي: مخارج الحروف وصفاتها، تحقيق محمد يعقوب تركستاني، بيروت، ط١، ١٩٨٤ ص ٨٦ و٩٦.

(٥) ابن جني: سر صناعة الاعراب ١/٧٣.

(٦) والنفخ صويت يصاحب خروج الصوت من مخرجه يشبه النفخ وهو دون القلقلة. الاشبيلي: نفسه، ص٨٦ و ص٩٧.

(٧) ابن جني: نفسه ١/٧٣.

١١- التنغيم.

ومن الظواهر التي استرعت انتباه اللغويين والنحاة ظاهرة التنغيم Intonation ، والتنغيم هو مجموعة التغيُّرات التي تطرأ على تَرَدُّدِ نغمة الأساس في أثناء الكلام، بحسب مراد المتكلم؟ وهو الذي يفرق بين ان يكون ما يريده سؤالاً او تقريراً او إخباراً. والوظائف التي يقوم بها التنغيم متعددة، منها: الوظائف النحوية Gramma tical Function كالتمييز بين الاستفهامي وغيره، دون اضافة اسماء الاستفهام وادواته. ومثال ذلك البيت الذي رَوَوْه لعمر بن أبي ربيعة [من الخفيف]:

ثم قالوا: تُحبُّها؟ قلتُ: بهراً عددَ الرَّملِ والحَصى والتُّرابِ(١)

فقد فُهِمَ انه يريد الاستفهام بقوله "تحبُّها" من غير ان يذكر الهمزة، وذلك متكئ على تنغيم العبارة بلا ريب. ووظيفة اخرى يؤديها التنغيم وهي الوظيفة الانفعالية Emotional Function ويقع تحت هذا عبارات التوبيخ والتحقير وغير ذلك من المعاني التي يخرج بها الأمر والاستفهام والنداء عن الاصل الذي وضعت عليه (٢).

وكان قد مر بنا ان التنغيمات او انماط التنغيم Intonation Patterns موجودة في اللغات، ووجودها امر لا شك فيه، وقد رأستها شئ من الاشياء التي تهتم بها الدراسات الصوتية في جانبها الفونولوجي(٣) ويذكر جون لاينز Loyns(٤) ان الوحدات

---

(١) ابن جني: الخصائص (مصدر سابق) ١/٢٨١.

(٢) للاستزادة انظر: سعد مصلوح: دراسة السمع والكلام، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٠، ص ص ٢٥٨ ٢٦٠.

(٣) كونترا توف: اصوات واشارات (مرجع سابق)، ص ١٩٦.

(٤) عالم لغوي كبير من مؤلفاته: علم الدلالة البنيوي، علم اللغة النظري، آفاق جديدة في علم اللغة، علم الدلالة، شومسكي، وقد ترجم احد مؤلفاته للعربية، وهو "اللغة والمعنى والسياق" وورد ذكره في هذا البحث.

الكلامية مزدوجة التكوين، فهي ذات بعد دلالي، وآخر عروضي. والحدود العروضية للوحدة الكلامية تشمل التنغيم والنَّبر ونمطَ النبر. ومن مكونات هذه الوحدة نغمة الصوت، وفخامته، والايقاع، ودرجة سرعة الصوت، وما شابه ذلك من تدفّقٍ وانقطاع. ولهذه المكونات اثر في جلاء المعنى لا يقل عن اثر الكلمة نفسها، او التركيب النحوي. فعبارة "اجلس" قد تُنْطق بتنغيمٍ يفهم منها المخاطَب انها إذنٌ له بالجلوس، وقد تُنْطَق بتنغيم آخر فيفهم منها انها امرٌ به (١) وهذا قريب من قول الحطيئة هاجيا: [من البسيط]:

دع المكارمَ لا تَرْحل لبُغيَتِها واقعدْ فإنّك انتَ الطاعمُ الكاسي(٢)

فكلمة "اقعد"، وكذلك كلمة "دع"، استخدمتا هنا لاداء معنى التحقير والازدراء، ولا شك في ان الضغط والحفز على الكلمتين في بناء البيت مُشعِرٌ من حيث تنغيمُه بهذا المعنى.

وكان هايمز Hymes وهو احد المختصين بدراسة اثنوغرافيا الاتصال قد درس لهجات بعض القبائل، واستدل من دراسته على أنّ التنغيم، وهو ما يصاحب الكلام من ارتفاع او انخفاض في الصوت، ومن سرعة او تباطؤ، ومن خشونة او نعومة، ومن تدفق او انقطاع في السلاسل الصوتية، عامل من العوامل المؤثرة في طبيعة الاتصال اللغوي، وفعاليته، ومدى تحقيقه لهدفه المطلوب، جنباً إلى جنب مع التركيب الاسلوبي(٣).

---

(١) جون لايز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمه من الانجليزية عباس صادق، بغداد، ط١، ١٩٨٧ ص ٢٧، ص ٢٢٧.

(٢) الحطيئة: ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت، تحقيق نعمان امين طه، مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر، ط١، ١٩٦٨، ص ٢٨٤.

(٣) Malcolm, Coulthard, Ibid, P. 37.

ومن بين الاساليب التي يؤثر فيها التنغيمُ تاثيراً كثيراً اسلوب النُّدبة ، إذ يحدَث فيه أن تُضاف إلى المَنْدوب أَلِفٌ لإطالة المد والتفجع،ولأن الصوت يميل فيه إلى نغمة معينة لاظهار الفجع والالم فقد ذهب الاخفش للقول بأن الندبة لا يعرفها الرجال من العرب وانما هي من كلام النساء (١). وقد أيد هذا الراي وعاضده ابن يعيش(٢).

ويذكر ابن فارس ان من سنن العرب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، فقد يقولون عند المدح قاتله الله ما اشعره ، فهم يقولونه ولا يريدون وقوعه . وانما ارادوا التعجب منه . ثم يقولون "هَبَلَتْهُ امه" اوْ "ثكلته امه"، وهذا يكون عند التعجب من اصابة الرجل في ريبة او فعل يفعله (٣). ولا شك في أنهم كانوا يركنون الى النغمة لتمييز التعجب والمديح في هذه الكلمات من غيره . وعلى الرغم من ان حروف المعاني التي للنفي او الاستفهام وغيره ، لا يسوغ حذفها فإنها تحذف متى كان الكلام يغني السامع عن ذكرها ، وقدر ابن جني همزة الاستفهام في قول الكميت [من الطويل] :

طربتُ وما شَوْقاً الى البيضِ اطْرَبُ ولا لَعِباً منّي وذو الشيبِ يَلْعَبُ

اراد : "اوَ ذو الشيبِ يَلْعَبُ"(٤) ولهذا ونَحْوِهِ نظائرُ معروفةٌ. ويذكر ابن جني شيئا قريبا جداً مما ذكره المحدثون عن أثر التنغيم في الكلام . فالمتكلمُ في رأيه يعبّر باصواته عن اشياء اضافية لا يحتويها الكلام نفسه ، وهذه الاشياء تدرك بالحس، وذلك ان تكون في

---

(١) نقلاً من ابن السراج، الاصول في النحو (مصدر سابق) ٣٥٨/١.

(٢) نفسه ، ٣٥٨/١ والملاحظة للمحقق الاستاذ عبد الحسين الفتلي.

(٣) السيوطي، المزهر في علوم اللغة (مصدر سابق) ٣٣٠/١.

(٤) ابن جني، الخصائص ٢٨١/١.

مدح انسان والثناء عليه، فتقول: والله كان رجلاً، فتزيد في قوة اللفظ "الله" وتتمكن في تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها، كأنك تقول: اي رجلاً فاضلاً او شجاعاً او كريماً او نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه انساناً. وتمكن الصوت وتفخمه فتستغني بذلك عن وصفه"(١).

ومن المستويات العروضية للعبارة العربية ما سماه اللغويون بالمحاذاة او الإتباع. وهو أن تجعل كلاماً بحذاء كلام فيؤتى به على وزنه لفظاً وإن كانا مختلفين. فيقولون: (الغدايا والعشايا) فقالوا الغدايا جمع غدوة - لتناسب العشايا في اللفظ. وقالوا: "اعوذ بك من السامة واللامة" وكان عليهم ان يقولوا الملمة، فقالوا اللامة .. لمضارعة السَّامَّة في الوزن وبعضهم يسمي هذه الظاهرة بالإتباع وهو ان تُتْبِع اللفظةُ بلفظة اخرى على وزنها ورويها للإشباع وتقوية المعنى. وقد الف ابن فارس كما يقول السيوطي كتاباً في الإتباع لخّصه وزاد عليه في كتاب سمّاه: الالماع في الاتباع"(٣) وينسب ابو الطيب اللغوي (٣٥١هـ/٩٦٢م) إلى الرسول (ص) حديثاً يقول فيه عن الشُّبْرُم وهو نوع من الشيح "انه حارّ بارّ". ويعلق الكسائي (١٨٩هـ/٨٠٤م) على ذلك قائلاً: حار من الحرارة، وبار اتباع. وهو كقولهم عطشان نطشان، وجائع نائع، وحسن بسن، وانما سمي اتباعاً لأن الثانية اتبعت للأولى على وجه التوكيد، وليس يُتكلم بها منفردة(٤)ولا بد ان تكون هذه الزيادة الصوتية

---

(١) ابن جني: نفسه ٣٧١/٢.

(٢) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٣. ص ص ٢٣٠ - ٢٣١، وانظر المزهر ٣٣٩/١.

(٣) السيوطي: المزهر ٤١٤/١.

(٤) ابو الطيب اللغوي: الاتباع، تحقيق مز الدين التنوخي، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٦١ ص ٣٥، وابن فارس: الصاحبي: ٢٧، المزهر ٤١٥/١.

زيادة في قوة المعنى لان العرب لا تضعه سدى(١).

ويذكر السيوطي ان هذا الاتباع نمط من انماط التكرير، كأنْ تقول: رايت زيداً زيدا (٢) ولا شك في ان تكرار الوحدة الصوتية شكل من اشكال التنغيم في العربية.

وثمة شكل اخر من اشكال الإتباع، وقد المعت إليه في مستهل هذا المبحث وهو ان تحرك الصوت الصحيح الساكن بحركة معينة لتجانس في صوتها حرفاً سابقاً او حركة سابقة، وقد لا تكون هذه الحركة متسقة مع القاعدة النحوية، ومثال ذلك ما ذكره ابن جني من ان العرب تميل في كلامها إلى كسر فاء الكلمة إتباعاً لحروف الحلق. فقالوا شِعير وبِعير: وانما هي شَعير وبَعير (٣). وكذلك كسر الهاء في عليهِم ولديهِم اتباعاً للياء. وكان من حقها ان تكون مضمومة. وقد وصف ابو علي الفارسي هذا بقوله: هو اتباع الكسر بالكسر، فإذا لم تكن الهاءُ مسبوقةً بياء او بكسرة لما كان ثمة خلاف حول الضم (٤).

وقد افرد السيوطي (٩١١هـ/١٥٠٥م) لظاهرة الإتباع هذه فِصْلة من كتابه الاشباه والنظائر في النحو (٥) وذكر منه انواعا كثيرة: منها اتباع حركة اخر الكلمة المعربة لحركة اوّل الكلمة بعدَها، كقراءة: (الحمدِ لِلّه) بكسر الدال اتباعاً لكسرة اللام. وقد قُرِئت ايضا

(١) السيوطي نفسه ١/٤١٦.

(٢) نفسه ١/٤٢٤.

(٣) ابن جني، المنصف (مصدر سابق) ١/١٩.

(٤) ابو علي الفارسي، الحجة للقراء السبعة (مصدر سابق) ١/٥٧ - ٦٢.

(٥) الاشباه والنظائر في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ١/ص ١٣ - ١٦.

"الحمدُ لُلّه" بضم اللام اتباعاً لحركة الدال(١). ومنه إتباع بعض حركات الاصوات بعضها الاخر في الكلمة نفسها، وإتباع ضمير المذكر لضمير مؤنث كما في الحديث: "اللهم رب السموات السبع وما اظللن، ورب الأرضين وما اقللن، ورب الشياطين وما اضللن". والاصل اضلوا بضمير الذكور ولكنه اتبعه لتقدم المؤنث(٢). ويذهب بعض النحاة الى ان العرب اكثرت من الاتباع حتى صار كانه اصلٌ يقاسُ عليه (٣). ولا شك في ان الإتباع كما قلنا من قبل مظهر من مظاهر حسن التناسق الصوتي للعبارة، وقد يلجا اليه المتكلم مراعاةً لوقْعِ اللفظ في المخاطَب على الرغم من مخالفته للأصل النحوي.

١١. القلب المكاني Metathesis

مر بنا ان اللغويين لاحظوا تبادل الاصوات لمواقعها في السلسلة الكلامية. سواء كانت هذه الاصوات من السواكن او من الحركات القصيرة او الطويلة. فإذا كانت الاصوات متقاربة سمي القلب Inversion وإذا كانت غير متقاربة سمي القلب المكاني Metathesis ومن اوضح الامثلة على القلب المكاني المتباعد الكلمة Mosquito الاسبانية اصبحت في الفرنسية Mostique(٤) ويبدو ان القلب المكاني شئ خاضع لنظام اللغة الفونولوجي، وقد ذكر سيبويه ان الافعال المعتلة العين مثل خاف وهاب تنقل فيها حركة العين الى الفاء لتسهيل النطق في الماضي المتصل بالتاء المتحركة، فيقال: خُفْتُ وهِبْتُ(٥). وقد جاء تعليلهم

---

(١) نفسه ١/١٣.

(٢) نفسه ١/١٥.

(٣) نفسه ١/١٧.

(٤) ماريو باي: اسس علم اللغة (مرجع سابق) ص ١٤٩.

(٥) سيبويه: الكتاب ٤/٣٣٩.

لظاهرة القلب المكاني في الماضي الاجوف متسقاً مع احدث النظريات اللغوية (١). وذكر اللغويون ايضاً ان الوحدات الدلالية واشتقاقاتها تعتمد احياناً على القلب المكاني، مثال "جبذ" و"جذب"، وابار التي اصلها "أبْآر" واكثر ما يتفق القلب في المعتل والمهموز كما جاء في شرح الشافية (٢) وذكر الخليل وغيره ان بعض الاسماء من الثلاثي الساكن الوسط اذا وقفو عليه نقلوا حركة الآخر الى الوسط الساكن فقالوا في بكر: بكر، وفي عمرو: عمر، وفي هند: هند، قال الشاعر [من الرجز]:

علّمَنا إخوانُنا بَنو عِجِلْ شربَ النبيذِ واعتقالاً بالرّجِلْ

فقد نُقلت حركة اللام في عِجِل ورجِل الى الجيم (٣)، لتحاشي اجتماع صوتين ساكنين متواليين.

خلاصة الفصل الثاني

وقبل الانتقال من هذا الفصل الى الذي يليه لا بُد من القول بان هذه الظواهر التي تناولناها وهي احدى عشرة ظاهرة لا تمثل الا شيئا متواضع القدر قياساً الى ما تناوله الصوتيون واللغويون والنحاة من ظواهر فونولوجية. وعزاؤنا في هذا ان الظاهرات الفونولوجية عمّيّة على الاحصاء فعلا، وهي متنوعة لتنوع درجات الاختلاف والتناظر في النطق الانساني. فالمماثلة والمغايرة والتنغيم والقلب والاعلال مع الحذف وغير ذلك من الامور، تعرض في الكلام ولا تخضع لحصر. وغرضنا من هذا التصنيف الذي اوردناه الإشارة الى ان اللغويين العرب لم يغفلوا عن مثل هذه الناحية من الدرس الصوتي؛ بل كانت

---

(١) داود عبده، دراسات في علم اصوات العربية (مرجع سابق)، ص ١٢٩.

(٢) داود عبده، نفسه، ٩١.

(٣) الخليل، الجمل في النحو، (مصدر سابق) ص ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

لهم فيها مباحث وآراء مصيبة في الغالب وتنطوي على تفسيرات صوتية تنسجم مع الدرس اللغوي المعاصر.

ولا شك ان العرب لمسوا قوانين وضوابط التغيير السياقي للاصوات. كتاثير المخرج في المخرج، وقانون الغلبة للاقوى The law of the Stronger الذي يسمح بتاثير احد الصوتين في الاخر (١) والعلاقة التاليفية اي الاتحاد او الوصل Junction الذي يعني زوال الفاصل الصوتي من حركة او ما شابه بين الكلمتين او الحرفين (٢) ونوع المماثلة : تقدمية Progressive او رجعية regressive والابدال الحركي Metaphony واثر استعلاء الصوت واستفاله (٣) في جرسه تفخيما او ترقيقا وغير ذلك مما تؤيده المباحث الصوتية الخالصة. ولعل ذلك ما اشار اليه غير واحد من الدارسين المحدثين والمستشرقين لفضل العرب في مجالات الدراسة الفونولوجية.

فاذا وقر ذلك في الذهن امكن القول بان للسياق المقالي/ او اللغوي دورا كبيرا في مجال البحث الصوتي وهو الدور الذي اشار اليه فيرث عندما قال ان دراسة الاصوات اللغوية معزولة عن السياق دراسة ناقصة نقصا كبيرا، بعيدة عن التحقق من ادائها لوظيفتها في البنية اللغوية : وهي النهاية القصوى لكل دراسة في علم اللغة (٤).

---

(١) مالمبرج، الصوتيات (مرجع سابق) ص ١٣٠.

(٢) نفسه، ص ٩٠.

(٣) الاصوات المستعلية في العربية هي التي يرقى بها اللسان عند النطق إلى الحنك، قال ابن الجزري في النشر: هي حروف التفخيم على الصواب، وزاد مكي عليها الالف، واكثر الاصوات استعلاء هو الطاء والاصوات المستفلة هي التي ينحط بها اللسان إلى قاع الفم عند النطق. انظر القسطلاني، لطائف الاشارات ١/١٩٨.

(٤) Firth: Papers in Linguistics, PP. 20 - 23.

الفصل الثالث

أثر السياق في البحث الدلالي

- السياق والبحث الدلالي،
- السياق والمعنى،
- الوظائف الدلالية للسياق،
- السياق والبحث الدلالي لدى العرب،
- اللغويون العرب والسياق والمعنى،
- التصنيف السياقي للالفاظ،
- المعجم العربي والسياق التفسيري،

(١) السياق والبحث الدلالي:

مر بنا في الفصل الاول ان اللغة نظام صيغ من نظامين (احدهما) صوتي والآخر دلالي(١). وقد اهتم علماء اللغة بدراسة النظامين وتاثير احدهما في الآخر. فاما البحث في النظام الاول فقد انتج سلسلة من العلوم الصوتية اشرنا اليها في حينه (٢) واما البحث في النظام الثاني فقد انتج ما يعرف بعلم الدلالة او علم المعاني Semantics. وعلم الدلالة بكلمة موجزة - فرع من اللغويات يهدف، اساساً، إلى فهم حقيقة اللغة، جنباً إلى جنب مع علم التراكيب Syntax والصوتيات Phonetics، فإذا كانت الصوتيات وعلم التراكيب يهدفان لدراسة الأبنية اللغوية، وكيفية حدوثها، فإن علم الدلالة يهدف إلى دراسة المعاني التي يمكن التعبير عنها من خلال هذه الابنية (٣).

ويذكر مشيل برايال Bre'al عادة من حيث انه اول باحث لغوي استخدم كلمة "علم الدلالة" Semantics مشيراً بها إلى هذا الميدان من ميادين البحث اللغوي(٤). وكان التعبير الذي استُخدم للدلالة على هذا العلم هو فلسفة الدلالة. Semantic philosophy، وقد استخدم هذا التعبير في كتابات متعددة في الفلسفة والمنطق واللغة وعلم النفس وعلم الاجتماع والنقد الادبي قبل ان تصبح لفظة Semasiology

---

(١) انظر الفصل ص١٤. وانظر

Wardhaugh, Introduction to Linguatiea, P. 25.

(٢) انظر الفصل الاول والفصل الثاني من هذا البحث ص١٥ وص٧٦

(٣) مازن الوعر (مقدم): علم الدلالة لبيير جيرو، ترجمة د. منذر العياشي، طلاس للطباعة والدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط الاولى، ١٩٨٨، ص ص ١١ - ١٢.

(٤) محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٩٧٠ ص ١٥٧.

هي المتداولة في التعبير عن البحث في التطور الدلالي للالفاظ(١).

وكان عالم اللغة الالماني كرستيان كارل رايسغ Risig(٢) قد استخدم هذه الكلمة في محاضرات القاها في فقه اللغة اللاتينية سنة ١٨٢٠ تطرق فيها إلى الالفاظ، واشتقاقاتها وعجز المعجم اللاتيني عن الوفاء بالمطالب اللغوية ووجدت افكار رايسغ مَنْ يطوّرها بعده، لا سيما تلميذه فريدرخ هاس Hass ثم فرديناند هيردغن Heerdegen وقد شاعت في ابحاثهما كلمة السمسيولوجيا Semasiology لتدل على العلم الذي يجعل المعنى نتيجة لتشابك المستويات اللغوية المختلفة، المعجم والنحو وعلم التراكيب او النُّظم(٣)،وقد اوضح هذه المفاهيم بجلاء عالم اللغة الالماني دارمستتر في كتابه حياة الالفاظ: دراسة في الدلالة، الذي ظهر عام (١٨٨٦) وعني فيه بدراسة التطور الدلالي للكلمات (٤)، مبرزا الدور الذي يقوم به السياق الاجتماعي وتطوره في التاثير على معاني الكلمات وإغناها بالدلالات الجديدة.

وقد استبدل ميشيل برايال كلمة السميولوجيا بكلمة السيمانتيك في عنوان كتابه Essai de Se`mantique الذي ظهر عام ١٨٩٧، وظهرت ترجمته إلى الانجليزية عام (١٩٠٠). وكان لهذا الكتاب اثره الكبير في نظرية علم الدلالة، ونكاد لا نجد كتابا* يبحث في

---

(١) Firth,. Papers in Linguistics, PP. 7 - 8.

(٢) Gordon, W. Terreuce, A History of Semaytics,in Studies in The History of Linguistics, Vol 30, John Benjamin, publishing Co. Amsterdam, 1982, PP. 1 - 2.

والعالم المذكور هاش ما بين ١٧٩٢ و١٨٢٩ وقد تتلمذ له عدد من الالسنيين الذين اثروا في تطور علم اللغة الحديث.

(٣) Ibid, PP. 14 - 15.

(٤) Firth,Papers in Linguistics, P. 11

* وانظر الفصل الاول من هذا البحث ص ٧

الموضوع الا وله ذكر فيه وإشارة، والمعلومات المتداولة عن علم الدلالة في القرن الماضي غالباً ما تكون مقتبسة منه، لا سيما ما يتعلق منها ببحوث معاصره دارْ مِشْتتر Darmesteter. وترجع قيمة كتاب بريال إلى ما اتسم به من نظرة ناقدة، واستدراكات على من سبقوه وقد تجاوز طرائق البحث التقليدية داعياً لجعل البحث في المعنى علماً كغيره من العلوم الطبيعية Natural Science، لذلك استخدم الكلمة Semantics وهو يعني بها علم المعنى (١) The Science of Meaning. ومن المزايا الرئيسية لبحوثه طريقته الوَصْفيّة في دراسة الالفاظ، والدّعوة إلى نبذ الأساليب العتيقة القائمة على دراسة اللفظة المفردة معزولةً عن السياق (٢).

وبرز في عصر بريال عدد من الألسنيين الذين اهتموا بعلم الدلالة اهتماماً كبيراً. منهم ماكس مولر Max Muller صاحب كتاب "علم اللغة" وكتاب "علم الافكار" (١٨٨٧) وعالم اللغة السويدي ادولف نورين Adolf Noreen (١٨٥٤ - ١٩٢٥) صاحب كتاب "الفتنا" وقد تضمن فصلا عنوانه Semology "دَرْسٌ في المعنى" واتسمت دراسته للمعنى بالطابع الوصفي الى جانب ما كان متبعاً في استقصاء تطور دلالات الالفاظ. ولا ننسى ايضاً بحوث عالم اللغة الفرنسي كرستوفر نيروب Nyrop صاحب"الدراسة التاريخية لنحو اللغة الفرنسية" فقد ضمّن هذا الكتاب فصلاً بعنوان "التطور السيمانتيكي". وفي سنة ١٩٣١ ظهرت

---

(١) Gordon: A History of Semantics, PP. 18 - 22.

(٢) Ibdid, P. 23.

وانظر ما كتبه بيير جيرو من جهوده في علم الدلالة (مرجع سابق) ص ١٩ وما بعدها.

دراسة ستيرن Stern عن المعنى وتطوّره (١).

ويقترن اسم ستيرن باسم عالم لغوي آخر هو البرت كارنوي Carnoy الفرنسي الأصل، ووجه الشبه بينهما انهما قاما في مؤلفاتهما بمراجعة شاملة لبحوث من سبقوهما في علم الدلالة، ففي سنة ١٩٢٧ صدر لكارنوي كتاب بعنوان "علم الكلمة La Science du Mot" وصدر لستيرن عام (1931) كتاب: "المعنى وتغيُّره" Meaning and Change of Meaning. وقد تطرقا في بحوثهما لعلم الدلالة إلى صلة هذا العلم بعلم النفس، ووضعا أول تحديد علمي لمجالاته، وقدما تعريفاً جديداً للمعنى خرجا به عن مفهوم برايال الذي ظل حتى ذلك الحين مصدراً وحيداً لكل الباحثين، وزادا على ذلك فقدما تصوراً لمستقبل هذا العلم (٢).

وقد اغتنت مباحث علم الدلالة بالنتاج الغزير لكل من شارلز اوجدن Ogden (١٨٨٩ - ١٩٥٧) وإيفور ارمسترونغ ريتشاردز Richards (١٨٩٣ - ١٩٧٩)، فقد صدر لهما عام 1923 كتاب مشترك هو كتاب: معنى المعنى" (٣) The Meaning of meaning. واشتمل على بحوث تغطي عدداً

---

(١) انظر د. احمد مختار عمر: علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الاولى، ١٩٨٢، ص ص ٢٢ - ٢٣. وستيرن هو احد مدرسي علم اللغة في جامعة انديانا.

(٢) Gordon, A History of Semantics, P. 52.

وكارنوي ... فرنسي الاصل عمل في جامعة بنسلفانيا محاضراً. وكان يتقن الانجليزية اتقاناً جيداً. واطلع على اعمال وتني Whitney بلغته الاصلية وعقد مقارنة بين ابحاثه وابحاث ميشيل برييال في كتابه "علم الكلمة" الذي ذكرناه.

(٣) Ibid, P. 45.

والباحثان معروفان جداً لدى القارئ.

من الحقول المعرفية ذات الصلة بالموضوع، بما فيها الحقل اللغوي. وعُنيا بإبراز الصّلة ما بين اللفظة والحقيقة، واعتبرا إشارة هذا الموضوع، بشكل موسّع، هو المواجهة الحقيقية لإشكالية المعنى. وتطرقا لقضية العلامات ودورها في التعبير. وقد لوحظ اقتباسهما لفكرة الصلة بين الدال والمدلول عن سوسير (١)، ولكنهما خالفاه في كثير من آرائه، بل وجّها إليه نقداً اكثر قسوة من ذلك الذي وجهاه إلى ميشيل بريال (٢)، فالكلمة في رايهما ليست علامة ما لم ترتبط في ذهن السامع بحقيقة الشئ الذي تشير اليه، ولا بد من ان يكون للسياق - في رايهما - دورٌ كبير في إيجاد هذا الترابط بين اللفظ والمعنى، ولولاه - اي السياق - لما كانت ثمة اهمية للرموز في حياتنا (٣).

وكثر التاليف في علم الدلالة، وتعددت مجالاته ونظرياته فقد الف ستيفن اولمان Olmann كتاباً عنوانه "مبادئ علم الدلالة" The Principles of Semantics والف كتاباً آخر سماه "التعريف بعلم الدلالة الفرنسي" Pre`cis de Semanticque Francais(٤).

ومهما يكن من امر الكثرة او القلة التي تميزت بها البحوث في علم الدلالة فإن الذي لا ريب فيه هو ان سوسير كان الاب الروحي لهذه البحوث، فقد شاعت على يديه فكرة العَلاقة العَرَضِيّة بين العلامة

---

(١) Gordon, A History of Semantics, P. 45.

(٢) Ibid, P. 46.

(٣) Ibid, P. 46.

(٤) بيير جيرو: علم الدلالة ص ص ٢٣ - ٢٤، وانظر ايضاً: محمد المبارك، فقه اللغة (مرجع سابق) ص ١٥٧.

اللغوية او اللفظة والمعنى الذي ترمز إليه (١). وحقيقة الامر ان هذه الفكرة لم تكن من ابتكاره: وقد كان عالم اللغة الامريكي وليم وتني Whitney قد اوضحها في كتابه "حياة اللغة وتطورها" The life and Growth of Language (١٨٧٥) واضعاً بذلك علم الدلالة - كما يقول ياكسبون - في الاتجاه الصحيح (٢).

والحق ان هذا الراي الذي قال به وتني ومن بعده سوسير حول عَرَضِيّة الصلة بين المدلول والعلامات اللفظية Verbal signs كان قد سبق اليه كثير من اللغويين والاصوليين العرب(٣) وإذا كانت الفكرة التي جاء بها سوسير حول الدلالة فكرة قديمة فما الذي يجعله من اكبر المؤثرين في هذا الميدان؟ الاجابة على هذا السؤال تعيدنا إلى ما اسلفنا الكلام عليه في الفصل الاول من حيث ان سوسير ركز على الدراسة الوصفية للغة، والاتجاه إلى تحليلها كما هي لا كما كانت في السابق. ومن اجل ذلك اتجهت الدراسات الدلالية نحو الإجابة على اسئلة مثل: كيف يتم انتاج الدلالة، وما صلة ذلك بمستويات اللغة الاخرى من صوتية وتركيبية ونحوية واسلوبية إلى اخر هذه السلسلة؟ وتركت قضية البحث في التطور الدلالي للالفاظ لعلم خاص هو علم الدلالة التاريخي Historical Semantics، وهو علم يدخل في إطار ما يعرف بفقه اللغة المقارن Comparative philology، وهذا الفقه لا ينبغي للباحث، الذي يريد دراسة اللغة من حيث هي as it's

---

(١) راجع الفصل الاول من هذا البحث.ص١٩

(٢) Jakobson, Six Lectures on Sounds and Meaning, Translated From French by John Mephan, The Harvester Press, 1 st ed. 1978, p.110

(٣) انظر على سبيل المثال تفسير فكرة الموافقة والاصطلاح في اللغة لدى الغزالي: المستصفى من علم الاصول (مصدر سابق) ٣١٨/١ وانظر سيف الدين الآمدي: الاحكام من ادلة الاحكام، ط دار المعارف، القاهرة، ١٩١٤/ نسخة مصورة عنها لدار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، جـ١ ص ١٠٤.

ان يتوغل فيه ، ويجري وراءه جرياً متواصلاً يبتعد به عن الغاية الأساسية للبحث(١).

وقد وجد هذا التركيز على تامل اللغة ودارستها من حيث هي لغة صداه في بحوث الكثير من الالسنيين في مقدمتهم مالينوفسكي، واولمان، والبرت كارنوي Carnoy وغوستاف ستيرن Stern وانطوان ميّيه Meillet(٢) وترايير Trier وبلومفيلد (١٨٨٧ - ١٩٤٩) وفيرث Firth ونوم شومسكي وغيرهم ممن ذكروا في غير هذا الموضع او لم يذكروا.

(٢) السياق والمعنى:

لقد ارتبطت قضية الكلام عن المعنى بالكلام عن السياق منذ القديم، فاللغويون الهنود الذين عنوا عناية شديدة بدلالات الالفاظ سبقوا المُحْدَثين إلى القول بان للسياق دوراً قوياً وحاسماً في ايضاح المعنى(٣)،كما اكد اللغويون والمفسرون العرب على وظيفة السياق في تحديد المعنى المخصوص للفظ وتنوّعه لتنوّع السياق(٤)

---

(١) Palmer, Semantics, Cambridge University Press, Cambridge, 1 st Pub, 1976, PP. 12.

(٢) Gordon, A History of Semantics, P. 38.

وانظر رسالته في علم اللسان التي ترجمها د. محمد مندور في كتابه "النقد المنهجي عند العرب". دار النهضة، مصر، بلا تاريخ.

(٣) احمد مختار عمر؛ علم الدلالة، دار العروبة للنشر والتوزيع، ط اولى، الكويت ١٩٨٢، ص ص ١٩ - ٢٠. وانظر البحث اللغوي عند الهنود واثره على اللغويين العرب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢، ص ٩٩ وما بعدها.

(٤) راجع الفصل الاول من هذا البحث وانظر: دلالة السياق، منهج مأمون في تفسير القرآن، تاليف عبد الوهاب ابو صفية (دن)، عمان، ط الاولى، ١٩٨٩، ص ص ٢٤ - ٢٦.

بيد أنّ موقفَ السياقيّين المحدثين من المعنى اتخذ طابعاً جديداً، وهو البحث عن وجوه مشتركة بين الدلالات المتباينة لكلمة "السياق" من حيث هي لفظ شديد الغموض، وكذلك البحث عن إجابات دقيقة، وعلمية، حول الطريقة التي يصبح السياق بمقتضاها فَيْصلاً في تمييز المعنى عن المعنى.

لقد اكد سوسير، كما سبق ان المحنا في غير مَوْضع، ان العلاقة بين الشئ والكلمة التي تدل عليه، علاقة غير جوهرية. ويذهب اولمان وهوكو إلى التوكيد بان المعنى يتحقق نتيجة العلاقات القائمة بين الشئ ذاته وفكرتنا عنه والصورة اللفظية، سواء اكانت مكتوبة أم منطوقة، وعمليَّةُ تحقيق هذه العلاقة هي الدلالة. وكل عنصر من هذه العناصر له صلة راسخة ووطيدة بما يسمى بسياق الحال The context of situation(١).

وقد تناول ياكبسون Jakobson واحداً من هذه العناصر الثلاثة، مبرزاً دوره في تحقيق الدلالة، ونعني به الصورة اللفظية. وتَعَمَّق في بحث ما سماه بالعناصر المميزة للصور الصوتية للكلمات. وهذه العناصر تبدأ من الاصوات الدنيا او الفونيمات Phonemes ثم الاصوات الزائدة لغرض صرفي (المورفيمات) والادوات، وهي غالباً اصوات لا معنى لها بذاتها، ولكنها عندما تندرج في اثناء الكلام تؤثر تاثيراً كبيراً على معاني الكلمات، بل على معاني الجمل ايضاً، وتكتسب هذه الاصوات دلالاتٍ مستمدّةً من التركيب السياقي(٢).

---

(١) Gordon, A History of semantics, P. 50.

(٢) Jakobson, six Lectures, P. 54. وانظر Chomsky, Syntactic Structures, Mouton & Co. Paris, 6th pri, 1966, P. 100.

ويلحّ ياكبسون على الصلة بين الاصوات والتركيب والمعنى فيما يسميه العلاقات السياقية المتشابكة. ويضرب مثالاً على الدور الذي تحدثه الاصوات في المعنى بقوله: إن الفونيم وهو اصغر وحدة صوتية يميّز الكلمة الواحدة ويفصلها عن شبيهتها فكلمة مثل Sang اختلفت في المعنى عن كلمة مثل Song باختلاف الفونيم وهو هنا (a) الذي اصبح (o) وكذلك نجد المورفيماتِ، وهي اللواحق او الزوائد الصرفية التي تضاف إلى الكلمة فتؤثر في معناها، كما ان التنغيم Intonation في عبارة استفهامية مغايرٌ للتّنغيم في عبارة مُثْبَتَة او منْفيّة، وقد تختلف دلالة العبارة من حين إلى حين تبعاً لاختلاف التّنغيم ورَمْزِيَتِه (١).

ويستخلص من دراسته للعلاقات ان عملية المعنى في الكلام تتاثر بالابعاد المختلفة، والمستويات المتعددة للتحليل اللغوي، وهو في هذا إنما يطور الفكرة التي المع اليها سوسير في دروسه، موضحاً ان اي تغيير سياقي في أُحدوث الكلمة تغيير غير شكلي، بل له اثر كبير في تمييز اللفظة عن غيرها من الالفاظ مما يبعد اي لبس، فوضوح الرمز الصوتي، وتميزه عن غيره من الرموز في الكلام امر ضروري جداً، لاداء المعنى(٢).

ويشبه علاقات الالفاظ والعناصر اللغوية مع بعضها بعضاً في الجملة الواحدة بعلاقات العناصر التي تتالف منها اية اسطورة، فكل عنصر في الاسطورة يتوقف معناه على اتضاح العناصر الاخرى، فعندما

---

(١) Jakobson, Ibid, P. 60.

(٢) Ibid, PP. 47 - 48.

يقال في الاسطورة مثلاً : "ابن الشمس" فإن العلاقة بين هاتين الكلمتين او جدتها الخرافة التي سوغت ان يكون للشمس ابن مثلاً . وهكذا فان الكلمة من حيث هي كلمة مفردة تختلف دلالتها اختلافاً كبيراً عما هي عليه في النص. بل قد لا يكون لها من حيث هي مفردة أي معنى(١) وعلى غرار الرأي الذي ذهب اليه ياكسبون من ان المعنى هو وليد النسيج المتشابك لمستويات التحليل اللغوي، مع تركيز على الصورة النُّطقية للعلامات،ذهب بلومفيلد Bloomfield إلى المَزْج بين دراسة الدلالة والنحو، بحيث جعل من دراسة المعنى دراسة للنحو ومن دراسة النحو دراسة للمعنى،مضافاً إلى ذلك بعد آخر هو البعد المُعْجَمي(٢) . وكان قد أُخِذَ على بلومفيلد (١٨٨٧ - ١٩٤٩) انه لم يُعِر "المعنى" في الدّرْس اللغوي اهتماماً اكبر. وقال بعض تلاميذه وهو شارلز فرايز: "لقد كان من المؤسف ان ندرس اللغة دون عناية بالمعاني وكانها أصواتٌ مجردة (٣).

وهذا القول ينبغي الا يؤخذ على عواهنه ، على الرغم من ان بلومفيلد هو القائل بان الدّرْس اللغوي يبدا من الدرس الصوتي لا من المعنى. وقد اوضح هوكو Hockett، وهو من تلاميذه ، ان صاحب "اللغة" لم يغفل ابداً عن المعنى، بل حاول تحديده ، مؤكداً ان عملية النُّطْق اللغوي تستدعي من السّامع ان يشارك المتكلّمَ في ظَرْفٍ خاصّ،

---

(١) Claud Le`vi - Strauss. (مقدم) Six lectures. P. xx ii.

(٢) Firth. Papers in Linguistics. P. 15.

وبلومفيلد هو عالم لغوي امريكي واحد مؤسسي المدرسة السلوكية له كتاب بارز بعنوان "اللغة".

(٣) Gordon,A History of Semantics. P. 96.

وهذا الظرف الذي يحيط بالحدث الكلامي يجعل لكل منطوق صوتي معنى يعرفه كل من المتكلم والسامع، وقد اكد في كتابه "اللغة" ان سياق الحال"والحدث الكلامي الذي يجمع المتحدثين"هو المعنى الذي يحمله الكلام. فالمعنى اللغوي على هذا الاساس اكثر سَعة لدى بلومفيلد من مجرد الاشارة للمعنى المعجمي(١).

وتلازم المستوى الصوتي والتركيبي [او النحوي] والسياق الحالي الذي اشار اليه بلومفيلد هو الذي ينتج الدلالة. والمعروف ان كثيراً من الادوات والضمائر التي يحتويها الكلام كثيراً ما تعيدنا الى اشخاص نستدل على وجودهم بمراعاة الظروف المحيطة بالخطاب(٢).وتعدّ العلاقة بين التركيب النحوي والمعنى من اشد العلاقات تعقيداً. وقد تناولها قسم من اللغويين من زاوية الصلة بين المعجم ووضع المفردات في العبارة، وضرورة كون الكلمة مناسبة للتي تليها في خواصّها الدلالية، في حين صنّف قِسْمٌ منهم الفاظ المعجم اصنافاً منها النحوي ومنها غير النحوي، وقد ذهب فرايز Fries - وهو امريكي - إلى ان المعجم يضم الفاظاً مثل why, do, at, and, they, the, may, Although، وغيرها من الفاظ لا معنى لها الا في وظيفتها النحوية التي لا وجود لها الا في التركيب(٣). والحالات التي يتدخل فيها النحو في انتاج الدلالة كثيرةٌ جداً، ومن اكثرها اهمية انه يقوم بدور الضوابط التي تنظم عملية الرّصف،ووضع الكلمة الى جانب الاخرى، فالكلمة الدّالةُ مثلاً

---

(١) Ibid, PP. 97 - 98.

(٢) Palmer,F.R.Semantics.A New Outline, Cambridge University Press, Cambridge, 1 st Pub, 1976, PP. 120 - 227.

(٣) Palmer, Semantics, P. 114.

على عمل في الماضي لا يسمح النحو بتراصفها مع كلمة اخرى تدل على عكس ذلك، فلا يَسْمَحُ النحو مثلاً بقول العبارة : (جاء محمود غداً). ولكن هذا الوجه في رأي بالمر Palmer هو اقل وجوه النحو تدخلاً في المعنى،إذ هناك الكثير من الادوات الوظيفية التي لولاها لاستحال بناء الجمل، وكذلك علامات التذكير والتانيث، والإفراد والتثنية والجمع والضمائر وكل هذه العناصر هي في الاصل مفاهيم نحوية ، او لواحق، او زوائد صرفية ، وما شابه ذلك، ولها صلة قوية بمعنى الجملة . وتُعدّ دراسة هذه المسائل في النحو دراسة شكلية ، لكنها في إطار علم الدلالة من المسائل المؤثّرة،والوظيفية التي كانت مستمدة من عناية الدارس الدلالي(١).

والفكرة التي تقول بان المعنى في الكلام وليد المستويات اللغوية المختلفة من صوتية وصرفية وتركيبية ونحوية ، اي وليد العلاقات السياقية ، وجدت صداها القوي في الفكر اللغوي لدى العالم الأمريكي نوم شومسكي chomsky فقد ذهب في كتابه (الابنية التركيبية) Syntactic St ructures إلى ان المعنى في اللغة يتاثر بالمستويات الالسنية المختلفة كالمستوى الصوتي، والنحوي، فلو ان متكلماً نطق كلمة Bank التي بمعنى ضفة النهر بمثل ما تنطق به كلمة Bank التي تعني مَصْرِفاً لاختل نسق الاداء ، وفسد المعنى. وكذلك فإن نظم الالفاظ جنباً إلى جنب دون مراعاة للقواعد النحوية لا يؤدي إلى توصيل المعنى(٢) ولكي نفهم عبارة ما لا بد من ان نعرف علاقة الإسناد فيها ، ومعنى كل مورفيم وكل كلمة من الكلمات التي

---

(١) Ibid, PP. 114 - 122.

(٢) Chomsky, Syntactic Structures, Mouton & Com, Paris, 6 th pri, 1966, PP. 95 - 96.

تتالف منها ، ولا يتوقع من النحو وحده ان يفي بكل هذه المعدليات ولا بد من العودة الى علم الدلالة . ولكن علم الدلالة لكي يعرفنا بمعنى كل لفظة لا بد من العودة إلى الاطار التركيبي الذي تتبواه في العادة (١)،فلكي نفهم دلالة كلمة مثل hit في جملة ما يجب ان نعرف اولا" بانها "فعل" يدل على إحداث عمل معين، ويجب ان نعرف موقعها ومعناها المعجمي lexical meaning' وتحررها من الزيادة ، او اشتمالها على لاصقة معينة . ويسمى شومسكي هذا المزيج من المعنى النحوي والصرفي والمعجمي "ببِنْيَةِ المعنى" او"المعنى البنيوي" Structural meaning(٢).

وقد استنتج شومسكي من دراسته لابنية التراكيب دراسة شكلية ومن تحليله للنظام القواعدي، وجود تطابق حرفي بين وظائف القواعد النحوية ووظائف دلالية معينة (٣). وقد شجعه هذا على القول بان اي تغيير في التركيب النحوي يُسْفر عن تغيير في الدلالة ، باستثناء بعض التراكيب مثل الجملة المبنية للمجهول إذا تم تحويلها للمعلوم او العكس كانت الجملتان مترادفتين(٤). وكان شومسكي قد اكد انه قد تكون ثمة عبارتان اصل المعنى فيهما واحد، وهو الذي سماه بجملة النواة kernel اما عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) فقد سبق الى رفض هذه الفكرة منكرا" وجود الترادف في الجمل، وان

---

(١) ibid, P. 104.

(٢) Ibid, P. 104.

(٣) وانظر ترجمة بويلن مزيد للكتاب ص ١٣١ Ibid, P. 101 - 102

(٤) Ibid, P. 94.

الجملتين اذا كان اصل المعنى فيهما واحداً فإننا نجد في الاولى من التزيين والتحسين وإحداث الخصوصية ما لا يكون في الاخرى(١).

لقد وُجِّهَ إلى شومسكي وغيره من القائلين بتلازم المستويَيْن النحوي والدلالي في اللغة نقدٌ شديد، فالنظرية القائمة على ان اللفظة لا بد من ان تناسب التي تليها دلالياً اي ما يعرف بالرّصف Collocation نظرية غير دقيقة. لقد ذهب شومسكي في اركان النظرية النحوية "Aspects of the Theory of Syntax" إلى رفض اي تركيب لا تتلازم فيه سلامة النحو وسلامة المعنى. فهو يرفض عبارة The idea cut the tree كمايرفض عبارة اخرى مثل I drank the bread مؤكداً على تداخل المستويين النحوي والدلالي في الخطاب(٢) ألا انه لم يوضّح لنا اين يظهر تاثير كل منهما في الجملة الواحدة، كما ان الامثلة التي ضربها لا تتفق مع فرضيته بصورة دائمة. فإذا اضفنا افعالاً مثل: ظن، فقلنا: ظنّ جون ان بامكانه ان يشرب الخبز، لما رفض السامع مثل هذا التركيب، بل من المؤكد انه سيعدّه سليماً من حيث المعنى ومن حيث النّحو، فمن التجاوز إذن ان نتمسك بالعلاقة الجوهرية بين معنىٌ اللفظة وموقعها النحوي في اللغة كما يقول بالمر(٣).

ومهما يكن من امر فإنه لا شك في ان العلاقات بين مستويات اللغة جميعاً من صوتية وصرفية ونحوية، تؤثر تاثيراً كبيراً في المعنى. وهذه الشبكة التي وصفها باكسبون بالعلاقات السياقة اضاف

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز في علم المعاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨١، ص ٣٢٥. وقارن بشومسكي: Syutactic Structures ص 94 وللاستزادة انظر = مازن الوعر: قضايا اساسية في علم اللسان، طلاس للطباعة، ص ١٤٣.

(٢) Palmer, Semantics, P. 100.

(٣) Palmer, Ibid, P. 101.

اليهـا عنـاصر اخـرى منهـا اداة النّقل والمتكلّم والمستمع والظروف المحيطة بكل منهما ؛ مما اكّد عليه عالم اللغة الانجليزي جون روبرت فيرث، ففي رايه ان المعنى شيء لا تجوز ملاحظته او تامله خارج العلاقات السياقية المتشابكة ، المعقّدة ، التي تنتظم كلا من الصوتيات phonetics والنحو Grammar والمعجمية Lexicography والدلالة في مزيج يحتضنه شئ هو"سياق الحال"(١) ويستخدم فيرث كلمة Collocation "الرصف" للتعبير عن جانب من الحدث اللغوي وهو الانتظام الافقي التتابعي لعناصر الكلام (٢).وتنسجم آراء فيرث هذه مع الاركان الثلاثة التي قامت عليها نظريته في اللغة وهي الاهتمام بتاريخ علم اللغة ، ونظرية السياق، واخيرا تجسيد اللغة من خلال وظيفتها في السياق مستفيدا من ذلك كله من برتزاندرسل واوجدن وريتشاردز ودراسات مالينوفسكي وغيرهم من رواد المدرسة الانجليزية (٣). وقد مر معنا في السابق ان فيرث لا يجيز دراسة المعنى مستقلا عن مستويات التحليل اللغوي الاخرى، فعملية نطق الالفاظ تتضمن ابراز التمايز الصوتي بينها ، والتركيز في الزيادات او ما طُرح من أصوات الكلمة يميّزها عن غيرها من كلمات اشتقت من الجذر نفسه ،ومن هنا يبرز التداخل بين المستويَيْن الصوتي والصرفي، فلا قيمة لدراسة الصرف بعيدا عن دراسة الاصوات(٤)،وهذا الذي ذهب إليه فيرث تؤيده معظم الدراسات الدلالية ،فلا شك ان السامع حين يسمع كلمة once بحيث يميزها عن كلمة اخرى هي one's يستطيع ان

---

(١) Gordon, A History of semantics, P. 114.

(٢) Ibid, P. 114. وانظر Papers in Linguistics, P. 19.

(٣) Gordon, Ibid, P. 106.

(٤) Firth, Papers in Linguistics, P. 23.

يفهم مراد المتكلم، في حين لو التبس عليه الصوت لما كانت ثمة دلالة، كذلك لو ان متكلما عربيا لفظ كلمة محتال بتقصير الالف بحيث لفظها محتل لافسد على السامع دلالة الكلام. وكان فيرث قد تحدث في بحوثه عن نوعين من المعنى. المعنى الرَّصفي Collocational Meaning والمعنى السياقي. وقد اتضح من دراسة تطبيقية له لاحدى قصائد سوينبرن Swinburne ان المعنى الرصفي هو المعنى الذي ينتج عن العلاقات بين الالفاظ في العبارة، ومدى ما بينها من تنافر او اتساق، يزداد وضوحا من خلال العلائق التاليفية. اي انه المعنى الذي يزداد وضوحا وتحديدا بواسطة اللفظة المجاورة، فكلمة صغير Young تزداد وضوحا إذا اقترنت بلفظة كبير Old.

اما المعنى السياقي فهو المعنى الذي ينتج عن العلاقة الوظيفية للجملة بالسياق الحالي، الذي هو مزيج من السياق الثقافي للغة، والمتكلّمين بها على حدٍّ سواء.(١)

وثمة خمسة مبادئ اساسية تتحكم بوظيفة الكلام، وبها يتضح المعنى، وهذه المبادئ عند فيرث تبدأ بالوظائف الصوتية للفونيمات، وضرورة ان يكون لكل فونيم موقعه المناسب في نطق الكلمة، وطريقته في النطق بحسب ما تحتّمه البنية الصوتية للغة. وثاني هذه المبادئ هو الوظيفة المعجمية لموقع الكلمة في التركيب Lexical Function والثالث هو الصيغة الصَّرفية للكلمة، وهي المتأتّية من إضافة المورفيم الذي يجعل لهذه الكلمة وظيفة تختلف عن وظيفتها قبل إضافة الصوت الزائد، على سبيل المثال، إذا كان الفعل منتهيا

1 - Gordon, A History of Semantics, P. 116.

باللاحقة "d" اوّلا . والرابع: طريقة نُطق الكلام وتنغيمه، والنَّبر الذي يصاحب مقاطع الجملة، وهل هو استفهام او تعجب او إخبار، فلكل نوع من هذا طريقته في الاداء النُّطقي، وهو جزء من حقيقة السياق.

والشيء الخامس الذي يعتمد عليه فهمنا لدلالة الكلام هو مراعاة الجانب الآخر، ونعني به المتلقّي، وما يتم بينه وبين المتكلم من حوار متبادل بالاصوات او الاشارات، وما يدور حوله الكلام من موضوعات، فمعرفة هذه العناصر - جميعا* - تشكل ما يسميه فيرث: سياق الحال Context of Situation، وهو الذي يقترح تسميته بالمعنى.(١) فالمعنى- بكلمات اخرى - شيء يتحقق في تداخل الجوانب اللغوية وغير اللغوية.(٢) وهذا يعني ان فيرث استخدم كلمة المعنى بمدلولها الواسع وليس بمدلولها الخاص. بحيث شملت هذه اللفظة مستويات اخرى من اللغة، كالنحو والصوتيات وما إلى ذلك. ونجده يستخدم لفظة "معنى" ليعني بها احد امرين، اوّلهما: هو المعنى السائد، المتعارف عليه، والثاني يعنى به معنى يمثل وجهة نظره.

ويلاحظ بالمر - من جانب آخر - قصور نظرية فيرث عن التوغل بعيدا* في حقول الدراسات اللغوية، فهي لا تنطبق الا على مجالات محدودة، وامثلته لا تستوعب بالضرورة كل ما لدينا من جُمَل وعبارات، الا أن هذا لا يعني قصور "نظرية السياق" نفسها عن استيعاب جوانب اللغة كافة. ومن الجائز ان لا تكون غاية فيرث تطبيق هذه النظرية على كل معنى في اللغة، وقد كانت اهدافه تتمثل في إرساء مبادئ

---

1 - Gordon, A History of Semantics, P. 115.

2 - Palmer, Semantics, PP. 49 - 50.

هذه النظرية، بحيث تتطور من بعده، وتتكون لها مناهجُ جديدة، تمكننا من مضاعفة جهوده، وتوسيع آفاقه في البحث الدلالي. ولا يستطيع اي باحث - حسب رايه - ان ينكر جهود الباحثين الذي واصلوا تطوير هذه النظرية، متوسّعين في ربط ظاهرة المعنى بعالم التجربة. (١)

ويستخلص الدارس للآراء والانظار السابقة لائمة البحث اللغوي الحديث ان السياق، - دلاليا - يعنى تضافر مستويات الخطاب اللغوي جميعا، بدْءا بالمستوى الصوتي، ثم الصرفي، والنحوي، والمعجمي، وهذه الشبكة من العلاقات الداخلية بين عناصر الخطاب إلى جانب العوامل غير اللغوية، التي لها تاثير في طبيعة الخطاب ومجراه، تُحدّد طبيعة المعنى في الحدث الكلامي، عاما كان او خاصا، فالكلمات والادوات والاصوات خارج هذه الشبكة النسيجية من العلاقات التاليفية لا وظيفة لها ولا يمكن ان تفصح عن المعنى، اللهم الا إذا كنا نعني المعنى المعجمي، وحتى هذا المعنى لا يتحقق بصورة ملموسة الا في موقع اللفظة من هذا النسيج.

وقد حاول علماء اللغة تحديد الوظائف الدلالية للسياق، واختلفوا في ذلك ايما اختلاف، وخلافاتهم هذه وآراؤهم المتباينة والمتعارضة او المؤتلفة اغنت البحث، مما يشجعني - هنا - على استقصاء الوظائف الدلالية للسياق على وجه الاختصار الذي تقتضيه طبيعة هذا البحث.

1- Ibid, PP. 50 - 51.

٣ - الوظائف الدلالية للسياق:-

في مقدمة الوظائف الدلالية للسياق التي تحدث عنها اللغويون إزالة الإبهام عن اللفظ، لا سيما اذا كان هذا اللفظ من الالفاظ التي تؤدي اكثر من معنى، اي مما يسمى بالمشترك اللفظي Homonymy فكلمة Landing مثلاً في عبارة شومسكي The Landing was dangerous كلمة مبهمة، وسبب الابهام هنا ان السامع مضطر إلى اختيار معنى واحد من ثلاثة معان معجمية لهذه اللفظة. وبناءً الجملة لم يوضح المعنى المطلوب، وهو احد هذه المعاني. فاما القول:-

The Landing was high.

فيوضح المعنى لوجود كلمة High وهذا التوضيح مظهر من مظاهر الفهم للدلالة اللغوية أتاحه السياق(١)،وهو توضيح غير قاصر على السياق اللفظي، فسياق الحال يقوم بهذا. فلو اخذنا عبارة بييروتش Bierwisch التي يقول فيها: John was looking for the glasses فاننا لا نعرف ما الذي تعنيه لفظة Glasses، فقد يعنى بها نوعاً من الكؤوس، او يعني بها النظّارات، او يعنى بها عُنْصر الزّجاج الذي يستخدمه العلماء في كتاباتهم العلمية، واختيار أحد المعاني الثلاثة لا يتوقف على الالفاظ الاخرى وانما يعتمد على سياق ثقافي غير لغوي يجتمع عليه المتكلّمُ والمستمع، لما بينهما من معرفة مشتركة بموضوع الحديث.(٢) ولهذا فإن دراسة المعنى وفهمه لا يمكن ان يعتمدا على السياق اللغوي Linguistic Context فقط، وهو الاساس الذي قامت عليه نظرية هاريس Harris البنيوية في

---

1 - Manfred Bierwish, Modern Linguistics, P. 59.

وقد سبق ان تطرقنا الى هذه العبارة في الفصل الاول من هذا البحث.

2 - Palmer, Semantics, P. 47.

اللغة . (١)

ولا يكتفي السياق بازالة الإبهام عن اللفظ، فقد يساعد على إزالة الابهام عن العبارة ، لا سيما ما يعرف بأشباه الجمل. فكلمة havn't في الجملة I havn't seen mary لو انتزعت من هذا السياق لاكتنفها غموض لا حَصْرَ له ، ولكنها في هذه العبارة ، او في اي سياق اخر تستعمل فيه ، تصبح لها دلالتها ومعناها المحدَّدان (٢) ، ولكي تتّضح دلالة العبارة لا بد من معرفة المحذوف ، اي إظهار البنية العميقة Deep Structure بتعبير شومسكي (٣)فلو اخذنا قول الشاعر: (الخفيف).

قالَ لي: كيفَ انتَ؟. قُلْتُ: عليلٌ سَـهَرٌ دائِمٌ، وَهَمٌّ ثقيلُ

لوجدنا ان السياق اغنى عن تكرار الضمير (انا) الذي استوعبته الكلمة السابقة (قُلْتُ).

وقد يُزيل السياق الإبهام عن الكلمة المجازية ، وهنا قد يعتري العلاقة بين الدال، الذي هو اللفظ والمدلول الذي هو المعنى، بعض الغموض، والمعوَّلُ في الإبانة عن ذلك على القرينة المقالية (السياق اللغوي) او القرينة الحالية (السياق المقامي) (٤). فالمجاز والاستعارة عدول بالكلمة عن الاصل الذي وضعت له ، وهذا العدول يرتقي بها من مستواها المعجمي المتداول الى مستوى دلالي جديد يفسره السياق، وهو - اي السياق - يجعل المعنى الجديد افضل اداءً لوظيفة الكلمة . (٥)

---

1 - Ibid, PP. 92 - 93.

٢ - جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق، مرجع سابق، ص ٢١٧.

٣ - المرجع نفسه: ص ٢١٩.

٤ - هدري لوفيفر: اللسان والمجتمع، مرجع سابق، ص ص ١٠٤ - ١٠٥.

٥ - صلاح فضل: النظرية البنائية، مرجع سابق، ص ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

والسياق هو الذي يميط الغموض في كثير من الاحيان عن اللفظة التي نسمع بها للمرة الاولى. فنحن نفسر اللفظة الجديدة اعتمادا على السياق.(١) ولا يقتصر السياق في مثل هذه الاحوال على دور المفسّر، فللكلمة عدة دلالات منها ما هو معجمي ومنها ما هو عاطفي ونفسي وجمالي، والسياق عند فندريس هو الذي يحدد القيمة الحقيقية للفظة في كل الحالات،ويمحو عنها الرواسب القديمة التي لم تعد ضرورية،ولا تتمتع باي قيمة حضورية.(٢)

ومن ابرز الوظائف الدلالية للسياق الحفاظ على حياة الالفاظ، والفرق بين لفظة واخرى اذا كانتا متماثِلَتَيْنِ في الصّورة النُّطْقية. فلكي يعرف المرءُ الفرقَ بَيْنَ اللفظتين لا بد من اللجوء إلى السياق. وقد سمح هذا على الدوام لكثير من الالفاظ ان تبقى دون ان تندثر على الرغم من شيوع استعمال كلمة اكثر من شبيهتها، لاننا نفطر دائما، كلّما اردنا تفسير الكلمة الاولى إلى استعمال الاخرى:(٣) ففي العربية توجد كلمتان متشابهتان لفظا، مثل"نهار" التي تعني نوعا من الطيور، ونهار التي تعني عكس الليل، ففي قول الكاتب "يحل للصائم ان ياكل نهارا" تمييز واضح ملموس لدلالة هذه اللفظة عن اللفظة الاخرى الاكثر شيوعا،والسياق هو الذي اكسب اللفظة وضوحها وازال اللبس لان الصائم لا يحق له ان ياكل في النهار وإنما يحق له ان يفطر على "نهار" وهو نوع من الطير.(٤)

---

١ - فندريس: اللغة، مرجع سابق، ص ص ٢٥٣.

٢ - المرجع السابق نفسه، ص ٢٣١.

٣ - انظر فندريس: اللغة، مرجع سابق، ص ٢٧٣ و Boulton مرجع سابق، ص ص ١٠ - ١١.

٤ - قال صاحب القاموس المحيط: النهار فرخ القطا، او ذكر البوم، او ولد الكروان او ذكر الحبارى، مادة "نهر".

وتطوّر السياقات من عصر إلى اخر يؤدي الى إغناء الالفاظ القديمة النشاة بدلالات جديدة .

وقد ذهب فيرث الى القول بان إغفال العنصر التاريخي والسياقي في دراسة تطور الالفاظ ومعانيها شئ ينطوي على خطا كبير ، ومثاله الذي يوضّح هذا ان كلمة مثل Car كانت في الماضي كلمة شاعرية الاثر Poetical وهي تحريف للكلمة القديمة Chariot التي كانت تعني عربة فاخرة يجرها جوادان، وكان قد استعمل ملتون هذه الكلمة في صورة شعرية رائعة هي: Car of night.

وما حدث للفظة اليوم ضربٌ من التغيير الدّلالي، ومن الناحية الاجتماعية والتاريخية كان التغيير الذي طرا على الكلمة تغييرا غير لغوي، وإنما هو تغييرٌ في الوظيفة . وقد حاول فيرث قراءة رواية Pride and Prejudice في سعي منه لملاحظة العبارات والالفاظ التي كانت مستعملة عند كتابة هذه الرواية ولم تعد دارجة ، وخرج من ذلك بنتيجة مذهلة وهي ان الرواية المذكورة كتبت من وجهة النظر التركيبية Syntactical والاجتماعية بلغة انجليزية قديمة . (١)

فالحياة الاجتماعية ،وتنوّع التراكيب الجديدة ، واختلافها عن النمط القديم ،أدى الى إحداث تغيير دلالي على بعض الالفاظ. ويؤكد هذا ان بعض الالفاظ تشيع في حقبة زمنية معينة ثم تنطمس في حقبة اخرى.(٢) فكلمة "موت" باللغة الفرنسية Mourir تكاد تندثر اليوم

---

1 - Firth, Papers in Linguistics. PP 13 - 14.

٢ - فندريس، اللغة ، ص ٢٨٠.

وتحل بدلاً منها لفظة Passer . والسياق قد يكسب اللفظة لغوياً معنى جديداً ، وهذا ايضاً قد يعود إلى اسباب اجتماعية ونفسية . فنحن نستطيع ان نقول abnormal weather في حين لا نستطيع ان نقول abnormal child. مثلاً .(١)

وقد يحدد لنا السياق الوظيفة الصَّرْفية للفظة ، وكان مر بنا ان بعض الالفاظ تتشابه فيها بِنْيَةُ الفعل والاسم تشابهاً تاماً من حيث صورتاهما النطقيتان.(٢) فكلمة "مختار" مثلاً يستوى فيها اسم الفاعل، واسم المفعول، والمُعوّل في معرفة ايّ البِنْيَتَيْن هي المقصودة موقوف على السياق، فإن قلت "محمّدٌ هو النبي المختار" عرفت ان المختار هنا هو اسم المفعول، في حين لو قلت ليذهب المختار للذهاب وليبق المختار للبقاء لعرفت ان المقصود هو اسم الفاعل،وكلمات مثل يزيد ، ويَنْبُع، وغيرهما تستعمل تارة فعلاً ، وتارة اسماً ، والسياق هو الذي يميز اي البنيتين نريد.(٣)

والسياق يحدّد - إضافة إلى معاني الالفاظ - معاني الجمل، ويرسم لنا حدودها، من اين تبدأ واين تنتهي. ويخبرنا في العادة عن اي قضية تم التعبير عنها سابقاً ان كانت ثمة قضية ، وهذا شيء مهم جداً ؛ لان معرفة ما تم التعبير عنه في السابق يُفسّر الكثير من اللاحق، ويحلّ الكثير من رموزه والغازه . ويساعدنا على القول بان القضية التي كانت مَوْضِعَ الدَّرْس قد تمّ التعبيرُ عنها بموجب نوع معين من الاشارات والمقدّمات غير الكلامية التي نحن بحاجة إليها

---

1 - Palmer, Semantics, P 96.

٢ - انظر: الفصل الاول، ص ١٨ وانظر:-
Langacker,: Language and It'e Structure, P. 75.

٣ - سبق ان عالجنا هذه النقطة في الفصل الاول لذا وجب التنبيه.

لفهم النص(١) ولو اننا اغفلنا مثل هذه الاشارات والمقدّمات لما استطعنا ان نفهم بيت القائل: (الطويل).

سَريعٌ إلى ابنِ العَمِّ يَلْطُم خَدَّهُ وَلَيْسَ إلى داعي النَّدى بِسَريعِ

فالقارئ الذي لا يعرف ما كان قد جرى من حوار بين الشاعر وبين من يعود عليه الوصف لايستطيع ان يفسر وجود الكثير من الالفاظ في البيت مثل اللطم، والندى، وابن العم وغير ذلك. فالسياق هو الذي يُفسّر لنا كثيراً من الاشارات التي تحتويها النصوص. وهذا كثير في تفاسير القرآن الكريم جداً.

واعتماداً على السياق يجري تصنيف الفاظ اللغة في زمر ومجموعات، وهذا ايضاً شكل من اشكال الوظيفة الدلالية له، وقد اتضح ان المعاجم أُلّفت منذُ القديم بناءً على الدور التفسيري الذي يتيحه السياق للالفاظ المتراكمة بعضها تلو بعض. وقد ادى تنوع السياق من حين الى اخر، ومن عصر الى عصر، إلى اللجوء للمبدأ التاريخي المعمول به في بعض المعاجم الغربيّة التي الفت في اوائل القرن الحالي. ففي ضوء ذلك نشا الاهتمام بالتصنيف التاريخي للالفاظ، او بتصنيفها حسب صلتها بالماضي، او بحسب المجاز والاستعارة، او العموم والخصوص.(٢)

واذا درسنا ابنية المعاجم من خلال الوظيفة الدلالية للسياق امكننا أن ندرك اهمية التصنيفات القائمة على مراعاة العلائق

---

١ - جون لايتز: اللغة والمعنى والسياق، مرجع سابق ص ٢٢٢، والبيت في الايضاح: ١١١.

2 - Firth. Paper in Linguistics. P. 8.

السياقية بين الالفاظ(١)، مثل علاقة الانضواء Hyponomy والتعارض Incompatible(٢)، والترادف Synonymy والتضاد Antonomy والمشترك اللفظي Homonymy.

ويذهب بالمر إلى أن معجم اللغة لا بد ان يشمل فصائل من الالفاظ يصنفها الدارسون،واول هذه الالفاظ: المترادف، والمشترك اللفظي، والاضداد، والالفاظ المنفوية تحت غيرها من الفاظ ثم الكلمات المركبة التي يمكن تحليلها الى عناصر تسمى المكونات اللفظية Verbal Components(٣)، اي التركيب المزجي او النحت. وكان سوسير قد ذهب في كتابه "دروس في الالسنية العامة" الى القول بان الكلمات تتضح دلالاتها من خلال العلاقات التي تنشا بينها وبين الالفاظ الاخرى، سواء كانت تلك العلاقات قائمة على التشابه او التضاد، وشبّه ذلك باللون الاسود على السبورة، فهذا اللون يستمد سواده من وجوده إلى جانب مساحات ليست سوداء.(٤)

ومن باب الاهتمام بتصنيف الفاظ المعجم على اسس دلالية ذات علاقة سياقية كالانضواء مثلا ظهر ما يعرف"بنظرية الحقول الدلالية" Fields Theory of Semantics. وهي نظرية تقوم على تنظيم الالفاظ وتصنيفها في علاقة نَسَبٍ ضمن نظام معين يكشف عن وجود ترابط دلالي

---

١ - وهو ان تنضوي تحت مظلة كلمة واحدة عدة كلمات اخرى، مثل (سمكة، قط، طير، حصان)، تنضوي تحت كلمة حيوان. ويسمى احيانا بالترادف الناقص او التضمين الاحادي. انظر: محمد علي الخولي. معجم علم اللغة النظري (مرجع سابق، مادة Hyponomy، ص ١٢٢.

٢ - والتعارض يعني وجود كلمات لا يمكن ان تشير إلى شيء واحد في ان واحد لانها لا تكون معا في نفس الشيء او المكان او الزمان مثل اخضر وازرق. انظر: محمد علي الخولي، المرجع السابق، مادة Incompatible، ص ١٢٨.

3 - Palmer, Semantics, PP. 57 - 91.

4 - Palmer, Ibid P. 72.

بينها. ومثال ذلك، الالفاظ: اب، وام، واخ، واخت، وعم، وخال، فهذه الفاظ تنتمي جميعاً إلى حقل دلالي معين فهي تجمعها علاقة الجنس (ذكر او انثى) وعلاقة القرابة من احد الابَوَيْن. وفي حال تغيب لفظة من هذا الجدول للعلاقات تسمى ثغرة معجمية lexical gap(١)، وفي الانجليزية توجد لفظة واحدة تشير الى العم والى الخال، وهي كلمة Uncle في حين ان في العربية كلمتين هما: "العم"، و "الخال". ويعدّ هذا ثغرةً معجميةً في الانجليزية مقارنة مع العربية، واول من عَمَدَ إلى تنظيم جداول دلالية، واهتم بالالفاظ الدالة على الذكاء في الالمانية هو العالم اللغوي تراير Trier، وقد صنّف ما بين (١٢٠٠) و (١٣٠٠) كلمة تدل على الذكاء.(٢) وقام اللغوي الفرنسي ماتوريه Matore' بتصنيف الالفاظ الفرنسية المتداولة في الإطارين الاقتصادي والتِّقْني.(٣)

ومن ابرز اللغويّين الذين عنوا بدراسة الحقول الدلالية وتصنيف الالفاظ على اسس سياقيّة سبربر Sperber في كتابه "عوالم التفكير" وميرون Milleron في كتابه "المنعطفات اللسانية".(٤)

وعلى الرغم من تنوع الاتجاهات في مجالات البحث في نظرية الحقول الدلالية، وتطورها، الا انها ظلت تقترن على الدوام باسم تراير. (١٨٩٤ - ١٩٧٠) واصبحت هذه النظرية بعد الحرب العالمية الثانية من اكثر نظريات علم اللغة الاوروبي انتشاراً، واتخذت

---

1 - Longman Dictionary of Applied Linguiatics,Lexical Fields P. 164.

2 - Palmer, Ibid, P. 73.

٣ - بيير جيرو: علم الدلالة، مرجع سابق، ص ١٤٠.

٤ - بيير جيرو: السابق، ص ص ١٤٦ - ١٤٧، ولم يذكر المترجم للاسف عنوان الكتاب بلغته.

طريقته في التحليل منهجاً بنى عليه بعض اللغويين الامريكيين.(١) فالمعاجم قبل ظهور هذه النظرية كانت تعنى بمعاني الالفاظ المفردة، ومعاني ما يشتق منها من صِيَغ، ولكن المفردة في راي تراير لا توجد معزولة في اللغة، بل هي جزء من مجموعة الفاظ ترتبط معاً بعلاقة معنوية من غير ان تكون الجذور لهاتيك الالفاظ جذراً واحداً. والعلاقة بين هذه المجموعة من الالفاظ علاقة داخلية Inter - related او علاقة نسب وقرابة اتية من المحتوى Content وليس من النَّسق الاشتقاقي، وكل زمرة، او مجموعة من هذه المجموعات تسمى حقلاً دلالياً Semantic Field.(٢)

ويؤكد الدكتور احمد مختار في كتابه "علم الدلالة".(٣) ان الشبه واضح بين معاجم الحقول الدلالية الحديثة ومعاجم الموضوعات في العربية، وهو يعني بهذا - بلا ريب - المعاجم المبوَّبة، فكلاهما يقسّم الاشياء الى موضوعات، وكلاهما يعالج الالفاظ تحت موضوع واحد تنضوي فيها. وكان العرب قد سبقوا إلى جَمْع الالفاظ المتعلقة بشئ واحدٍ لدراستها، ومن ثمرة ذلك الجَمْع ظهرت رسائلُ، وكتبٌ عدة، ومصنفات لا تَخْفَع لحَصْر، وكان ابرزها واكملها كتاب "المخصص" لابن سيدة الاندلسي (- ٤٥٨هـ/١٠٦٥م).(٤)

يتضح مما سبق ان اللغويين المحدثين عنوا بالسياق في اثناء الكلام على "الدلالة" تداخل المستويات اللغوية، وتشابكها، فالمعنى

---

1 - Gordon, A History of Semantics, P. 67.

2 - Ibid, P. 68.

٣ - احمد مختار عمر: علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط الاولى، ١٩٨٢.

٤ - السابق نفسه: ص ص ١٠٨ - ١١٠. وانظر ابن سيده: المخصص، المكتب التجاري، بيروت، دون تاريخ.

شئ لايمكن تصوره بعيداً عن التركيب الذي يقع في نسيجه اللغوي، وضوح الاصوات الدنيا، وقدرتها على تمييز اللفظة عن غيرها مما يشبهها او يقرب منها، وكذلك وضوح الزيادات الصوتية التي تضفي على اللفظة بعداً اشتقاقياً جديداً. فهذا جزء من المعنى هو المعنى الصَّرفي morphological meaning.

يلي ذلك عامل آخر مهم وهو النَّظْم Syntax، الذي هو اخضاع نَمَط التتابُع في العبارة لما تُمليه قواعد النحو، واستعمال الاحرف، والادوات - حروف المعاني - التي تقوم مَقام الضوابط والروابط في الجمل، وهي التي سمّاها فندريس دوال النسبة، مقابل الالفاظ التي هي دوال الماهية (١). يضاف إلى ذلك مايستصحبه الكلام من ظروف ذات دلالات خارجية، تحيل القارئ او السامع للكلام إلى اشارات سابقة او لاحقة او معاصرة لزمن النطق، او الكتابة.

وهذا كله هو الذي يفهمه اللغويون المحدثون من كلمة "سياق" حين تَرِدُ في مباحث علم الدلالة.

ولهذا السياق وظائف دلالية عدة، وتؤثر هذه الوظائف في طرائق فهمنا للكلام، وفي طرائق وصفنا للالفاظ، ودراستها وتحليلها وتصنيفها في زُمَر او في مَجْموعات. وقد ابدى اللغويون العرب اهتماماً كبيراً بالسياق، إلا انهم لم يصلوا إلى مستوى المحدثين في الجانب النظري، وإن كانوا سبقوا للكثير من الافكار التطبيقية، وهذا مانحاول تبيانه في الصفحات اللاحقة من هذا البحث بإذن الله.

---

(١) فندريس، اللغة، مرجع سابق، ص ص ١٠٥ - ١٠٦.

٤ - السياق والبحث الدلالي عند العرب:-

معروف ان الابحاث اللغوية العربية نشات في احضان الدين، فقد عُني المسلمون اول ماعنوا بتفسير القرآن الكريم، واستنباط الاحكام الشرعية، وقادهم السعي لاستنباط تلك الاحكام من الآيات الى تامل اللغة، والالفاظ، والمعاني، فكان الاصوليون الذين ارسوا قواعد الاستنباط هم اوّل من تحدّث في الدلالة اللغوية. وقد عرفوا الدلالة بقولهم: هي حالة يُلزم العلمُ بها عِلماً بشئ آخر، والشئ الاول هو الدال، والشي الآخر هو المدلول. والدلالة على الشئ إما ان تكون بالعبارة، اي بالالفاظ - كما تُفهم من الظاهر - او بالإشارة (١) ... والظاهر عندهم هو الكلام يظهر المراد منه للسامع بالصيغة نفسها، ويكون مُحْتملاً للتاويل او التخصيص(٢)، فإما الإشارة فهي ما كان محتاجاً إلى التاويل.

وكان قد مر بنا ان الشافعي (محمد بن ادريس) قد احتكم إلى السياق في تفسير النصوص. وتبين أن الكلام منه مايراد فيه الظاهر العام ومنه مايراد فيه العام ويداخله الخاص. فيستدل على هذا ببعض مساخوطب بهِ المخاطَب. ومن الكلام مايكون "عاماً ظاهراً يراد به الخاص وظاهراً يعرف في سياقه انه يراد به غير ظاهره". ويضيف مؤكداً ان بعض الكلام يُبينُ اوّل الفاظهِ عن آخره، وقد يبتدئ ويكون آخرُ الفاظه مُبيناً عن أوّلهِ. (٣)

وضرب الشافعي على ذلك مثالاً: تفسير قوله تعالى: "واسالهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر "... (٤).

---

(١) الشريف الجرجاني: التعريفات، تحقيق فوستاف فلوجل، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥ ص ١٠٩.

(٢) السابق: ص ١٤٧.

(٣) الشافعي: الرسالة (مصدر سابق) ص ص ٥٢، ٦٢ - ٦٣. وانظر الفصل الاول من هذا البحث ص ٥٨

(٤) سورة الاعراف/ ١٦٢.

والسياق عند الغزالي له الدور الحاسم في الكشف عن المعنى، وهو نوعان: اما سياق لغوي "قرينة لفظية" واما سياق حالي "قرينة حالية". فالاول كقوله تعالى: "وآتوا حقّه يوم حَصاده"(١) فقد دلت كلمة حصاده على ان المُراد بحقّه هو "العُشْر" اما قرائن الاحوال فعدّة، منها الإشارات والرموز والحركات وغيرها مما يختص به المشاهدون، فتنقلُ عن الصحابة إلى التابعين بالفاظ صراح، او بقرائن من ذلك الجنس(٢).

وفي موضع ثان، يقول: "اعلم ان كل مفيد، من كلام الشارع، وفعله، وسكونه، واستبشاره، حيث يكون، دليل، وتنبيهه بفحوى الكلام على علة الحكم، كل ذلك بيان"(٣).

وللغزالي نظر دقيق في تحليل عملية الكلام يكاد يتفوّق على دقة المحدثين، فعملية الكلام او الإبانة تقوم على اركان، هي:-

١ - الشئ نفسه.

٢ - ثبوت مثال له في الذهن وهو الذي يُعبَّر عنه بالعلم.

٣ - تاليف صوت بحروف، تدل عليه، وهو العبارة الدالة على المثال الذي في النفس.

٤ - تاليف رقوم تدرك بحاسة البصر دالة على اللفظ، وهو الكتابة، فهي تَتْبَعُ اللفظ، واللفظُ يتْبَعُ العلمُ الذي في الذهن(٤).

---

(١) سورة الانعام/١٤١.

(٢) الغزالي: المستصفى من علم الاصول ١/٣٢٩ وانظر الفصل الاول ص٦٠

(٣) السابق: ١/٣٦٧ وانظر الفصل الاول ص٦٠

(٤) الغزالي: المستصفى من علم الاصول ١/ ص ص ٢١ - ٢٢.

وهذا التحليل لعملية الكلام تحليل دقيق، فهو يفترض المرجع اولا، ووجوده في العالم الخارجي، ثم تتكون صورة مفهومية لهذا الشئ في الذهن، واما اللفظ فهو وسيط بين الشئ وصورته التي في الذهن، وهو المحور الذي يصل بينهما. ويتكون من الحركة بين الشئ والصورة او المفهوم الذهني واللفظ مثلث يقابله مثلث آخر ينطبق على قطره يمثل الحركة من اللفظ إلى الكتابة ثم إلى الشئ كما في الشكل التالي:-

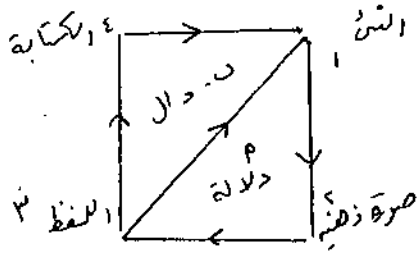

وهذا التحليل لعملية الكلام اوفي نظرنا واكمل من التحليل القائم على مثلث العلاقة بين: الصورة النطقية، والذهنية، والشئ لدى المحدثين:

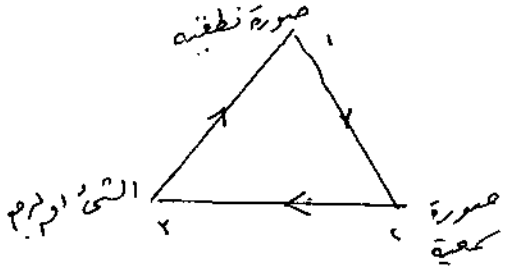

وقد لاحظ الغزالي ان الاخذ بهذه العوامل التي يقوم عليها الحدث الكلامي ضروري لمعرفة المعنى؛ فاشتط في الحديث عن دور المتلقي للكلام ونوايا المتكلم واشاراته مما يدخل في باب الكلام على الدلالة الخارجية التي تحدّث عنها بلومفيلد وشومسكي وفيرث كما مر بنا. والنص الذي اوردناه يوضح اهمية القرائن الحالية في توضيح المعنى. ويزيد الغزالي مؤكدا، ان التركيب النحوي لايتطابق في كثير من الاحيان مع التركيب المعنوي للعبارة. فقد تكون العبارة استفهامية، او قد تكون امرا، ومع ذلك لايفهم منها ذلك،

اذ لابد من النظر إلى القرائن التي قد تجعل الإستفهام تشويقا، والأمر اباحة او تهديدا" (١). ولا شك في ان قوله تعالى: "انكحوا ماطاب لكم" (٢) لايعني الأمر وإنما يعني الإباحة (٣).

وهذه القرائن - سواء كانت لغوية او حالية - هي التي تمكن القارئ والسامع من تمييز العموم عن الخصوص في مُراد المتكلم من الألفاظ. "فقصد الإستغراق - يعني العموم - يُعلم بعِلْمٍ ضروري يحصل من القرائن، وهي قرائن الأحوال من رموز واشارات وحركات من المتكلّم، وتعبيرات في وجهه، وامور معلومة من عاداته، ومقاصده، وقرائن مختلفة لايمكن حصرها في جنس، ولاضبطها في وصف؛ بل هي القرائن التي يُعْلَمُ بها خَجَلُ الخَجِل، وجُبْن الجبان (٤).

وهذا الكلام الذي يقوله الغزالي في القرن السادس الهجري مطابق تماما" - ان لم يكن اكثر دقة - لما يقوله شومسكي وفيرث حول المعنى الذي يتجاوز الدلالات المعجمية والنحوية والصرفية، ويمتد ليشمل مايسمى بسياق الحال، وهو الذي وصفه شومسكي بالمعنى البنيوي (٥).

ويلتفت الأصوليون إلى ان الكلمات قد تنزلق في بعض الاستعمالات عن موقعها الخاص بها في المعجم للإشارة إلى معنى جديد لم تعرف به قبلا"، ولكن هذا التجاوز ليس مقبولا" في اللغة - عندهم" - إلا إذا اقتضى السياق ذلك.

---

(١) الغزالي: المستصفى من علم الأصول ١/٤١٣.

(٢) سورة النساء: ٣.

(٣) الغزالي: نفسه ١ ص ٤١٧.

(٤) السابق نفسه ٢/٤٢. وانظر الفصل الاول من البحث ص ٦٤

(٥) انظر ماسبق، ص٣٩

واقتضاء السياق معناه: "وجود قرينة زائدة تمنع من ارادة المعنى الاصلي"(١) لان الكلمة لا يمكن ان تؤدي معنَيَيْن في العبارة الواحدة، والقرائن اللفظية هي التي تسمح للكلمة الواحدة باداء المعاني المختلفة إذا تغير السياق وتنوع، فالعين للشمس، والذهب، والعضو المُبْصر، والميزان، والاستعمال هو الذي يجعل هذه اللفظة تعني هذا المعنى وليس ذاك. والالفاظ المسمّاة بالأضداد تعبّر عن معانٍ متعارضة كالقُرْء: للطُّهْر والحَيْض، والنّاهل: للعَطشان والرَّيان، والمعوّل في تفسير ذلك كلِّه على القرينة والعُرْف(٢). ولا نجدنا بحاجة إلى التوكيد على ان ما قاله الغزالي في هذا النص قد سبق به فندريس، وجون لاينز، وغيرهما من ان الوظائف الدلالية للسياق هي التي تقوم بتَمْييز اللفظ عن اللفظ إذا كان من المشترك اللفظي، او من الاضداد وغيره.

ويذكر الاصوليون بشئ من التوضيح دور السياق في نقل اللفظة من العموم إلى الخصوص، وذلك بأن يكون اللفظُ أُطْلِقَ اصلاً على شئ عام، مثل "المتكلِّم" تفيد الدّلالةَ على كلّ ناطقٍ بكلام، ثم اصبحت بحسب الاستعمال، تطلق خاصّة على من هو عالِمٌ بعِلْمٍ مخصوصٍ هو علم الكلام" وهذا التغيير مرهون بالتنوع والاستعمال المتداول، وهو المسمى بالمعنى "العرفي" مقابل المعنى الوضعي"(٣).

وقد اوْلى الاصوليون كلاّ من القرائن اللفظية والحالية كل عناية واهتمام لما لهما من دور اساسي في نفي صحّة التاويل الذي ينشأ عن الهوى والغَرَض، فلا يسوغ في نظرهم تاويلُ الكلام المُجْمل لاستنباط الحكم إذا كان يتعارض مع الدّليل الذي هو "السّياق" من

---

(١) الغزالي: المستصفى ١/٣٥٩.

(٢) السابق نفسه ١ ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٣) السابق نفسه ١/٣٢٥. وللتفريق بين مراد الاصوليين بالخصوص والعموم انظر: الشريف الجرجاني: التعريفات (مصدر سابق) ص ١٤٩.

مناسبةٍ، وواقع الحال الذي قيل فيه "(١).

والمثال الذي يضربونه لتوضيح هذه القضية قول الرسول لاحد العرب اسلم وكان زوجاً لاختين: امسِكْ إحداهنّ وفارقْ الاخرى". فقد تأوّل بعضُهم هذا الحديث فقال: اراد بدءَ النكاح من جديد، وفراق الاخرى، ويعقّب الغزالي على ذلك فينفي صحة هذا التاويل لوجود دليل من قرائن الاحوال، وهو ان الإمساك عنى به الاستدامة والاستصحاب، وهذا ما فهمه الصحابة، وتناقلوه. ولو اراد بدءَ النّكاح لذكر شرائط اخرى(٢).

وقد لاحظ الاصوليون ما لاحظه المحدثون من ان السياق بما فيه من "قرائن" قد يغيّر البنية الصّرفية للكلمة فالماضي قد يدل على المستقبل، والمستقبل قد يدل على الماضي لقرائن تدلّ عليه (٣). وهذا نظير قول المؤذن "قد قامت الصلاة" فالفعل قامت يدلّ على الماضي مع ان قرينة الحال تدل على الحاضر.

من جهةٍ اخرى الحّ المفسّرون على اللجوء للسياق لفهم المعاني المُلْبسة في الآيات القرآنية الكريمة، والسياق عند المفسرين ليس مختلفاً عنه لدى الاصوليين. فهو قد يتمثّل في أسباب النزول(٤)، فسبب النزول قد يفيد التخصيص، وقد يزيل الإشكال كما في مثال مروان بن الحكم الذي مر معنا في الفصل الاول(٥) وقد يتمثّل السياق

---

(١) الغزالي: السابق نفسه ٣٨٩/١. والمُجْمل من الكلام هو الذي يحتمل التاويل فلا يكون نصاً قطعي الدلالة، فالنص ضد المجمل، انظر الجرجاني = التعريفات، ص ٢٦٠.

(٢) الغزالي: المستصفى من علم الاصول ٣٨٩/١ - ٣٩٠.

(٣) السابق ٤٢١/١.

(٤) الزركشي: البرهان في علوم القرآن (مصدر سابق) ٢٢/١ - ٢٩.

(٥) انظر = الفصل الاول ص٦٣ والمصدر السابق ٢٧/١.

في مناسبة فواتح السور لخواتيمها،وهو الشيء الذي يتأمّلونه فيما يعرف بعلم المناسبة . فآيات القرآن في رأيهم مترابطة ، ويتعلق بعضها ببعض، واذا كشف المفسّر عن وجوه التعلّق ما بين هاتيك الآيات: انكشف عنها الغموض، وزال عن دلالاتها كلّ لَبْس(١) ، وقد يتمثل السياق لدى المفسّر في نَسق الآيات وما يصل بينها من روابط كالعَطف، والمفادّة التي تظهر في ذكر الرحمة بعد العذاب، والرغبة بعد الرَّهبة (٢)،وحسن التخلّص،وهو الانتقال من مقام إلى مقام آخر من غير ان يُشْعر بالانقطاع(٣) ، وكذلك الترتيب فهو يقدّم الحلول لكثير من الآيات المستعصية على غير الراسخين في صنعة التفسير. ذلك ان الترتيب قد يأتي على النّسق الذي يقتضيه الكلام العادي، وقد يأتي في القرآن لدلالة يحتاج ادراكها إلى بصرٍ بالأمور دقيق. فقد قالوا في قوله تعالى: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت،والى السماء كيف رفعت"(٤) إنه رتب الإبل اولا ثمّ السماء ، ثم الارض ليناسب الإلْفَ والعادَةَ لدى اهل الوَبَر. وثمّة قرائن معنويّة كثيرة اشار إليها(٥) المفسّرون تجعل الآيات الكريمة متعلّقاً بعضها ببعض.(٦)

ولا يستطيع ايّ مفسّر ان يستخرج دقائق المعاني من تراكيب القرآن دون المام بهذا كلّه ، والالحاحُ على هذه الامور لا يعني التقليل من شان الدلالات المعجمية للالفاظ، فقد شرط المفسرون على

---

(١) الزركشي: السابق ١/ص ص ٣٥ - ٣٩.

(٢) السابق نفسه: ١/ص ص ٤٠ - ٤١.

(٣) السابق: ١/٢٣.

(٤) سورة الغاشية: ١٧ - ١٨.

(٥) الزركشي: البرهان ١/٤٥.

(٦) السابق نفسه: ١/٤٧.

من يشتغلُ في تفسير القرآن الالمامَ بالدلالات المعجمية لالفاظ العربية، وعرضها على وجوهِ الاستعمال المتداوَل في الشعر الجاهلي، قال ابن عبّاس: "ما كنتُ ادري ما قولُه تعالى: "ربَّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق"(١) حتى سَمِعْت ابنة ذي يزن الحِمْيَري تقول: افاتِحُك، تعني: اقاضيك". وقال: "ما كنت ادري ما فاطر السموات، حتى اتى اعرابيان يختصمان في بِئْر، فقال احدهما: انا فطرتها"(٢).

واستنباط المعاني من القرآن لا تكفي فيه المعرفة بمتن اللغة، ومحتويات المُعجم، بل لا بدّ من معرفة بالابنية الصّرفية، والقواعد النحوية، والإعراب، فهو "الذي يميّز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلّمين(٣): فلابد من معرفة اساليب اللغة وما يتيحه التوسع فيها من دلالة في العبارة على غير ما يدلّ عليه ظاهرها. واولى من ذلك كلّه ان يعرف المفسّر سياق الكلام، يقول الزركشي في كتابه البرهان: ليكن محط نظر المفسر مراعاة نَظْمِ الكلام، الذي سيق له، وإن خالف اصْل الوَضْع، لثبوتِ التجوّز، ولهذا ترى صاحب "الكشّاف"(٤) يجعل الذي سيق له الكلام معتمداً، حتى كانه غير مطروح(٥). وتشتد الحاجة إلى السّياق عندما يلتبِس المعنى، فهو الذي يزيل الابهام عن المجمل، ويوضّح تخصيص العام أو تقييد المطلق، وهو الذي يحدّد الدلالة المقصودة عند تنوع دلالات اللفظ، وهو - اي السياق من اعظم القرائن

---

(١) سورة الاعراف: ٨٣.

(٢) الزركشي: البرهان ١/٢٩٣.

(٣) السابق نفسه: ١/٣٠١.

(٤) وهو الزمخشري صاحب تفسير "الكشاف" و"اساس البلاغة" وقد مر بنا ذكره.

(٥) الزركشي: البرهان ١/٣١٧ وقد مرت بنا هذه الكلمة في الفصل الاول لذا وجب التنبيه.

الدالّة على مراد المتكلّم، فمن اهمَلَهُ غلِطَ في نظره، وغالط في مناظراته، فانظر إلى قوله تعالى: "ذق انك انت العزيز الحكيم" كيف تجد سياقه يدلّك على انه الذليل الحقير (١).

والسياق هو الذي يدل المفسر على ما حذف من كلمات، فقوله تعالى: "حتى اذا جاؤوها وفُتّحت ابوابها" (٢). دل السّياق على ان الجواب هو وصف ما يجدونه ويلقونه وهو كثير جداً (٣) ولا يوجد حذف في القرآن الا وعليه دليل، وهذا الدليل إما ان يكون قرينة لفظية او سياقية (٤) كما في الآية المذكورة. اما القرينة اللفظية ففي مثل الآية: (وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سليمانَ نِعْمَ العَبْدُ" (٥) فسليمان هو المخصوص بالمدح وحذف لتقدم ذِكْرِه، فهذه قرينة لفظية دلّت على المحذوف.

والسياق يفسر الكثير من الأدوات واحرف المعاني ولهذا عمد المفسرون - في كثير من الاحيان - إلى تفسير القرآن بالقرآن، ومقابلة الآية بالآية.

وقد ذكر ابن فارس (٣٩٥هـ/١٠٠٤م) في كتابه الصاحبي في فقه اللغة امثلة كثيرة على ذلك موضحاً ان مثل هاتيك الايات لا يسوغ تفسيرُها ولا يكتَمِلُ الا بمعرفةِ ما تعلّق بمعناها من آيات(٦). وإذا

(١) الزركشي: البرهان ٢/٢٠٠ - ٢٠١ والآية من سورة غافر: ٨.

(٢) سورة الزمر: ٧٣.

(٣) الزركشي: السابق ٣/١٠٦.

(٤) السابق ٣/١١١ - ١١٣.

(٥) السابق ٣/١٥٩ والآية هي الآية ٣٠ من سورة ص.

(٦) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ص ص ٢٤٠ - ٢٤٢.

كان القرآن يُفَسَّر بالقرآن فإن تفسيرَه يتطلّب ايضاً النظر إلى السنّة، فهي شارحةٌ له وموضّحة، فالأعمال التي قام بها الرسول (ص) تعدّ بمنزلة القرائن اللفظية والحالية المُوضّحة لدقائق المعاني(١).

وسواء كان الأمرُ مع الاصوليّين او المفسّرين(٢) فإن الاجماع على اللجوء للسياق لاستنباط معاني الالفاظ والايات، ظل مزيجاً من النظر التفسيري او البياني او الاسلوبي، ولم يتخذ طابع المنهاج اللغوي الذي يسعى لدراسة الظاهرة اللغوية بمستوياتها المتشابكة من صوتية وصرفية ونحوية، الشئ الذي تصدّى له اللغويون، وقد جاءت جهودهم متزامنةً مع الجهودِ التي بذلها الاصوليّون والمفسّرون، وتواصلت مستمرة إلى قرونٍ متأخرة، وهذا ما نحاول الكَشْفَ عنهُ في الصفحات اللاحقة من هذا الفصل.

(٥) اللغويون العرب والسّياق والمعنى:

ليس ثمة من خلاف في أن الجهودَ اللغويةَ العربيّةَ كانت، في بادئ الأمر، مبعثرةً، لا ينتظمها منهَجٌ مخصوص، ولذلك اختلط فيها الجُهْد المُعْجَميّ بالصوتيّ والنحويّ والصّرفيّ، وقد خالط هذا كلَّه شيءٌ من العناية بالاخبار والروايات والنوادر، ولذلك فإن الدارس حينَ يَنْظُر إلى تراثنا اللغوي يجدُ فيهِ الكثيرَ جدّاً مما لا يقع تحت مسالة العناية بمستويات التحليل اللغوي التي أشَرْنا اليها في غَيْر مَوْضِع من هذا البحث، بعَكْس النَّظر اللغوي الحديث الذي يَسْعى لجَعْلِ العُلوم

---

(١) ابن عبد البر النمري القرطبي: جامع بيان العلم وفضله، دار الفكر، بيروت، دت، ٢/٢٣٣ والمؤلف متوفى سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م).

(٢) للاستزادة، انظر السيد احمد عبد الغفار: التصور اللغوي عند الاصوليين، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط١، ١٩٨١. والدكتور عبد الكريم مجاهد: الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء للنشر، عمان، ط١، ١٩٨٥. ود طاهر حمودة: نظرية المعنى عند الاصوليين، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الاسكندرية، ط١، ١٩٨٣.

اللغوية علوماً وَصْفية دقيقةً منضبطة، كما لو انها فروع من العلوم الطبيعية. والحقّ أن إسقاط مثل هاته النظرة على جهود اللغويون العرب، في القديم، عملٌ جائرٌ، ولا يُسْفرُ الا عن الضَّيْم الذي نُجلّ جهودهم عن ان يكون هذا مآلها. من اجل ذلك لا بد من نظرة جديدة لذلك التراث تستصفي منه افكاراً واضحةً ومحدّدةً حَوْلَ موضوع السياق ودوره في البحث الدلالي.

وقد تلاقت انظار اللغويين العرب مع عدّة مجالات تطرّق اليها البحث الدّلالي الحديث، وهي:-

١ - الاثر الصوتي في الدّلالة.

٢ - تشابُك المستويات اللغوية من صوتية ومعجمية ونحوية وتركيبية (النّظم) فيما يعرف بالعلاقات المتشابكة للنّسيج اللغوي.

٣ - تصنيفُ الالفاظ في زُمَرٍ ومجموعات على اساسٍ سياقي، كالمترادف، والاضداد، والمشترك اللفظي، وتبويبها على اساس دلالي (او موضوعي) وهو ما يُقرّبُ جهودهم هذه من نظرية "الحقول الدلالية" Semantic Fields مع مراعاة الاختلاف في مستويات النّظر.

٤ - بناءُ المعجم العربيّ على أساسِ السّياق التفسيري.

وقد روى انّ الاصْمعي قال: "سَمِعْتُ ابا عمْرو بن العلاء يقول: جاء اعرابيّ إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: السّلام عليك يا اميرَ المؤمنين، كيف تقرأ هذه الحروف (الكلمات): (لا ياكله الا الخاطون)(١)؟ كلنا والله يخطو. قال: فتبسّم اميرُ المؤمنين عليه السلام، وقال: يا اعرابي: (لا ياكله الا الخاطِئون). قال: صَدَقتَ والله يا امير المؤمنين"(٢).

---

(١) سورة الحاقة: ٣٧.

(٢) السرّاج (ابو حاتم): الزينة في الكلمات الاسلامية، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليمبري، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧ جـ١/٧٢.

وقال ابو حاتم السّجِسْتاني (٢٥٤هـ/٨٦٨م): "اللحن يزيل الحرف عن معناه"(١) والروايتان السابقتان تؤكدان ان اللغويين العرب اهتموا بجانب الضَّبْطِ الصَّوتي، ومراعاة ادق التفاصيل في الاصوات وموقع كل صوت؛ فإسقاط مَوْتٍ واختلاف حركةٍ "لحنٌ" يُذْهبُ المعنى، ويوقع السامع في لَبْس،وهذا الذي ذهب اليه ياكبسون في محاضراته عن الأصوات والمعنى Six Lectures on Sounds and Meaning كان ابن السكيت (٢٤٤هـ/٨٥٨م) وغيره من ائمة اللغويين قد تنبّهوا إلى اهميتّه، فالفوا في إصلاح المنطق،وفي الفروق اللغوية،وكِتابُ ابن السكيت "اصلاح المنطق" قام فيه بإحصاء الفاظ اللغة المتقاربة صوتياً، مع ابراز ما بينها من فروق تَدِقُّ عن الملاحظة احياناً، ولهذه الفروق اثرٌ بيّن في الدّلالة، مثل التُّرْب والتِّرب، والجُرْح والجَرْح، والرُّبْع والرَّبْع، وما قارب ذلك.(٢)

وقد اصبحت طريقة ابن السكيت هذه من الطرق المتّبعة في التحقّق من البناء الصوتي للألفاظ، ونظراً لما لهذا الكتاب من قيمة على هذا المستوى اللغوي فقد عَمَد التبريزي (٥٠٢هـ/١١٠٨م) لشرحه وتهذيبه، وإعادة النظر في كثير من موادّه، مع توخي الحدّ الأقصى في ضَبْطِ الألفاظ، واستدراك ما فات ابن السكيت مِنها (٣).وقام ابن الخشّاب (٥٦٧هـ/١١٧٥م) بإعادة شرح الكتاب وتهذيبه،والاستدراك

---

(١) السابق نفسه ١/٧٦.

(٢) ابن السكيت: اصلاح المنطق، تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٥٦، ص ١٤. وقد عالج هذه المسالة د. فخر الدين قباوة في: الفكر العربي، ع٦٠، ص ١١، حزيران ١٩٩٠ ص ص ٤٤ - ٥٥.

(٣) انظر مقدمة المحقق لكتاب التبريزي "تهذيب اصلاح المنطق" تحقيق فخر الدين قباوة، دار الافاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص ٦.

عليه (١)،ولهذا ما له من أثرٍ في إدراج المستوى الصّوتي والتحقّق من دقته في إطار البحث عن المعنى.

والعناية بالضّبطِ الصّوْتي مع ملاحظة الحَركات، وموقع كل حركة منها في بِنْيَةِ الكلمة ، لم يقتصر على هذا النّفر من اللغويين، وانما نجد هذه العناية عامّةً وشاملةً في جُلّ المعجَمات العربية . فقد عُني واضعو هذه المعجمات بضبطِ الالفاظ، وتمييزها عن غيرها من حيث النّطق، واستعملوا كلماتٍ مثل: بالضّم ،او التسكين، او التّحريك، كما عنوا عنايةً شديدةً بضبط عَيْنِ الفعل لأنّ معرفة هذه الحركة ضرورة لتمْييز الكلمةِ عن غيرها من ذوات الأصل المتجانس، فالعُجّة ، بالضم غير "العَجَّة" بالفتح مع ان جذرهما واحدٌ وهو عَجَجَ (٢). وقد يشير واضع المعجم ، توخياً للضّبط الدقيق، وتحاشياً لاي لَبْس، إلى ذكر لفظة مشهورة تُشاكل في ضبطها اللفظة المقصودة بالضبط. فيقول في سَكَنَ مثلاً : من باب "دَخَلَ" وقد يُفَصّل تفصيلاً كبيراً في الضّبط،فيقول في مصدر شنِئَ ما يلي: وشَنْأً بسكون النون والشين مفتوحة ومكسورة ومضمومة . ومَشْنَأً : كمَعْلَم ، وَشَنْآنٌ بسكون النّون وفَتْحِها (٣).

ولاحظ الصوتيون العرب اثر الزيادات الصوتية على الكلمة في تغيير دلالتها وإكسابها معنى جديداً هو المعنى الصّرفي. ومن اوائل الذين تحدثوا عن دلالة "المورفيم" في العربية ، ابو الفتح ابن جني (٣٩٢هـ/١٠٠١م)، وذلك في سياق كلامه على الترتيب الذي يقتضيه تحليل المستويات اللغوية . واشار الى ان علم الصّرف ينبغي ان يوضع

---

(١) السابق نفسه ، ص ٦.

(٢) انظر الجوهري: الصحاح، مادة عجج، وانظر ايضا عبد السميع احمد: المعاجم العربية دراسة تحليلية ، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٧٤، ص ص ٨٤ - ٨٥.

(٣) الرازي (محمد بن ابي بكر): مختار الصحاح، مادة سكن، ومادة شنأ.

اولا في كتب النحو، لانه يتّصل بمعرفة احوال الكَلِم ثابتةً، وهذا أصل لا غنى عنه لمعرفة الاحوال المتنقّلة (١) فإذا خَلَص الباحث اللغوي من تحليل المستوى الصوتي اتجه الى المستوى الثاني ترتيبا، وهو الصّرفي قبل ان يَلِجَ المستوى النحوي.

وقد رأى اللغويون العرب في "الإعراب" وهو احدُ المعطيات الأساسية للنحو شكلاً من اشكال التّمييز الصوتي الذي يطرأ على الكلمات في مواقعها من التركيب، بحيثُ أن اي انحراف في الحركة الإعرابية نطقا او كتابة يعني لَبْسا في المعنى. "فلولا الإعراب لما فَرّق السّامع بين المعاني المتكافئةِ في اللفظ، وبالإعراب يُعرف الخبَرُ الذي هو اصْلُ الكلام، ولولاهُ ما مُيّز فاعل من مفعول، ولا مُضَافٌ من منعوت، ولا تعجّبٌ من استفهام، ولا صَدْر من مَصْدر، ولا نعت من تاكيد (٢).

ويتّضح مدى التداخل بين المستويات: الصّوتي والنحوي والصرفي في النّص الذي ذكره السيوطي حول حركات الاعراب، يقول: فَهُم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني، يقولون: مَفْتَح للالة، ومفْتَح لموضع الفَتْح (٣) فالإعراب به تتميز المعاني، ويُوقَفُ على اغراض المتكلّمين، وذلك ان قائلا لو قال: "ما احسنْ زيدْ"، غيرَ معربٍ لم يُوقَفْ على مرادِه، فاذا قال: ما احسنَ زيدا، او ما أحْسنُ زيدٍ، ابان بالإعراب عن المعنى الذي يريدُه، وللعربِ في ذلك ما ليس

---

(١) ابن جني: المنصف، شرح كتاب التصريف للمازني (مصدر سابق) ١/٤ - ٥ وانظر عبد الكريم مجاهد: الدلالة اللغوية عند العرب، ص ص ١٨٥ - ١٨٧.

(٢) ابن فارس: الصاحبي (مصدر سابق)، ٧٧.

(٣) السيوطي: المزهر (مصدر سابق) ١/٣٢٩.

لغيرهم، فهم يفرّقون بالحركاتِ وغيرها بَيْن المعاني(١).

لقد اصبح واضحاً ان اللغويين العرب نظروا إلى الدلالة من حيث هي نتاجُ التداخل الطبيعي بين مستويات اللغة من: صوتيّ وصرفيّ ونحويّ (إعرابي) وقد سَمّى عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ/١٠٧٨م) هذا التداخل مع التّتابع الافقي للكلام Syntagmatic بالنّظم(٢). فلا يمكن ان ينشأ هذا التتابع بين الالفاظ دون مراعاةٍ لمستويَيْن في وقت واحد،وهما: المستوى الدلالي والمستوى النّحوي فلو "خُلِعَت الالفاظُ من دلالاتها لما كان شئ منها احقّ بالتقديم من شئٍ آخر. ومعرفة المتكلّم لمعاني الالفاظ وكمونها في نفسه ضروري لتسهيل عمليةِ النّطق بها، وتاليف العبارات"(٣).

وقد يوهم هذا الكلام بوجود المعنى خارج التركيب النحوي، الا ان الإمام يتحرّز من ذلك فيؤكد ان الدّلالة تنتج من مزج عناصر الكلام من الفاظ واصوات ومواقع، وقد سمّى هذا كله "وجوه التعلّق"، والاحكام التي هي محصولُ التعلق، فلا معنى للكلمات من حيثُ هي كلمات وإنما المعنى هو الذي يَنْجُمُ عن التاليف(٤)،واذا كان المعنى ضروريا لاستقامة التاليف، والتاليف هو مصدر المعنى، إذ الالفاظ خارج التاليف لا قيمة لها، فإن عبد القاهر يتفق مع شومسكي في التطابق التام بين التركيب الدّلالي للعبارة والتركيب النحوي لها. وهذا يتطلّب ان تكون كل لفظةٍ وُضعت بجانب الاخرى ذات اتساقٍ دلالي

---

(١) السيوطي، المزهر ١/٣٢٩.

(٢) قارن مع مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الاندلس، بيروت، دت، ص ٨٣.

(٣) عبد القاهر، دلائل الاعجاز (مصدر سابق) ص ص ٤١ - ٤٢.

(٤) السابق نفسه، ٣١٦، وانظر، ٣٢٤.

معها (١). ويسمى هذا التطابُقُ نظماً وهو يشمل الاستخدامَ الدقيق للألفاظ، ثم الادوات [دوال النسبة بتعبير فندريس] بالشكل الذي تقتضيه القواعدُ النحوية "علم النحو" فليس ثمة خطأ او جواب في نَظْمٍ، الا وكان مرجعُه خَلَلاً في التركيب النحوي (٢).

وإذا كان التطابُق بين التركيبين الدلالي والنحوي تطابقاً تاماً كما اكد شومسكي، ومن قبله عبد القاهر، فإن ايّ تغيير يتم حدوثه على التركيب او التاليف "النّظم" لا بد ان ينشا عنه تغيُّر في المعنى. فقولك "إن زيداً كالأسد" تاليف نَقل الينا معنى معيناً، ولكن اذا ادخلنا التعديل على ترتيب العبارة، فقلنا "كانّ زيداً الأسد" فإن التعديل الذي طرأ على التاليف، مع بقاء عدد الالفاظ والحروف هو هو، من غير زيادة ولا نَقْص، ادى إلى تغيير في المعنى (٣).

وهنا يظهر الخلاف بين عبد القاهر الجرجاني وشومسكي من حيث ان شومسكي يعدّ هاتين الجُمْلتين مترادفتَيْن لان أصل المعنى فيهما واحد، وهو الذي سماه بالجُمْلة الأساسية، او النواة Kernel (٤)، فقد نفى عبد القاهر نفياً قاطعاً وجود عبارتين مترادفتين؛ إذ نجد في احداهما من التحسين والتزيين وإحداث الخصوصيّة ما ليس في الأخرى (٥).

---

(١) السابق نفسه، ٤٢ و٤٣.

(٢) السابق نفسه، ٦٥.

(٣) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز (مصدر سابق) ص ٢٠٥.

(٤) مازن الوعر: قضايا اساسية في علم اللسان الحديث، ص ١٤٣.
وانظر شومسكي:
Syntactic Structures, P. 94

(٥) عبد القاهر: المصدر نفسه، ٣٢٥.

وقد اكد في غَيْر موضع ترابُط المستويَيْن النحوي والمعجمي، فتصوّره للدلالة والفصاحة مزيجٌ من النسق النحوي والدلالي، ويدلنا على ذلك عرضه لقول امرىء القيس (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)فقد عَمَد إلى تغيير ترتيب الالفاظ والحروف والاصوات ليكشف من خلال ذلك ان اىّ خَلل في نسق من النّسقين يؤدي إلى نوع من الدلالة جديد لم يَخْطر للشاعر نفسِه ببال، فالنّسق النحوي هو الذي يعطي الالفاظ قدرتها على الاداء الدلالي بالوجه الذي يريدُه المتكلم (١). وفي هذا يظهرُ نوع اخر من التطابق بين عبد القاهر وشومسكي، فقد ذهب الأولُ إلى القول بان سلامة التركيب النحوي ضمانة اساسيّة لسلامة المعنى، في حين ذهب شومسكي إلى التّوكيد على ان الجملة التي تقبل نحويا' تُقبل دلاليا' وان العلاقات النحوية بين مكونات الجملة من فعل وفاعل ومفعول وغيره تمثل نوعا' من التطابق بين المبنى والمعنى(٢).

وكان ابو بكر الباقلاني (٤٠٢هـ/١٠١١م) قد سبق للقول بان "متصرفات مجاري النظام" في الكلام هي التي تحدد قيمة اللفظ ودلالته انحدارا' او علوا' ، فلو اخذنا تركيبا' ووضعنا فيه كلمة "صبح" في موضع كلمة فجر، لاختلفت العبارتان، واختلف المعنى فيهما، لان اللفظة قد تَنْفُر في موْضِع وتزلّ عن مكان لا تزلّ عنه اللفظة الاخرى(٣) ويكرّر عبد القاهر هذا الراي في دلائل الاعجاز مؤكدا' ان فصاحة

---

(١) السابق نفسه، ٢٧٧ و٣٧٨.

(٢) انظر دلائل الاعجاز ٣٥٩، وشومسكي، Syntactic Structures,P. 84

(٣) الباقلاني، اعجاز القرآن، تحقيق سيد صقر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٠، ص ١٨٤.

الكلمة تَنْبُع من التركيب، وهي تتعدى مجالَ اللفظة إلى التركيب كاملاً. فقولُ القرآن الكريم "واشتعل الرأسُ شيباً" لا تقتصر الفصاحة فيها على اشتعل بل موصولة بها وبالرأس واداة التعريف، ومقرونة اليهما لفظة الشيب. وهذا ليس وقفاً على الكلام المُسْتعار او المَجاز وإنما هو متّسق في كل أنواع النَّظم (١).

وقد تتبّع عبد القاهر اثر التركيب، وتغيّر العلاقات السياقية فيه بتغير دلالة اللفظ، فثمة الفاظ تؤدي في بعض التراكيب معنى مغايراً لمعناها المعجمي، وهذا ما عبر عنه الاصوليون بعدول اللفظ عما وضع له، الا ان هذا في نظر الجرجاني راي غير دقيق، وقول لا يجوز ان يؤخذ به، لان اللفظ لم يفارق دلالته الاصلية، وإنما الذي اختلف في التركيب هو علاقة الإسناد، كاسناد اليَدِ للرّيح في قول الشاعر: (من الكامل) (٢).

وغداة ريحٍ قدْ كَشَفْتُ وقَرّةٍ إذْ أصْبحت بِيَدِ الشّمال زِمامُها

واللفظة في مثل قولنا "بحْر" عن الرجل الكريم لم تتغير دلالتها الاصلية وانما جُعِلت في معنى "يشبه البحر من حيث كرمه"، فلو أزيل اللفظ عما وُضِع له إزالةً تامة لاصبحت كلمة بحر تعني كرماً وكلمة اسد تعني شجاعاً. وهذا غير ممكن (٣)، وبهذا يكون عبد القاهر قد اكد ان تغيّر السياق الذي توضع فيه اللفظة هو الذي يجعلها توحي بالمعنى الجديد المطلوب على أساس المشابهة. والحقيقة والمجاز في رأيه ليسا في تغيّر دلالةِ الكلمة بل في تغيير علاقاتِ الإسناد،

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز (مصدر سابق) ٣٠٩.

(٢) السابق نفسه ص ٣٣٤.

(٣) السابق نفسه ص ٢٨٠.

وعلاقة الاسناد هي وجود علاقة نحوية طبيعية بين اللفظة والتي تليها او تتقدّم عليها (١).

ولا يختلف ما ذهب اليه عبد القاهر عمّا ذهب اليه ابن جني من حيث ان تغيُّر الإستعمال والسّياق هو الذي يكسب الالفاظ المعاني الجديدة. بيد أن هذا الاتساع كما يصفه ابن جني مشروط بالقرائن اللفظية او الحالية التي تنفي وتمنع ورود المعنى الاصلي للكلمة، وهو ما يُسمّى بالمعنى المُعجمي lexical meaning. فلو قال القائل: "رايت بحراً". وهو يريد بذلك فرساً كان للرسول (ص) لما فهم انه يعني به الفرس(٢). فالتوسع في دلالات الالفاظ لا يمكن ان يتم الا في نطاق من العلاقاتِ والقرائن التي قد تكون لفظيةً او حالية (٣).

ويقسّم عبدُ القاهر الالفاظَ إلى نوعيْن بحسب الدلالة: نوع يعطيك الدلالة: من اوّل سماعِك له او قراءتك إياه، وهو الذي يشبه اللفظ الظاهر عند الاصوليين. ولفظ يعطيك الدلالة لكنه يدلك على دلالة ثانية هي الغرض. فقولنا: خرج زيد، يعطينا الغرض بدلالة اللفظ على معناه الذي يقتضيه الاصطلاح اللغوي، في حين ان تركيباً آخر مثل: "كثيرُ رمادِ القدر" يدلّك على المعنى الذي يقتضيه اهْلُ اللغة، وعلى معنى ثانٍ سماه عبد القاهر معنى المعنى(٤) ويُعرّفُ في مَوْضِع ثان معنى المعنى قائلاً: "المعنى تعني به المفهومَ من ظاهر اللفظ

---

(١) السابق نفسه ص ٣٠١.

(٢) ابن جني: الخصائص (مصدر سابق) ٤٤٢/٢.

(٣) السابق نفسه ٤٤٦/٢ - ٤٤٧.

(٤) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز (مصدر سابق) ص ٢٠٢.

وهـو الذى تمل اليه بغير واسطة ، والثاني" معنى المعنى" ان تعقل من اللفظ معنىً ثم يُفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر (١).

وبهـذا يكون عبد القاهر قد جعل من "النَّظم" بؤرة تلتحم فيها مستويات التحليل اللغوي، بدءا بالمستوى الصوتي الذي عبر عنه بنظم الحروف وتاليفها ومرورا بالتركيب والأسلوب والقواعد النحوية. واذا قارنا هذا بما يقوله المُحْدثون عن السّياق ولا سيما فيرث وشومسكي وياكبسون لالفينا ان عبد القاهر لم يختلف كثيرا عنهم، وزاد على ذلك بان ميّز انواعا من الدلالة او انواعا من المعنى. فهو يُسلّم باهميّة المعنى المُعجمي، الا انه لا قيمة له خارج التاليف. فخارج التاليف تبقى الكلمة صمّاءَ وكانها بلا معنى، ثم ياتي النوع الثاني منه، وهو الذي تستمده اللفظة من موقعها في التركيب، وهو الذي يسميه المحدثون بالمعنى السياقي Contextual meaning. ثمّ النوع الثالث، وهو الذي يُتَوَصَّلُ إليهِ بعد معرفة المعنى الثاني، وهو المعنى التّعبيري او الجَمالي او الاجتماعي الذي وصفه بالفصَاحة والمزيّة، اي هو المعنى الذي تتجسد فيه القيمة الاسلوبية او البلاغية لهذه اللفظة دون غيرها في هذا المَوْقِع دون غيره. وهذا تقريبا يُماثل ما قال به المحدثون حول المعاني المختلفة للفظ. فقد حددوا للكلمة اربع قنوات دلالية سمّوها (المُشْتركات) وهي المعنى الاساسي او المُعْجَمي ثم السّياقي ثم التعبيري واخيرا الاجتماعي او السياقي الحالي، وقد اوضح بيير

---

(١) السابق نفسه ، ٢٠٣.

جيرو (١) ذلك من خلال الرسم.

دلالي	اسلوبي
معجمي ١	تعبيري ٣
سياقي ٢	اجتماعي ٤

فنحن نجد في العمود الايمن وهو العمود الدلالي نوعَيْن من القنوات هما: المعجمية، والسياقية، وفي المقابل ثمة نوعان هما التعبيري والاجتماعي. وقد سُمّيَ العمود الثاني وما تندرج فيه من قنوات دلالية بالمنحنى الأسلوبي. وطبقاً لما ذَكَرْناه يكون عبد القاهر قد توصل إلى ثلاثِ قنوات من أربع هي: المعجمي والسياقي والتعبيري.

وقد عُني غير واحدٍ بشرح نظرية عبد القاهر في المعنى، ورأيهِ في الدلالة وكتاب "نهاية الإيجاز" للرازي كتاب معروف عَمَد فيه الى شرح وتلخيص كتابية دلائل الاعجاز واسرار البلاغة، معبّراً عن فتنة اهل البصر بالبيان بما قاله عبد القاهر (٢).

والحق ان الباحث يستطيع ان يَعُدّ نظرية النظم عند عبد القاهر شكلا من اشكال التوجّه النظري المبكّر للاجابة على الأسئلة المتصلة بكيفية تَكوُّن الدلالة، وصلة التراكيب والقواعد النحوية والاسلوبية باستخلاص المعنى (٣).

---

(١) بيير جيرو: علم الدلالة، (مرجع سابق)، ص ٦٢.

(٢) وقد حقق هذا الكتاب بكرا شيخ امين، وصدر في بيروت سنة ١٩٨٥.

(٣) ينظر محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، مرجع سابق، ص ص ٣٣٢ - ٣٣٩، ود. حاتم الضامن: نظرية النظم، بغداد، الموسوعة الصغيرة، ١٩٧٩، ص ص ٣٩ - ٤٦.

٦ - التصنيف السياقي للالفاظ:

اوضحنا فيما سبق ان السياقية Contextualism هي البحث في المعاني، ومعالجة الالفاظ بطريقة موضوعية، بعيدة عن الظنون والاوهام النفسية التي لاتقع تحت حصر. واوضحنا ان بحوثها في الدلالة لم تخرج عن إطار اللغة من حيث هي لغة، فلا اتكاء على المنطق، ولا على الاساليب السلوكية، بل هي تركيز على دراسة العلاقات المتشابكة بين مستويات اللغة من حيث هي بِنْية (١). وكان فيرث قد عرّف المعنى - بالرغم من صعوبة وضع تعريف دقيق له - بانه الشئ الذي يتحدّد من خلال علاقات اللفظة بما يقابلها من الفاظ وعناصر لغوية في الجملة، فالمعنى ليس محدوداً في ذاته بل هو مجموعة من العلاقات، وهي عند التحليل علاقات تحكمها اعتبارات كثيرة، منها المقارنة مع عناصر اخرى، قريبة او بعيدة، داخل المحيط اللفظي نفسه (٢).

وقد اشار كثيرون إلى ان الالفاظ توجد بينها علاقات سميت بالعلاقات السياقية. فهي إما مترادفة Synonymous او متضادة Antonomous او كلمات مشتركة Homonymous او منضوية تحت كلمة اخرى او تحت سلسلة كلمات Hynonomy او منحوتة من عدّة الفاظ ومركبة منها تركيباً مزجياً Components (٣).

ومثلما اهتم اللغويون العرب بجمْع الفاظ اللغة، وشرحها اهتموا ايضاً بتصنيفها تصنيفاً يراعي مابينها من علاقات. وكانهم لمسوا بهذا دور هذه العلاقات في تحديد الدلالة الحقيقية للفظ؛ وان

---

(١) احمد مختار عمر: علم الدلالة (مرجع سابق)، ص ٧٣.

(٢) السابق نفسه: ص ص ٦٨ - ١٢٦.

(3) Palmer, Semantics, PP. 57 - 71.

دلالة اللفظة خارج هذا النسيج اللغوي المتشابك تظل دلالة مبهمة وغير واضحة. والمعروف أن اللغويين العرب قبل أن يعرفوا صناعة المعجم على يدي الخليل بن احمد الفراهيدي (١٧٥هـ) كانوا قد بداوا جَمْع الفاظ اللغة جمعاً من غير تنسيق(١)، وكانت غايتهم من عملية الجمع هي التدوين والضَّبط، ثم عمل الخليل بن احمد كتاب العين، وسواء كانت فكرة هذا المعجم من ابتكار الخليل نفسه او مقتبسة عن التراث الإغريقي او عن التراث الهندي(٢)، وايا ما كان شان الملاحظات التي قيلت في هذا المعجم(٣) فإنه كان اللَّبِنَةَ الاولى في بناء المعجم العربي، وقد اتّبعت طريقته في الجمع والتصنيف والضبط والشرح عند عدد غير قليل من اللغويين الذين جاءوا بعده. وهم الذين يطلق عليهم في العادة اسم جامع هو:"مدرسة التقاليب الصوتية". ومنهم القالي (٣٥٦هـ/٩٦٦م) صاحب "البارع" والزبيدي (-٣٧٩هـ/٩٨٩م) صاحب "مختصر العين" والصاحب بن عباد (-٣٨٥هـ/٩٩٥م) صاحب المحيط، وعلى بن سيدة (-٤٥٨/١٠٦٥م) صاحب "المُحْكم".

واول من خرج على هذه الطريقة ابن دريد (٣٦٢هـ/٩٧٢م) في "الجمهرة"، والجوهري (٤٠٠هـ/١٠٠٩م) في كتابه "الصّحاح"، والزمخشري (٥٣٨هـ/١١٤٣م) في "اساس البلاغة"، والصنعاني (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) في

---

(١) السيوطي: المزهر ١/٣٠٧. هذا وقد صدر كتاب العين للخليل بن احمد بتحقيق د. ابراهيم السامرائي ود. مهدي المخزومي، عن وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط الاولى، ١٩٨٠.

(2) John Haywood, Arabic Lexicography, Brill, Leiden, 1st Pub., 1960, P. 10.

(٣) للاستزاده = د. عبد السميع احمد: المعاجم العربية، دراسة تحليلية ص ص ١ - ٦٦ وانظر ايضاً = عبد اللطيف الصوفي: اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٦، ص ص ٢٣٢ - ٢٣٣. وانظر = عبد العلي الودغيري: المعجم العربي بالاندلس، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الاولى، ١٩٨٤ في مواقع متفرقة من الكتاب.

"العباب" والرازي (٦٩٠هـ/١٢٩١م) في "مختار الصحاح"؛ وابن منظور (٧١١هـ/١٣١٠م) في "لسان العرب"؛ والفيروز آبادي (٨١٦هـ/١٤١٣م) في "القاموس المحيط". وقد سُمّي هؤلاء اللغويون بالمدرسة الالفبائية لترتيبهم المعجم على الاحرف وليس على مخارجها الصوتية او على التقاليب(١).

وتسمى جميع هذه المعاجم باسم المعاجم المجنّسة. يقول صاحب المحكم في تقديم كتابه "المخصص": "لما وضعت كتابي الموسوم بالمُحْكم مُجنّساً لادلّ الباحثَ على مظنّةِ الكلمة المطلوبة اردت ان اعدل به كتاباً اضعه مبوّباً حين رايت ذلك اجدى على الفصيح المِدْرَه، والبليغ المفوّه"(٢).

وهذه الإشارة تعني وجود نوعين من المعاجم العربية، الاول منهما هو المعاجم المجنسة التي يعنى المؤلف فيها بتتبع الالفاظ التي من جنس واحد، مع ايراد معانيها والشواهد عليها ثم ينتقل إلى لفظة اخرى. ثم المعاجم المبوبة وهي التي يصنف فيها المؤلف الالفاظ في الابواب التي تستعمل فيها او في الابواب التي تندرج فيها موضوعاً بعد موضوع(٣). وهذا النوع من المعجمات ظهر في وقت مبكر، وقد يكون ظهوره زمنياً اسبق من ظهور المعاجم المجنّسة. وهو الذي يضعنا امام فكرة التصنيف اللغوي على اسس سياقية. فقد عنوا بتاليف الرسائل والكتب في الالفاظ المشتركة، والالفاظ الاضداد،

---

(١) للاستزادة انظر = دراسات في المعجم العربي لمحمد احمد ابو الفرج، دار النهضة العربية، دون مكان، ط ١، ١٩٦٦. و د. محمد امين فاخر: دراسات في المعاجم العربية، مطبعة حسان، مصر، ط ١، ١٩٨٤.

(٢) ابن سيدة: المخصص، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٦، جـ١، ص ١٠ والمدره المحقدم في الخطابة، القاموس المحيط، مادة: "دره".

(٣) انظر = عبد السميع محمد احمد: المعاجم العربية دراسة تحليلية، دار الفكر العربي، د م، ط ٢، ١٩٧٤، ص ١٨.

والالفاظ التي تختلف في المباني وتتفق في المعاني: المترادفات(١). وكان هدفهم من ذلك تحقيق المزيد من الضبط، وتمييز اللفظة عن اللفظة من حيث المعنى، وكان معيارهم في التدقيق هو الاحتكام للسياق الذي يتمثل في الاستعمال المألوف، والشاهد المعروف، من بيت شعر، او مثل سائر، او حديث شريف، او آية من الذكر.

ومن بين الظواهر التي لفتت اللغويين العرب ظاهرة "الاضداد" في الفاظ اللغة، والاضداد الفاظ يجري استعمال الواحدة منها للدلالة على شيئين متناقضَيْن، كالاسود والابيض تدل عليهما كلمة واحدة هي كلمة (الجَوْن) والصغير والكبير تدل عليهما كلمة واحدة هي (الجَلَل) ولذا وهم الهمذاني (٣٢٠هـ/٩٣٢م) في كتابه "الالفاظ الكتابيّة" إذ خصص فصلاً منه للاضداد فاورد فيه الفاظاً مثل: الفرح والغم، واليسار والفقر، والمَدْح والثَّلْب(٢)، وهذا مختلف عما عناه اللغويون بالاضداد، وهو يشبه مايدعى بالإنجليزية بالتضاد الكامل، او Complete Opposition antionymy.

وقد اثير جدل عظيم بين اللغويين حول "الاضداد"؛ وكان سبب هذا الجدل نابعاً من الاعتقاد بان اللفظ لاينبغي ان يدل على معنيين لما في ذلك من اللّبس، فالاصل في اللفظة الا تنم إلا على المعنى الذي قرره واضع اللغة (٣).

---

(١) عبد العلي الودغيري: المعجم العربي بالاندلس، مرجع سابق، ص ص ٧١ - ٧٢.

(٢) الهمذاني (عبد الرحمن بن عيسى): الالفاظ الكتابية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ١، ١٩٨٠ ص ص ٢٩٦ و ٢٩٧.

(٣) السيوطي: المزهر، مصدر سابق، ١/٣٩٧ - ٣٩٨.

وكان من نتيجة هذا الجدل ان كثرت المؤلفات في هذا الشان، فقد ذكر ان عدد الكتب التي صنفت في الاضداد، قديماً وحديثاً، تربو على ثلاثة وثلاثين مؤلفاً، اكثرها مفقود، واقلها موجود، وهي تبدا بمصنف الفراء (٢٠٧هـ/٨٢٢م) وتنتهي بمصنفات بعض المعاصرين أمثال احمد بن اسماعيل الحلواني (١٣٠٨هـ/١٨٨٨م)(١). كما ان الجدل حول الاضداد قاد اللغويين للبحث في اثر السياق على تحديد معاني الالفاظ "الاضداد". وذهبوا إلى ان كلام العرب يصحّح بعضه بعضاً، ويرتبط اوله بآخره، ولايعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوعُ اللفظة على المعنيين المتضادَّيْن لما يتقدمها او ياتي بعدها مما يدل على خصوصية احد المعنيَيْن دون الآخر، ولايُراد بها في حال التكلّم والإخبار الا معنى واحدٌ؛ فكلمة جلل التي اطلقت على الكبير والصغير يُفهم من الشاهد التالي إنها تعني الصغير فقط: (الرَّمَل).(٢)

كلُّ شيءٍ ماخلا الموتَ (جَلَلْ) والفتى يَسْعى ويُلهيهِ الأَمَلْ(٣)

ويضيف السيوطي: فلا يُعرف المعنى المقصود منها إلا بما تقدم او تاخر مما يُوضّح تاويله، وكلمة "غسق" من الاضداد إذا استعملوها صَبِوها بلفظٍ يدل على المعنى المخصوص(٤). ولاحظ اللغويون العرب

---

(١) محمد حسن آل ياسين (محقق): رسالة الاضداد للمنذر، مكتبة الفكر، بغداد، ط ١، ١٩٨٥، ص ص ٩ - ١٢. وانظر د. ابراهيم السامرائي: التطور اللغوي، دار الاندلس، ط ٢، ١٩٨١ ص ٩٥.

(٢) انظر = ابن الانباري (ابو بكر محمد بن القاسم/ ٣٢٧هـ): الاضداد، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، ١٩٨٧ ص ٢ ومابعدها. والسيوطي: المزهر ١/٣٩٧ و ٣٩٨. والدكتور حلمي خليل: الكلمة، دراسة لغوية معجمية، الهيئة المصرية العامة، الاسكندرية، ط ١، ١٩٨٠ ص ١٨٤.

(٣) السيوطي: المزهر ١/٣٩٩.

(٤) الاصمعي: الاضداد، ضمن مجموع هفنر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٣، ص ٥.

ان السياق اللغوي لايكفي لتمييز الدلالات المتباينة للألفاظ المتضادة، فتطرقوا إلى السياق الإجتماعي او المكاني. فالاصمعي يؤكد ان كلمة "القُرْء" من الاضداد، وهي عند اهل الحجاز الطُّهر، وعند اهل العراق الحَيْض. واورد ابو حاتم السجستاني ان العرب تستعمل (لَمَقَ) بمعنى محا اسمه من الكتاب، وبنو عقيل يقولون "لَمَقَ" لمن كتبه واثبته (١).

ويستخدم مصنفو كتب الاضداد السياق في كل موضع لتوضيح الفروق الدلالية بين معاني اللفظة الواحدة تبعاً لوجوه الاستعمال. وكلمة (سَرَّ) من الكلمات التي تعني الإخفاء ولكن قوله تعالى: "واسرّوا الندامة لما رأوْا العذاب(٢)" لا مجال للاجتهاد في ان دلالة اللفظة هنا هي الإظهار وليس الإخفاء. (٣)وكلمة (وراء) من الكلمات التي تعني (الخَلْفَ) خِلافاً لِما في قوله تعالى: "وكان وراءَهم ملكٌ ياخذُ كلَّ سفينةٍ غَصْباً" (٤) فالمعنى هنا (قدّامهم) وامامَهُم لانه لاوجه للمعنى اذا قيل خلفهم. وكذلك قول الشاعر لبيد: (الطويل).

فليسَ وَرائي، إنْ تراخت مَنيَّتي لزوم العصا تحنى عليها الاصابعُ

والصّريم لفظ يستعمل في الدلالة على الليل والدلالة على النهار ، ولو سمعنا قول عديّ بن الرقاع: (الطويل).

فلمّا انجلى عَنها الصّريمُ وابصَرَتْ هجاناً يُسامي الليلَ ابيضَ مُعْلَماً

---

(١) السجستاني: المقلوب لفظه من كلام العرب، مجموع هفتر نفسه، ص ١٠١.

(٢) سورة يونس: ٥٤.

(٣) الاصمعي: كتاب الاضداد (المجموع السابق) ص ٢١.

(٤) سورة الكهف: ٧٩.

لما ترددنا في انه يعني الليل الذي ياتي بعده نهار ابيض، في حين ان قول بِشْر بن ابي خازم : (الوافر).

فبات يَقُولُ: أَمْبِحْ ..."ليلُ حتّى تجلّى عَنْ صريمَتِهِ الظَّلامُ

يعني بالصَّريمة النهار الذي تزول عنه الظّلمة[1].

ويعتمد ابن السكيت في كتابه "الاضداد" على السياق لتمييز المعاني المتباينة للاضداد، فمنهجه ان يورد اللفظة الواحدة، ثم يذكر السياق اللغوي الذي تكثر فيه، ويستخرج منه المعنى، او قد يذكر المعنى ثم يَضْرب مثلاً لتوضيحه بإيراد الشاهد، يقول: المسجور المملوء والمسجور الفارغ، قال الله عز وجل: "وإذا البحار سُجّرت"(٢) اي افرغَ بعضُها في بعض. وقال "والبَحْر المَسْجور"(٣). وهو الملآن، والعين المسجورة: اي المملوءة (٤).

وكان مؤلفو كتب "الاضداد" في البداية يُعْنَوْنَ عناية كبيرة بالشروح والإكثار من الشواهد،وتقديم الادلة الكافية على صحة المعاني المتباينة للكلمة، باستعراض ضروب الاستعمال السياقي لها، ولكن المؤلفين في عصور متاخرة عُنوا بالإكثار من المواد، فقد عمد ابن الانباري في كتابه الفَخم: "الاضداد" إلى استيعاب ماجمعه السابقون عليه. اما الصَّغاني (٥٧٧ - ٦٥٠هـ) فقد جمع ماتفرق في كتب الاضداد إلى يومه؛ وبلغت مواد كتابه الذي سماه (ذيلاً على

---

(١) السجستاني: المقلوب/من كلام العرب، المجموع السابق، ص ١٠٥.

(٢) سورة التكوير: ٦.

(٣) سورة الطور: ٦.

(٤) ابن السكيت: الاضداد، من المجموع السابق، ص ١٦٨.

كتاب الاضداد) ستا، وسبعمائة مادة، بعضها ليس من الاضداد (١). واتسم اسلوبه؛ بإسقاط الشواهد الشعرية والامثلة السياقية التي توضح المعاني وتميّز الفروق، متذرعا، بحجة الإختصار التي تتنافى مع الإكثار من الشواهد. وكان هذا هو منهج جمال الدين ابن بدر الدين المعروف بالمنشئ (١٠٠١هـ/١٥٩٢م) في رسالته الموسومة "برسالة الاضداد" فقد عني بجمع المواد وترتيبها ترتيبا، يراعي الحرف الاخير من الكلمة دون ان يُعنى بالشواهد والأمثلة (٢).

وحقيقة الأمر هي ان تصانيف "الاضداد"، لاسيما ماكان منها في زمن مبكر، تعد نماذج تطبيقية توضح لنا المدى الذي يمكن فيه الإعتماد على السياق في تحديد الوظائف الدلالية للالفاظ. واذا نظرنا إلى صنيع اللغويين العرب في هذا الباب وجدناه رافدا، من روافد المعجم العربي صُنفت مواده على اساس سياقي في وقت كان فيه الشغل الشاغل للمعجميين هو تصنيف الالفاظ على اساس اشتقاقي، تستوفى فيه دلالات الجذور والفروع. وقريب من هذا الذي وسم بالاضداد نوع آخر من الالفاظ هو المشترك اللفظي. بل يمكن اعتماد الاضداد، من حيث هي، نوعا، من الالفاظ المشتركة. واللفظ المشترك Homonymy هو اللفظ الذي يمكن استخدامه للدلالة على اكثر من معنى. مثل "العين" تطلق على نبع الماء، وعضو البصر لدى الإنسان، والمال نقدا، من فضة او ذهب، والشخص تكون له وجاهة بين قومه

---

(١) الصغاني هو ابو الفضل الحسن بن محمد بن اسماعيل القرشي له ذيل على كتاب الاضداد لقطرب او قسم هقنر ضمن مجموع كتب "الاضداد". انظر المذكور ص ٢٢١ - ٢٢٢ و ٢٤٨.

(٢) المنشئ (جمال الدين ابن بدر الدين)، رسالة الاضداد، تحقيق محمد حسن آل ياسين، (مرجع سابق) ص ٢٢.

ويجمع العين "اعيان". وهي كثيرة في العربية وفي غيرها من اللغات جدا (١).

وتعود عناية اللغويين العرب بالمشترك اللفظي إلى اول القرن الثالث الهجري، فقد الف ابو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ/٨٣٨م) كتابا في المشترك سماه الأجناس من كلام العرب(٢).

والف ابو العميثل (٢٤٠هـ/٨٥٤م) كتابا فيما اتفق لفظه واختلف معناه، ضم نحو ثلاثمئة كلمة. واما ابو العباس محمد بن يزيد (المبرد) (٢٨٥هـ/٨٩٨م) فقد الف كتابا في المشترك اللفظي من كلمات القرآن، سماه: "ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد (٣)". وينسب إلى اليزيدي كتاب في هذا النوع من الالفاظ. كما ينسب للأصمعي كتاب موسوم بما اتفق لفظه واختلف معناه (٤). وفي القرن الرابع ظهر كتاب كبير الحجم لأبي الحسن علي بن الحسين

---

(١) ابن الدقيق النحوي: اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ١٩٨٥، ص ص ١٠٧ - ١٠٨.

وانظر - Palmer, Semantics, PP. 57 - 71.

وراجع ماسبق ان ذكرنا في هذا الفصل من تحديد السياق للمعنى في الالفاظ المشتركة وتعليقات هنري لوفيفر، وفندريس، وسواهما على ذلك، وانظر ايضا = ابن جني: الخصائص، (مصدر سابق) ٢/٩٣.

(٢) يقع الكتاب المذكور في ١٥٠ كلمة وقد طبعه امتياز علي مرش في بمبي (الهند) عام ١٩٣٨.

(٣) القفطي: انباه الرواة: ٣/٢٥١ و ٢٥٢.

(٤) القفطي: انباه الرواة، تحقيق ابي الفضل ابراهيم، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، ٢/٢٢٥ و جـ ٢/٢٠٢.

الهنائي المصري المنبوز بكراع النمل(١) سماه : "المُنَجَّد في اللغة". او "المنجّد فيما اتفق لفظه واختلف معناه"(٢).

على ان كتاب كراع غريبٌ فهو مع اشتماله "المشترك اللفظي" إلا انه من المعاجم المبوبة وفقاً للموضوعات. وقد بلغ عدد الكلمات فيه اكثر من تسعمائة كلمة. نضّدها في ستة ابواب: الأول منها لذكر اعضاء البدن من الراس إلى القدم. والباب الثاني في ذكر الالفاظ التي يدل بها على اصناف الحيوان من سباع وبهائم وهوام، والباب الثالث للالفاظ الخاصّة بعالم الطير من جوارح وغيرها. والباب الرابع لذكر الالفاظ المتداولة في السلاح والخامس في ذكر الالفاظ الدالة على السماء وما يليها من نجوم، والسادس في الارض وما عليها. حتى اذا ما انتهى من الابواب المذكورة شرع في ذكر الالفاظ المتشابهة في الجنس مع اختلافها في المعاني ورتّبها على حروف المعجم في ثمانية وعشرين بابا"(٣).

ولتوضيح طريقة كراع في معالجة دلالات الكلمة من المشترك اللفظي لابد من ان نورد مثالاً، وليكن مثالنا هنا كلمة (يَد) فقد اوردها ضمن تعديده للالفاظ المتصلة بجسم الإنسان وتشريحه، فبعد ان استوفى الفاظ الراس والوجه هبط إلى العنق والمنكِبَيْن ثم الاطراف العليا ومنها اليد.

---

(١) توفي عام ٣١٠هـ. وانظر في اختلاف اسمه بغية الوعاة (مصدر سابق)، ٢/١٥٨.
وانباه الرواة للقفطي، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، ٢/٢٤٠.

(٢) كراع النمل، المنجد في اللغة، تحقيق د. احمد مختار عمر ود. ضاحي عبد الباقي، عالم الكتب، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٨، ص ٢٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٢٩.

وهذا التدرّج في ذكر الالفاظ مختلف شكلا* وموضوعا* عن تاليف المعاجم التي يُعْنى فيها المؤلفون بإحصاء الالفاظ المشتقة من جذر واحد مع ذكر دلالاتها. ففي مادة (يد) يتطرق كراع للدلالات المختلفة لهذه الكلمة. فيقالُ - مثلا* - هم يَدٌ على من سواهم، اذا كان امرهم واحدا*. بينما تعني كلمة يد في قولهم: "اعطيته مالا* عن ظَهْر يد" العطاء تفضّلا* لاعن دَيْن ولا بَيْع ولا إقراض ولا مكافاة. ثم يذكر قولهم: ثوبٌ قصيرُ اليد، اي انه لايصلح ان يُلْتحف به. واليد قد يكون معناها الإحسان، واليد تاتي بمعنى الغِنى والقُدرة. عليه يد، اي: قدْرَة. ومن الشواهد التي تدل على معنى الإحسان لليد قول الاعشى (من الطويل).

فَلَئِنْ اذكرَ النُّعمانَ إلا بِنِعْمَةٍ فإن لَهُ عِنْدي يديّاً وانْعُما

ولا آتيه يَدَ الدهر، يعني: الدَّهر كلّه. ولقيته اول ذات يَدَيْن اي اول كل شئ. ويقال: يَدُ القوس: اعلاها (١).

والملاحظ ان ماعُني به كراع هو تعداد المعاني المختلفة للفظ الواحد بالتركيز على ظاهرة لغوية هي الاستصحاب. فإذا صَحِبَت اللفظة لفظا* معينا* انزاحت عن المعنى المعجمي الاصلي Lexical Meaning للدلالة على معنى جديد هو المعنى السياقي Contextual Meaning. فإذا اختل هذا الاستصحاب ولازمت اللفظة لفظةً اخرى اعطت دلالة جديدة، وعلى هذا فإن المعنى الذي شُغل به كراع ليس المعنى المعجمي وإنما هو المعنى السياقي، دون ان يفرق في ذلك بين حقيقة ومجاز كما هو شان الزمخشري في الاساس.

---

(١) كراع النمل: المصدر السابق نفسه، ص ص ٤٦ - ٤٧.

واذا كان المشترك اللفظي والاضداد قريبين من بعضهما من حيث ان اللفظة المشتركة يمكن ان تكونَ في الوقت نفسه من الاضداد، فإن الترادف Synonymy يجوز بنا هذا الحَيّز من احوْاز المعجم إلى مجال من البحث جديد، ذلك لانه اذا كان ثم اتفاق بخصوص المشترك والاضداد، فإن الترادف شئ اختلف فيه، فاقرّ به بعض، ونفاه بعض من ائمة البحث اللغوي(١).

ويكاد يكون بدهياً ان الترادف الكامل غير موجود، او نادر الحدوث في اللغة جداً، فهو ترف لايمكن للغة ان تقبله بسهولة. فالكلمات المترادفة تماماً هي تلك التي يمكن ان تحل إحداها مكان الاخرى في اي سياق من غير فَرْق. وهذا النوع من الكلمات قليل في اللغة جداً، وحتى لو وقع مثل هذا الترادف فإنه سرعان ماتظهر فروق معنوية، دقيقة، بينها، بحيث يصبح كل لفظ منها مناسباً لاستعمال معيّن(٢). وهذا الراي الذي يقول به احد علماء الدلالة المعاصرين كان قد سبق الى الكلام فيه والتوكيد عليه ابو هلال العسكري (٣٨٨هـ/٩٩٨م) احد منكري الترادف في العربية. والراي عند ابي هلال ان المعنى اذا أشير إليه بإشارة عرف منها فإن الإشارة إليه بإشارة اخرى من باب التزيّد، "وواضع اللغة حكيم لاياتي فيها بما لايفيد". ثم يضيف: "فكل اسمين يجريان على معنى من المعاني، وعين من الاعيان، في لغة واحدة، فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف

---

(١) السيوطي: المزهر ٤٠٧/١ وقد عقد فصلاً بشان خلاف اللغويين حول وجود الترادف وإنكاره، واورد فيه اقوال كل فريق منهم.

(٢) نقلاً عن: احمد مختار عمر، علم الدلالة (مرجع سابق) ص ٢٢٦، والراي لستيفن اولمان.

مايقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني منهما فضلاً لايُحتاج إليه"(١).

فالألفاظ مثل: "العقل واللب، أو المعرفة والعلم، أو العمل والفعل، والكَلْم والجُرح، معطوفاً احدهما على الآخر، إنما جاز هذا فيهما لما بينهما من الفروق"(٢). ويلجأ ابو هلال العسكري إلى السياق اللغوي في تبيان الفرق الدلالي الدقيق بين هذه الألفاظ. فالجَحْد والإنكار، وهما كلمتان زُعم انهما مترادفتان، بينهما فرق، وهذا الفرق يتمثل في درجة تخصيص تلازم الجَحْد اكثر من الانكار، وذلك ان الجَحْد هو إنكار الشئ البين الذي تقوم عليه الأدلة، كقوله تعالى: "بآياتنا يجْحَدون"(٣) والإنكار يكون لما خَفيَ، كما في قوله تعالى: "يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها"(٤) فجعل الإنكار للنعمة لإمكان خفائها والجحد لإنكار الشئ مع العلم به (٥).

ويضم كتاب الفروق في اللغة لأبي هلال ثلاثين باباً استوفى فيها الألفاظ التي قيل انها من المترادف، ويتكئ في معالجته لدلالات هذه الألفاظ على السياق اللغوي لإبراز الفروق اللطيفة في المعاني تبعاً لوجوه الإستعمال.

والاتفاق على وجودِ الترادفِ في العربيّة اوضحُ من الاختلاف عليه، وأقوى. والّف فيه غيرُ واحدٍ من اوائل اللغويّين. كالاصمعي، وابي

---

(١) ابو هلال العسكري: الفروق في اللغة، تحقيق لجنة احياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٠، ص ١٣.

(٢) السابق نفسه، ص ١٣.

(٣) سورة فصلت: ١٥.

(٤) سورة النحل: ٨٣.

(٥) العسكري: السابق نفسه ص ٣٧.

عبيد ابن سلام (٨٣٨/٢٢٤م) وابن السكيت وغيره كثير (١).

ومن المحدثين الذين اهتموا بالترادف الشيخ ابراهيم اليازجي الذي الف كتاباً سماه: "نجعةُ الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد" (٢). والمترادف اما ان يكون لفظاً مفرداً مثل: البُرّ والحنطة، واما ان يكون مركباً. والعناية بالالفاظ المركبة هي التي تغلّبت على اللغويين العرب،ويُعرّف الرماني الترادف بقوله: هو أن ترد في المعجم ألفاظٌ متفقة معنىً، مختلفة لفظاً ومبنى. وهذا هو مذهب ابن السكيت في كتابه "تهذيب الالفاظ"، ومذهب الهمذاني "في الالفاظ الكتابية"، ومذهب قدامه في "جواهر الالفاظ". فإذا وقفنا عند مادة (مدح) في كتاب الرماني: "الالفاظ المترادفة المتقاربة المعنى" لوجدناه يذكر الفاظاً بمعناها هي: قرّظ، اطرى، زكّى، مجّد.

---

(١) صدر كتاب الاصمعي بتحقيق ماجد الذهبي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦. ومن الكتب التي صنيت بعدا "تهذيب الالفاظ" لابن السكيت، والالفاظ الكتابية للهمذاني (٣٣٧هـ) وجواهر الالفاظ لقدامه بن جعفر (٣٣٧هـ) والف الاصفهاني (٣٦٠هـ) كتاباً باسماء الدواهي، والف بن خالويه (٣٧٠هـ) كتاباً في اسماء الاسد، وكتاباً آخر في اسماء الحية، والف الرماني (٣٨٤هـ) كتاباً اسماء الالفاظ المترادفة المتقاربة المعنى. ولابن جنى (٣٩٢هـ) في كتابه "الخصائص" فصل في تلاقي المعاني على اختلاف الاصول والمباني ٢: ١١٣ - ١٣٣ ولابن سيده (٤٨٥هـ) عناية خاصة بالمترادف في كتابه "المخصص" والف الفيروز ابادي كتاباً في اسماء الخمر سماه: "الجليس الانيس في اسماء الخندريس" الفه سنة ٧٧٨هـ ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية في القاهرة، انظر: عبد السميع احمد، المعاجم العربية، مرجع مذكور ص ١٢٢. كما ان للفيروز ابادي كتاباً آخر سماه: "الروض المسلوف فيما له اسمان إلى الوف". وهو كتاب في المترادف، انظر السيوطي: المزهر ١/٤٠٧.

(٢) مكتبة لبنان، بيروت، ط ٣، ١٩٨٥.

وبوّب الرماني كتابه ابواباً بحسب المعاني، فيخصص باباً (١) للعطيّة والملة، ثم يورد الالفاظ التي تقع في هذا المعنى مثل: وصل، رفد، حَبا، اجدى، أعطى، مَنَح، أسدى، أنال، اجرى عليه، نَحَلَهُ، وهكذا (٢). وهذا النوع من المعجمات قل ان يعنى فيها اصحابها بالشواهد لأن الدلالة متفق عليها والتمثيل ياتي بهدف تمييز الفروق كما هو الشان في كتب "الاضداد"، وكتب "الفروق"، ونستثني من ذلك ابن السكيت الذي عني في كتابه "تهذيب الالفاظ" بالامثلة والشواهد، وقد تكون من القرآن، او الشعر، وقد يسترسل فيذكر قصصاً ونوادر كالتي يذكرها في مادة (صُوَار) وهي الريح الطيّبة (٣).

اما كتابا قدامة بن جعفر والهمذاني، فيعنيان عناية خاصة بما يمكن أن تسمى "السجلات السياقية". Registers فإلى جانب اهتمام قدامة بإيراد الالفاظ المختلفة التي تدل على معانٍ متفقة مؤتلفة (٤) فإنه يصنف التراكيب والعبارات الدالة على المعاني المتفقة التي يجري تداولها في موضوعات معينة؛ تيسيراً على الكتاب الذي ينشئون الرسائل. فعبارات مثل شَعَب الصَّدع، ورأب القطع، ومثل سَدّ الثلمة، وكشف الغمة: عباراتٌ مترادفة، وهذا غير دقيق، وإنما يصحّ أن يُقال ان مثل هذه العبارات يمكن أن تستخدم في

---

(١) الرماني (ابو الحسن علي بن عيسى): الالفاظ المترادفة، تحقيق فتح الله المصري، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط ١، ١٩٨٨ ص ٥٩.

(٢) السابق نفسه، ص ٥٥.

(٣) ابن السكيت: تهذيب الالفاظ، عني بضبطه وتحقيقه الاب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٨٩٥ ص ٤٩٣ - ٤٩٤.

(٤) قدامة بن جعفر: جواهر الالفاظ، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥ ص٢.

سياق المزاوجة والتكرير توكيداً للمعنى الواحد بغير صورة، ولكنه الى جانب ذلك يهتم بالالفاظ المفردة، فيورد في معنى الكسر الفاظاً مثل: القَصْم والفَصْم والحَطْم والهَشْم (١). وهذا ايضاً محتاج إلى بيان. واذا عُرفت آراؤه على منهج العسكري في الفروق لتبين ان كثيراً مما اورده على أنه مترادف ليس مترادفاً فعلاً، وإن كان يندرج في سياق دلالي وتعبيري اجتماعي واحد.

ويوضح الهمذاني هذا الشان توضيحاً اكبر، إذ يقول في صدر كتابه "فإنّ كَتَبَ عدة كتبٍ في معنى تهنئة او تعزية او فَتْحٍ او وعد او وعيد او احتجاج او جدل او شكر ... الخ". أمكنه تغيير الفاظها مع اتقان معانيها، وان يجعل مكان "لمّ الشعث" "رَتْق الفتق"، و"شعب الصّدع"، وهذا قياس ما سواه من ابواب الفاظ هذا الكتاب(٢). وهذا يؤكد ان ماكان يعنيه بالدرجة الاولى هو ان يصنف العبارات التي تصلح لاستعمالها في المكاتبات حسب الموضوعات التي يهتم بها كتاب الرسائل الإخوانية والديوانية، لتمكينهم من الحصول على ثروة او ذخيرة من الالفاظ والتراكيب التي يمكن استبدال بعضها ببعض، لغايات اسلوبية، فالترادف التام غير وارد ابداً في ذهن الهمذاني، ولا في ذهن قدامة، وامثاله ممّن ألفوا في هذا الشان.

---

(١) قدامه بن جعفر: المصدر السابق نفسه، ص ٨.

(٢) الهمذاني: الالفاظ الكتابية (مقدمة المؤلف) ولم تذكر فيها ارقام الصفحات، وكان قد سبق التعريف بالمصدر في هذا الفصل.

وحقيقة الامر ان الترادف في اللغة ظاهرة يصعب ان ينكرها المرء، كما يصعب ان ينكر الاضداد، او المشترك اللفظي، فالمعجم العربي اعتمد،فيما اعتمد عليه في تفسير الالفاظ، وشرح المواد شرحاً معجمياً ، على الترادف. وقد ظهر هذا في كتاب العين للخليل بن احمد فكان يذكر اللفظ ويذكر معانيه المختلفة ثم يذكر علاقة اللفظ بالآخر. فكلمة (عدّ) مثلاً معناها حَسَبَ. ثم يذكر المعاني الاخرى للكلمة وفقاً لوجوه الاستعمال(١). فالرّديف استخدم في شرح الكلمة كما استخدم المغاير او النقيض (عكس كذا)(٢).

وسبق ان اشرنا في هذا الفصل عند الكلام عن الوظائف الدلالية للسياق إلى ان اللغويين اهتموا بدراسة الكلمات التي تندرج في سياق دلالي مخصوص، وسمّوا كل سياق منها حقلاً دلالياً Semantic field، وشاعت في النصف الاول من هذا القرن نظرية الحقول الدلالية التي ارتبطت بعالم اللغة الالماني جوست تراير Jost Trier (١٨٩٤ - ١٩٧٠) وهذه النظرية تتناول بالدراسة مجموعات من الالفاظ تنتظمها علاقة خاصّة بمجال معين يسمّى حقلاً (٣). كما اشرنا في موضع ثان، إلى الاهتمام بنوع من الالفاظ تنضوي معاً تحت جنس معين من الالفاظ، او تحت مظلة كلمة معينة، فالفاظ مثل سمكة وقط وطير وحصان تنضوي جميعاً تحت لفظة "حيوان". وهذا هو الذي يعرف بالانضواء hyponymy(٤).

---

(١) الخليل بن احمد: كتاب العين، مادة (عد) وانظر - عبد السميع احمد: المعجم العربي دراسة تحليلية. (مرجع سابق) ص ٣٤ و ٣٧.

(٢) د. محمد احمد ابو الفرج: دراسات في المعجم العربي في ضوء علم اللغة الحديث، (مرجع سابق) ص ١٠٣.

(3) Gordon, A History of Semantics, P. 67.

(٤) محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري (مرجع سابق) مادة hyponymy ص ١٢٢.

وقد شُغل اللغويون العرب بهذين النوعين من البحث، فعلاوة على انهم اهتموا بتصنيف الالفاظ ذات العلاقات القائمة على التشابه او التطابق الدلالي او الالفاظ القائمة على التضاد الدلالي، او الالفاظ المشتركة التي تتباين معانيها. بتباين السياق، اهتموا بتصنيف الالفاظ التي تندرج في باب واحد, من ابواب المعاني، او التي تلتقي في علاقة ما كالارتباط بجسم الإنسان، او النبات، او الفَرَس وهذا قريب مما يسمى بالحقول الدلالية (١). وقد زاد العرب على ذلك بان شغلوا ايضاً بتصنيف الالفاظ التي يكثر تداولها في نوع مخصوص من الكلام والكتابات.

وللتدليل على قيمة هذا النوع من التصنيف للالفاظ يكفي ان نُذكّر بان عدد ما صُنف من كتب في "خلق الإنسان" وحده زاد عن خمسة واربعين مؤلفاً ومصنفاً اكثرها مفقود (٢). ويرجع اول هذه المصنفات إلى القرن الثاني الهجري، وهو مصنف ابن كركره (١٨٢هـ - ٧٩٨م) (٣).

والحق اننا لو اردنا استقصاء المؤلفات التي صنفت في هذا لطال بنا الأمر، واتسع المجال، بما لايحتمله هذا البحث، وتحفل كتب

---

(١) احمد مختار عمر: علم الدلالة، مرجع سابق، ص ص ١٠٨ - ١١٠.

(٢) احمد خان (محقق): كتاب خلق الإنسان لابي محمد الحسن بن احمد بن عبد الرحمن، معهد المخطوطات، الكويت، ط ١، ١٩٨٦ ص ص ٨-١٠.

(٣) انظر ابن النديم: الفهرست، ص ٦٨ والقفطي: انباه الرواة ٢٦٢/١ وكان من اوائل من صنفوا في ذلك ابو شروان العكلي (٢٠٠هـ/٨١٥م) وابو عمر الشيباني، وكراع النمل - كما مر بنا - وابو علي القالي الذي ذكرت له كتب في "الإبل" و"خلق الإنسان" و "الفاظ الخيل وصياتها". وابن قربال (٤٠٣هـ/١٠١٢م) من الإندلس وضع رسالة في الفاظ "الاتواء" وابو عبيد البكري وضع كتاباً في الفاظ النبات، والزجاج له كتاب في "خلق الفرس" ولابي زيد الانصاري (٢١٥هـ) والاخفش سعيد بن مسعدة (٢١١هـ/٨٢٦) والسجستاني عدد غيرقليل من الرسائل والمصنفات التي لو جمعت لكونت معجماً ضخماً في الفاظ الطير والنبات والوحوش والنخيل والسلاح والحشرات والزرع فضلاً من خلق الإنسان. وانظر القفطي: ٢٤٠/١ و ٢٤١ و ٢٠٠ و ٣٥/٢ و ٤٢ و ٦٢.

التراجم والطبقات بالكثير من اسماء الكتب التي الفت في هذا الشان.

ونستطيع أن نقف عند بعض الأمثلة من هذه الكتب، فمن هذه المصنفات كتاب "خلق الإنسان في اللغة" لأبي محمد ثابت بن ابي ثابت اللغوي(١) فقد وعى بن ابي ثابت كل ماذكر من الفاظ في كتب المتقدّمين عليه في هذا الموضوع، من امثال الاصمعي وغيره. وجعل كتابه هذا في ابواب استهلها بباب المراة الحامل، ثم الجنين في اطواره، إلى حين "الولادة. ثم شرع يستقصي - بعد ذلك - الالفاظ التي تصف الإنسان، وتسمى اجزاءه، فهناك باب للراس، وباب لمنابت الشعر وكثرته، وقلته، وتفرقه، ثم الشيب ونعوته، والوان الشعر.ثم باب للاذن، وآخر للوجه والحاجب والعين. وباب العين مقسّم إلى ابواب منها باب غؤور العين وعيوبها، وباب ما استُحسن في العين من الصفات. وقد يتجاوز بن ابي ثابت مظهر الإنسان الخارجي إلى تسمية بعض الأجزاء التشريحية كالعظام والكبد والمعدة والمرارة وغير ذلك(٢).

فهذا التصنيف الذي سلكه المؤلف ياخذ بمبدا انضواء الالفاظ تحت مظلّة كلمة واحدة هي الإنسان. ثم نجده يسلك في ذلك سبيل من يستقصي الفروع فبعد أن يذكر العين وهي اسم عام ينتقل إلى اجزائه، ويذكر الوجه وهو اسم عام ثم ينتقل إلى أجزائه، وعلى هذا نجد المؤلف يتسلسل في تتبع هذه الالفاظ التي تستخدم في مجال معنوي واحد هو وصف الإنسان.

---

(١) انظر ترجمته = القفطي: انباه الرواة ١/٢٩٦. وذكر له كتابين هما: الوحوش، وخلق الفرس ولم اقع على ذكر لسنة وفاته رغم الاستقصاء والتحقيق.

(٢) انظر = ثابت بن ابي ثابت: خلق الإنسان، تحقيق عبد الستار فراج، وزارة الإرشاد، الكويت، ط ١، ١٩٦٥.

والملاحظ ان مؤلفي هذا النوع من المعاجم المبوبة لم يشغلوا انفسهم بجذور الالفاظ وما يشتق منها، لان غرضهم هو جمع الالفاظ المستعملة في سياق مخصوص هو وصف الإنسان. ففي كتاب "خلق الإنسان في اللغة"(١) لابي محمد الحسن بن عبد الرحمن لم يراع المؤلف ان تكون الالفاظ مجردة من الاحرف الزائدة اما تركيبه فقد جاء موافقا لتركيب جسم الإنسان، وقد خصّص قسما للالفاظ المشتركة بين الرجال والنساء. ثم يورد اعضاء الإنسان وتسمياتها مرتبة من راس الإنسان حتى قدميه.

وكان قد مر بنا ان كُراع النّمل الف (المنجّد في اللغة) ليجمع بين الطريقتين، طريقة البحث في المشترك اللفظي، ثم تصنيف الالفاظ على اساس مابينها من روابط النَّسَب والعلاقات المعنوية. مما يجعل عمله هذا واحدا من اكثر الاعمال العربية قربا من مفهوم الحقول الدلالية (٢).

وثمة شئ آخر شُغِلَ به اللغويون العرب يعد في إطار التصنيف السياقي للالفاظ. وهو ان تُجْمع الالفاظ وتبوب على اساس دلالي يرتبط بلون من الوان الكلام الادبي او الفلسفي. وقد اكتشف اللغويون ان اللفظة الواحدة يمكن ان تتحول إلى كلمة متعددة المعاني بحسب سياق النص او الخطاب. وقد قالوا في (المتكلّم) انها تعني كل من نطق بكلام ولكنها اذا وردت في سياق خاص كالحديث في الصفات الالهية والمعتقدات دلت على من يشتغل بعلم مخصوص هو علم الكلام (٣). وقد سموا المعنى الاول بالمعنى العرفي، وسموا الثاني

---

(١) الحسن بن احمد بن عبد الرحمن، خلق الإنسان في اللغة. تحقيق احمد خان، معهد المخطوطات، الكويت، ط ١، ١٩٨٦م ص ١٢ - ١٣ ولم اقع على ذكر لسنة وفاته رغم التنقيب والبحث في المصادر والمراجع.

(٢) انظر هذا الفصل ص١٨٥

(٣) الغزالي، المستصفى من علم الاصول، (مصدر سابق) ١/٣٢٥.

بالمعنى الوضعي اي الإصطلاحي(١). ووصفوا المعنى الاول بانه عام والثاني خاص. ورأوا انهم اذا قالوا: (الشيخان) في اثناء الكلام التاريخي عنوا بهما ابا بكر وعمر، واذا قالوا (الشيخان) في ميدان علم الحديث عنوا بهما: البخاري ومسلم؛ وهذا التخصيص في دلالات الالفاظ مصدره السياق؛ والمعاجم التي تم تاليفها وفقاً لهذا يمكن ان تعد معاجم سياقية بصورة عامة.

ومن اشهر المعاجم السياقية التي الفت: كتاب "الزينة في الكلمات الإسلامية العربية" لمؤلفه ابي حاتم احمد بن حمدان الرازي (٣٢٢هـ/٩٣٣م) (٢) وهذا الكتاب عمد فيه مؤلفه إلى استقصاء الالفاظ المتصلة بموضوع خاص مع ذكر دلالاتها حسب اتصالها بذلك الموضوع. وقد التجا الى السياق اللغوي في الاهتداء إلى الدلالات الدقيقة للالفاظ؛ واتبع منهج واضعي المعجمات فإذا صَعُب عليه لفظ عرضه على الشعر الذي هو في نظره اصل من اصول اللغة (٣). وقد لاحظ الرازي ان كلمات القرآن التي صنفها، وهي التي اكتسبت دلالات جديدة في الإسلام، لا تعبر عن تلك الدلالة إلا في سياقها اللغوي القرآني، فإذا نزعت منه نزعاً بطلت تلك الدلالة، وزال عنها ذلك المعنى. فكلمة (الرّب) مثلاً لاترد معرفة إلا في القرآن للدلالة عليه تعالى ولاترد في الكلام الانسي إلا نَكِرَة او مُعرّفة بالإضافة مثل (رب الدار) (ورب البيت) (٤) ويؤكد ان كلمة (العزة) اذا صَحبت لفظ الجلالة كما في القرآن دلت على المدح، في حين اذا صحبت لفظاً آخر كالعَبْد وغيره دلّت على

---

(١) انظر: السابق ف ٣/بند (٤) ص١٥٩

(٢) طبع الكتاب المذكور بتحقيق حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري في ثلاثة اجزاء، القاهرة، ط ٢، ١٩٥٧. وانظر ماكتبه عن هذا الكتاب د. حلمي خليل، الكلمة (مرجع سابق) ص ٥٦ و ص ٨٣.

(٣) الرازي، الزينة، (مصدر سابق). مقدمة المحقق.

(٤) المصدر نفسه ٢/٢٧.

الحَمِيَّة والانفة وهي مذمومة (١). قال تعالى: "وإذا قيل له اتق الله، اخذته العِزَّة بالاثم" (٢). وكلمة الجبّار إذا جاءت صفة لله تعالى دلت على معنى مخصوص وهو الذي لا يدركه احد بوصف، ولا يقدر مظلوم على رفع ظلامته إليه مباشرةً، في حين انها في كلام البشر تدل على البَطْش والقوة الغاشِمة، قال بشار (من الطويل).

اذا المَلِكُ الجَبّارُ صَعَّرَ خدَّهُ مشينا إليهِ بالسّيوفِ نعاتِبُه.

وإذا وُصف بها الإنسان دلّت على القسوة، قال تعالى "ان فيها قوماً جبارين" (٣) وقال ايضاً "وما انت عليهم بجبار" (٤).

وقد تناول الرازي الالفاظ الإسلامية وتنوع صيغها الصرفية، ودلالاتها بحسب الاستعمال. ومن ذلك كلمة (قضى) في قوله تعالى: "وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه (٥)" فهي هنا بمعنى امر او اوصى في حين انها في قوله "وقضينا إلى بني اسرائيل" (٦) جاءت بمعنى اخبرناهم، ومنها قضى الله وقدّر بمعنى انفذ الشئ وفرَغ منه (٧).

وقريب من هذه التصانيف السياقية للالفاظ ماصنعه ابنُ البَيْطار الاندلسي المتوفى (٤٤٦هـ/١٠٣٤م) في كتابه (الجامع) الذي صنف فيه الالفاظ الخاصة بالاطباء والصيادلة. فقد جمع في هذا الكتاب اسماء النباتات والاعشاب المستخدمة في استخراج العقاقير والادوية ووصفها

---

(١) السابق نفسه ٢/٧٩.

(٢) سورة البقرة، ٢٠٦.

(٣) سورة المائدة، ٢٢.

(٤) سورة قاف، ٤٥ وانظر، كتاب الزينة ٢/٨٤.

(٥) سورة بني اسرائيل، ٢٣.

(٦) سورة الإسراء، ٢٣.

(٧) الرازي، الزينة ٢/١٣٨ - ١٣٩.

وصفاً دقيقاً يقل نظيره في المعاجم اللغوية (١). كما اهتم الآمدي بتصنيف الالفاظ المتداولة في كتب المتكلمين في مجلد سماه: "الكتاب المُبين في شرح الفاظ الحكماء والمتكلمين" (٢). وفي هذا المعجم نجد المؤلف يستقصي الالفاظ الإصطلاحية التي ترد في كتابات الفلاسفة والمتكلمين مع شرح دلالاتها ومعانيها حسب السياق الفلسفي والكلامي الذي يتعين فهمها منه. وهو لايذكر الشواهد لتوضيح المعاني وإنما يعتمد على نصوص الفلاسفة والمتكلمين في استخراج تلك الدلالات، وتمييز الفروق بينها وبين الدلالات العرفية للالفاظ. ويتضح نهج الآمدي السياقي في تحديد المعنى اذا قرانا ماكتبه في شرح لفظة المفرد. يقول: "المفردُ في كتب النحاة عكس الجمع، والمفرد في كتب المتكلمين مايدل على معنى، ولا جزء له يدل على معنى أصلاً، حتى يقال هو جزؤه. كالإنسان، والفرس، ونحوهما (٣)." والتمثيل في البلاغة ضرب من التشبيه، وهو عند المتكلمين: "مايعبَّر عنه بالقياس" (٤).

ويعدّ كتاب "التعريفات(٥)" للشريف الجرجاني (٨١٦هـ/١٤١٣م) من اكثر هذه المعجمات دقة، وكمالاً. وهو يشبه كتاب الحدود لابن سينا؛ يُعنى فيه بذكر الالفاظ التي ترد في الفلسفة والمنطق والفقه والتصوّف، مع شرح دلالاتها شرحاً قائماً على مراعاة نوع السياق

---

(١) طبع كتاب الجامع في مصر سنة ١٢٩١هـ ولم نستطع الحصول على نسخة منه، انظر ماكتبه عن هذا الكتاب عبد العلي الودغيري في كتابه المعجم العربي بالاندلس، ص ص ١١٥ - ١١٦.

(٢) طبع الكتاب بتحقيق عبد الامير الاعسم، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٨٧.

(٣) السابق نفسه ص ٤٨.

(٤) السابق نفسه ص ٧٤.

(٥) عرفنا بهذا الكتاب في السابق، لذا لاضرورة لإستئناف التعريف هنا.

الذي تستعمل فيه . فالإجماع لغة* هو الاتفاق، ولكنه في الفقه : الاتفاق على امر ديني من لدُن جماعة الفقهاء من امة محمد عليه الملاة والسلام (١).

والإحصار في اللغة هو المنع او الحَبْس، ولكنه في الشرع: المنع عن المُضيّ في افعال الحج سواء كان بالعدوّ، او الحبس، او بالمَرض(٢). والاحتراس في اللغة الحذر والاحتياط، وهو في البلاغة : "ان يؤتى في كلام يُوهِمُ خلافَ المقصود بما يدْفَعُه ، اي يؤتى بشئ يدفع ذلك الإيهام، نحو قوله تعالى: "اذلة على المؤمنين اعزّة (٣) على الكافرين" فقوله :"اعزة" احتراس(٤).

واللافت للنظر في هذا الكتاب دقة صاحبه في تحديد الدلالة السياقية للالفاظ، ولانه لم يستطع ان يستوفي الالفاظ كلها في هذا الكتاب فقد تصدى لاستكمال عمله هذا فالف كتابا* آخر شرح فيه الالفاظ التي يتكرر ورودها في كتابات محيي الدين بن عربي (٦٣٨هـ/١٢٤٠م) وقد نشره فلوجل مع كتاب "التعريفات" وفيه يرجع المؤلف إلى السياق كلما لزم الأمر لتحديد دلالة اللفظ."فالهاجس عند المتصوفة هو الخاطر الاول، وهو الخاطر الرّبّاني، وهو لايخطئ ابدا* ، ويسميه بعضهم السبب الاول، فإذا تحقّق في النفس سموه إرادة ،فإذا تردد سموه همّة ،وفي الرابعة يسمونه عزما* ،وعند التوجه إلى القلب يسمونه قصدا* ، ومع الشروع في الفعل يسمونه نِيّة"(٥).

(١) الجرجاني: التعريفات (مصدر سابق)، ص ٨.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠.

(٣) المائدة : ٥٤.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٢. وانظر = احمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية . المجمع العلمي العراقي، بغداد، ط ١، ١٩٨٣ جـ١ ص ٦٢ مادة (احتراس).

(٥) التعريفات: ص ٢٨٤.

"المسافر عند المتصوفة هو الذي عَبَر بفكره من المعقولات، وعدوة الدنيا إلى عدوة القصوى. اما السَّفَرُ فهو اخذ القلب بالتوجه إلى الحق تعالى(١)".

يستخلص مما سبق ذكره عن التصنيف السياقي للالفاظ مايلي:-

١ - اتخذ السّياق حكماً، ومعياراً، في تمييز الدلالات المتباينة للاضداد، وحجةً لقيام هذه الالفاظ بوظائفها المعنوية في الكلام مع امن اللَّبْس.

٢ - كما اعتُمِد السياقُ فَيْصلا في الكلام على تمييز المعاني المختلفة للفظة الواحدة التي تستعمل لاداء اكثر من معنى (المشترك) واستقصاء الاحتمالات الممكنة لاستعمالها استعمالاً دقيقاً مع مايلزم ذلك من استصحاب عناصر لغوية اخرى.

٣ - كما اعتُمِدَ السياق اللغوي حجةً لإثبات قضيتين متعارضتين: الاولى هي نفي وجود الترادف، مع التوكيد على انه في الحال التي تطابقُ فيها لفظة لفظة اخرى في معناها فإن السياق يدل على فرقٍ لطيف بين دلالتيهما لايُدْرك إلا بالعودة إليه. وهذا هو مذهب ابي هلال العسكري في "الفروق" ومذهب غيره مِمَّن انكر الترادف جملة.

واعتمد السياق دليلاً ايضاً على وجود الترادف، وهذه هي القضية الثانية، وذلك باستبدال لفظة بلفظة اخرى في (خانتها) من الجملة مع بقاء المعنى من غير تغيير، او عن طريق الشرح بالرديف في النظام المعجمي العربي (عَدَّ: حَسَبَ) ويتضح هذا عند اللغويين في مجال الاسماء المختلفة للشيء الواحد: كالاسد او الحيّة.

---

(١) السابق نفسه ٢٨٥.

٤ - صُنّفت الالفاظ والتراكيب اعتماداً على السياق في ابواب موضوعية او معنوية تيسيراً على الكتاب لاستعمالها، وتداولها في المزاوجة، والتكرير والتنويع والتاكيد، في إطار المكاتبات الإخوانية، والإنشاءات الديوانية؛ وهذا النوع من التصنيف املته اعتبارات اسلوبيّة بلا ريب.

٥ - وقد تم اعتماد السياق اساساً لتصنيف الالفاظ ضمن ابواب المعاني، والموضوعات، او ضمن علاقات القرابة التي مصدرها المعنى، أو انضواء الالفاظ تحت كلمة اكثر عمومية، او تصنيف الالفاظ وشرحها بحسب تداولها في اجناس معينة من الكلام، كالفلسفة او الطب او الصيدلة، وتمييز الدلالة العرفية للكلمة (المعجمية) عن الدلالة السياقية؛ او العموم عن الخصوص. وهذا النوع من التصنيف يشبهُ البحث اللغوي الحديث فيما يسمى بالحقول الدلالية.

اما المعجم العربي فقد اعتمد السياق التفسيري في اساس بنيته وهذا ماسنبيّنه في السطور التالية :-

٧ - المعجم العربي والسياق التفسيري:

اشرنا في غير موضع إلى بدايات المعجم العربي، والى مدرستي التاليف المعجمي، كمدرسة التقاليب الصوتية، ومدرسة الترتيب الهجائي. واشرنا ايضاً إلى انواع المعجمات: فمنها المعاجم المجنسة ومنها المعاجم المُبوّبة، وتحدثنا بشئ من التفصيل عن جمع اللغويين العرب للالفاظ وتصنيفها في زمر ومجموعات حسب علاقاتها الثنائية من حيث التضاد، او المماثلة التامة (الترادف) او الإشتراك (المشترك اللفظي). وهذه التصانيف كانت - بلا شك - روافد كثيرة

اعتمد عليها مؤلفو المعاجم العربية في إثراء مؤلفاتهم من الاصول والشروح. ويمكن النظر إلى هذه المصنفات من حيث انها جداول تصب في محيط اللغة الاعظم الذي هو القاموس. وقد حرص المعجميون المتاخرون امثال ابن سيده (٤٥٨) في المخصص وابن منظور (٧١٠/١٣١٠م) في لسان العرب على ذكر هذه الحقيقة والتوكيد عليها غير مرة.

والبحث في تطور المعجم العربي ومدارسه ليس بحثنا في هذا الفصل، وإن غايتنا ان نعرف مدى اعتماد المعاجم على السياق في إعطاء الشروح المختلفة لدلالات الالفاظ.

لقد أُخِذَ على المعاجم العربية انها لاتهتم بلغة التخاطُب. فقد استقصى المؤلفون الفاظ اللغة وشرحوها بعرضها على شواهد من الشعر والامثال السائرة والآيات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة، وصرفوا نظرهم عن لغة التخاطب(١)، بيد ان هذا الراي الذي اطلقه محقق كتاب الجيم يجانب الحقيقة ويجافيها مجافاة تامة. ولو اننا نظرنا مليّاً في "كتاب الجيم" نفسه لوجدنا ان الشيباني استخدم شواهد لَهْجيَّة وردت في معاجم اخرى بصفتها شكلاً من اشكال التخاطُب(٢). ويؤكد المستشرق فيشر ان الموضوعات التي اخذها المعجميون العرب عن البدو هي اكثر موضوعاتهم مدعاةً للتصديق بين مواد المعجم العربي(٣).

---

(١) فيرنر ديم: كتاب الجيم، ترجمة محمد حسن الشماع، الرياض، ط ١، ١٩٨٠، ص ٨٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ١٠٢.

وكان مؤلفو المعاجم - كما ذكر السيوطي - يرحلون في طلب المادة إلى البادية لتدوينها وضبطها وفق ماينطقها البدو. وذكر أن بعضهم كان يقيم في البادية الليالي والأيام طمعاً في جمع اللغة والأشعار. ونَسَب إلى الأصمعي قوله: "كنت اغشى بيوت الأعراب اكتب عنهم حتى الفوني، وعرفوا مرادي"(١).

وقد جُمعت بعض مواد اللغة (كالأمثال) من افواه الناطقين بها ودوّنت كما هي، على مافيها من اللحن، حفاظاً على اصلها في لغة التخاطُب(٢). وهذا دليل واضح على أن اللغويين العرب لم يترفعوا عن الاستشهاد بعبارات متداولة على السنة الناس. وقد راعوا في كثير من الأحيان سياق الحال الذي استخدمت فيه اللفظة، فيوردون الحكايات والقصص التي ترتبط بدلالة لفظة من الألفاظ(٣).

وقد عالج المعجميون العرب الكلمات معالجة تقوم على مفهوم العلاقات المتشابكة بين مستويات التحليل اللغوي، فقد استخدموا العلاقة الضِدّية في التفسير، بحيث يقال في شرح الكلمة: ضد كذا، او عكس كذا. وهذا هو التفسير بالمغايرة. وقد يكون التفسير بالمغايرة الناقصة اي بذكر استعمالين مختلفين للفظة بحيث يظهر المعنى. فكلمة (اعرب) تعني الدخول في العربية. وهناك "اعرب" التي بمعنى حرك الكلمات بالفتح او الكسر او الضم. فلكي يشرح اللسان هاتين اللفظتين يذكر لنا جملتين تُفرّقان بينهما في المعنى. وقد

---

(١) السيوطي: المزهر (مصدر سابق) ٣٠٧/٢.

(٢) السيوطي: المزهر (مصدر سابق) ٤٨٧/١.

(٣) انظر: لسان العرب، مادة "عرب" وانظر تعليق محمد احمد ابو الفرج في: دراسات في المعجم العربي، (مرجع سابق) ص ص ١٢١ - ١٢٢.

يستخرج المؤلف المعنى من سياق خارجي استعملت فيه اللفظة. ففي تفسير اللسان لكلمة (الأعراب) أورد اسباب نزول الآية: (قالت الاعراب آمنا) (١) إبراز خصوصية المعنى في هذا السياق.

ويعتمد المعجميون العرب على السياق الاجتماعي والمكاني. فيذكرون أن الكلمة تعني كذا اذا قيلت في سياق معين. فالاعرابي اذا قيل له يا عَرَبي فرح بذلك وهش له، والعربي اذا قيل له يا اعرابي غَضِب له واغتاظ(٢). وذَكَر الاصمعي ان كلمة (القرء) معناها عند اهل الحجاز الطهر وعند اهل العراق الحيض(٣).

وكان الخليل بن احمد في كتابه "العين" قد سنّ طريقة اللجوء إلى السياق اللغوي في تحديد وظيفة اللفظ، لذلك عُني في معجمه بالاستعمال الشائع وترك الغريب المهمل مكثرا من الشواهد والأمثلة (٤).

وقد اتكا القالي (٣٥٦هـ) في "البارع" على كتاب "العين"، واستكثر فيه من الشواهد والأمثلة لتفسير الالفاظ وتحديد دلالاتها ومعانيها، واذا اخذنا مادة (هاج) فإننا نجده بعد ان يحدد الاصوات التي تتالف منها الكلمة يذكر لنا الدّواب التي تهيج، وما يقال لكل دابّة منها؛ للفَحْلِ من الإبل يقال "هَيَجان" بينما يقال لغيره من الحيوان "هيجا" وهذا التفريق - بلا شك - قائم على مراعاة الفروق

---

(١) سورة الحجرات: ١٤.

(٢) اللسان: مادة "عرب".

(٣) كتاب الاضداد (مصدر سابق) ص ٥. وانظر الاضداد لابن السكيت، ص ١٦٣.

(٤) الخليل: كتاب العين، مادة مد، وانظر د. عبد السميع احمد: المعجم العربي، دراسة تحليلية (مرجع سابق) ص ٣٨.

الدلالية بحسب الإستعمال الدارج في البيئة (١).

ويظل هذا النهج متبعاً لدى غير القالي من المؤتمّين بالخليل ويلجأ صاحب التهذيب إلى الشواهد والامثلة في اقتناص الدلالات المختلفة للألفاظ. ويعتمد اعتماداً كبيراً على الخليل؛ وهو يورد النص اولاً ثم يستخرج المعنى، ففي مادة (دَعَّ) يورد قوله تعالى: "يومَ يُدعّون إلى نارِ جَهنَّمَ دعاً" (٢). - يُدعّون يدفعون إلى نار جهنم دفعاً شديداً، ثم يورد آية اخرى تؤكد ان المعنى الذي استخلصه من الاولى هو دَفَع. وبعد ذلك يورد قولاً متداولاً وهو: دَعْدَعَ فلان جفنته: اذا ملاها من الثريد واللحم (٣).

والتامل في هذا الشرح يؤكد ان الازهري يضع في اعتباره السياق اولاً ثم يستخلص منه المعنى.

وهذه هي طريقة ابن سيدة في "المحكم" (٤).

وهي طريقة ابن دريد في الجمهرة، والرازي في مختار الصحاح، وابن منظور في لسان العرب، اما الزمخشري في اساس البلاغة فله نهجه الخاص.

فقد عني الزمخشري في كتابه "اساس البلاغة" (٥) باستخراج المعاني من السياق، ولم يتقيّد بشرح الالفاظ المفردة، وهذا ماقصد

---

(١) ابو علي القالي: البارع في اللغة، تحقيق هاشم الطعان مكتبة النهضة، ١٩٧٥، مادة هيج. وانظر ماكتبه عنه.
John Haywood. Arabic Lexicography. P. 59.

(٢) سورة الطور: ١٣.

(٣) الازهري (٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هرون، مصر، ١٩٦٤، مادة: دع.

(٤) تحقيق مصطفى السقا، وحسين نصار، مصر، ط ١، ١٩٥٨.

(٥) دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٧٩. وانظر تعليق د. احمد محمد قدور على الجانب الدلالي من كتاب الاساس في: في الدلالة والتطور الدلالي (مقالة) مجلة مجمع اللغة العربية، عمان، عدد ٣٦، حزيران ١٩٨٩، ص ص ١٣٤ - ١٣٥.

إليه في المقدمة بقوله الذي يصف فيه خصائص الأساس:

"ومنها التوقيفُ على مناهج التّركيب والتاليف، وتعريف مدارج الترتيب والترصيف، بِسَوْقِ الكلمات متناسقةً لا مُرْسلة بدَدا، ومتناظمة لا طرائق قَدَدا (١)".

فهو يشترط لوضوح دلالة اللفظ ان يؤخذ بالاعتبار علاقته بغيره من الالفاظ، وموقعه من العبارة، وطريقة تداوله ودورانه في الاستعمال، ومدى شيوعه وخروج معناه عن الأصل الذي وضع له لأداء المعنى المجازي. فلو اخذنا مادة "يد" في الأساس لوجدناه يقدم دلالتها الأصلية اولا باستخدام العبارة: "بسط يده" ثم يتطرق إلى الجذر الثلاثي "يَدَيَ". وبعد ذلك يستقصي وجوه الاستعمال المجازي لهذه اللفظة. ويقول: من المجاز: لفلان عندي يَدٌ: نعمة. وإن فلانا لذو مال، يَيْدي به اي يبسط به يده ويمنحه". "واخذ بهم يد البحر" طريقه. وتفرقوا ايدي سبا: معروف. ويقال: "مالك عليه يَدٌ" اي ولاية. ولا افعله يَدَ الدهر اي ابدا. وقال لبيد: (الكامل) (٢).

وغداة ريح، قد وَزَعْتُ وقرّة، إذْ أصبحت بِيَدِ الشّمال زمامُها.

ويستقصي على هذا النحو جُلّ الاستعمالات المجازية للكلمة. وتعد هذه الطريقة طريقة منفردة في معاجم العربية القديمة، وفتن بها غير واحد من المستشرقين من بينهم صاحب: "المعجمية العربية". الذي نوه بطريقة الزمخشري القائمة على المزج بين مستويين من مستويات التحليل اللغوي وهما: المستوى الدلالي، والتركيبي(٣)، وهذا شئ لم يهتم به اللغويون الآخرون من مؤلفي المعاجم.

---

(١) السابق نفسه، ص ٨. وانظر - محمد احمد ابو الفرج: المعاجم اللغوية (مرجع سابق) ص ٤٥.

(٢) الزمخشري: الأساس، مادة (يدي).

(3) John Haywood, Arabic Lexicography, P. 8.

ونستطيع ان نضيف إلى ماذكره شيئاً آخر اكثر اهمية، وهو عناية الزمخشري بالسياق الثقافي للكلمة، فعندما يعدد المعاني المتباينة للفظة تبعاً لانماط التراكيب المختلفة المتداولة فإنه يصور، بطريقة غير مباشرة، الثقافة العربية السائدة في عصره، وتلك التي توارثها معاصروه عمّن سبقوهم. فهذه الانماط من التراكيب "يد البحر" و "يد الدهر" و "ايدي سبا" وغيرها تمثل الثقافة التي يتشكل معنى اللفظة في ضوئها. وهذا يذكرنا بالكلام الكثير الذي مر عن المعنى عند فيرث، وغيره من اللغويين الذين يقولون بان المعنى شئ اكبر مما يخبرنا به المعجم، وهو شئ يتحدد من خلال علاقات اللفظة بما يجاورها من الفاظ، وصلتها بسياق الحال الذي يمثل ثقافة المُتلقّى وثقافة المتكلّم وما إلى ذلك من أشياء تتصل بالمعنى.

والمعجميون العرب بصفة عامة يستخرجون المعنى من السياق، ويؤيدون ما يذكرونه بالامثلة والشواهد المقتبسة من النصوص الادبية وغير الادبية كالقرآن والحديث، ولكن استعمالهم للشعر اكثر من استعمال غيره (١)، مما يؤكد انهم ميزوا في معاجمهم بين مستويين للاستعمال: الفصيح والافصح. وقد اخذوا بالافصح حفظاً لنقاء اللغة، وسلامة القاعدة، وهذا قد يكون من الاسباب التي جعلت المعجم العربي يصور اللغة كما ينبغي ان تكون لا كما هي. وبعض اصحاب المعاجم كالفيروز ابادي (٨١٦هـ) صاحب القاموس المحيط، وقبله ابو اسحق الفارابي (٣٥٠هـ/٩٦١م) صاحب "ديوان الادب" لم يُعْنيا عناية كافية بالسياق من حيث هو معيار لاستخراج المعنى.

---

(1) John Haywood, Arabic Lexicography, P. 61.

فالفارابي لم يتكئ على السياق في تفسير دلالات الالفاظ، وتوضيحها وإنما اعتمد على ذكر الشئ المغاير في تمييز المعنى، فالعذب نقيض المِلْح، وقد يكتفي بالوصف، وقلّ ان يلجا للشواهد مثل البحث: الصرف، ثم يضيف: يقال: شراب بَجْت اي خالص.(١)

اما الفيروز ابادي فقد اوضح في مقدمة القاموس انه لن يذكر الشواهد والامثلة طلباً للإيجاز والاقتصاد في الجهد، وتيسيراً على الباحث الذي يريد معنى الكلمة، وقد فعل ذلك معتمداً على الذين سبقوه ممن اوفوا الشواهد حقّها من العناية والتّمْحيص(٢). ولو استعرضنا اي مادة من موادّه لوجدناها تتناول المفردة معزولة عن السياق، فجَمَد ضدّ ذاب وجَمَّد تجميداً حاول ان يجمّد والجَمْد: الثلج، والحجارُ والارض، وعينٌ جامِدة: لاتدْمَع(٣). وقليلاً مايورد الفيروز ابادي مثلاً او حكمة او قولاً شائعاً لزيادة الإيضاح. ولكنه عني بالضبط، وتمييز البنية الصرفية عن اي بنية اخرى للكلمة. وهذا كفيل بالتوكيد على ان الفيروز ابادي لم يُهْمل مستويات التحليل اللغوي الاخرى، فقد ادرك الترابط بين هذه المستويات ودلالات الكلمة الواحدة.

وهذه الملاحظات حول موقع السياق ومكانته في بناء المعجم العربي تُظْهر الشاو الذي قطعه واضعو المعاجم في تلمّس هذه الفكرة، بيد ان الذي يؤخذ على هذه المعاجم انها اهتمت اهتماماً كبيراً بالجذور والمشتقّات منها ومعانيها ولم تلتفت إلى التصنيف

---

(١) الفارابي (ابو اسحق) وهو غير الفارابي الفيلسوف: ديوان الادب، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، ط اولى، ١٩٧٤، جـ ١، ص ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) الفيروز ابادي: القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ ص ص ٣ - ٤.

(٣) السابق، مادة "جمد".

التاريخي لدلالات الالفاظ. كما ان اللفظة عوملت في كثير من الاحيان وكانها وسيلةُ تعبيرٍ ادبية،وهذا التعامل جعل اللغويين يتشبثون بالجانب الاسلوبي من اللفظ والتركيب اكثر من تشبثهم بالجانب الدلالي نفسه . ويظل نموذج الزمخشري الذي عُني بالتفريق بين الحقيقة والمجاز نموذجاً خاصاً ومتفرداً في معاجم العربية التي اتكات على السياق في معالجة معاني الالفاظ.

الفصل الرابع

أثر السياق في البحث النحوي

دراسة التراكيب في النحو الحديث

الجملة في النحو العربي

النحو العربي والسياق الحالي

العلاقات السياقية وتاليف العبارة

علاقة المجاورة

علاقة الترابط (الفصل والوصل)

التلازم

التعليق

التقديم والتاخير لأسباب سياقية

سياق الحذف

المطابقة في التركيب

خلاصة الفصل الرابع

دراسة التراكيب في النحو الحديث

مر بنا في الفصل الأول حد اللغة من حيث هي نظام من الرموز الاعتباطية، الصوتية، يستخدمها الإنسان لتحقيق الاتصال مع انسان آخر (١). وقلنا ان هذا النظام ذو طابع مزدوج: صوتي ودلالي(٢). واشرنا في الفصل الثاني إلى الأثر الذي يتركه السياق في الأصوات من تبدلات نطقية (٣)،كما اوضحنا في الفصل الثالث مدى تاثر النظام الدلالي للغة بسياق الحال والمقال، ومدى التشابك بين مستويات التحليل اللغوي لإنتاج الدلالة: من المستوى الصوتي، إلى الصرفي، فإلى الدلالي، فإلى النحوي.

ويمكن التاكيد على الطابع الثلاثيّ لمستويات التحليل بدلاً من الطابع المزدوج الذي ذكرناه قبلاً، فاللغة ذات مستوى صوتي، والأصوات تتجمع وتتلاقى فتكوّن الكلمات، وهذا هو المستوى الثاني. ثم تتجمع الكلمات، وتتلاقى وفقاً لقواعد اللغة، ونحوها، فتتكون التراكيب، وهذا هو المستوى الثالث. ويسمى العلم الذي يتناول الأصوات بالدراسة "اي المستوى الأول" بالصوتيات Phonetics ويسمى العلم الذي يتناول المستوى الثاني (الالفاظ) بعلم الدلالة Semantics اما العلم الذي يتفرغ لدراسة المستوى التركيبي من جمل واشباه جمل، فهو علم النحو Grammar. وقد يتوسع في ذلك ليشمل الأنظمة التركيبية فيُستخدمُ في هذه الاحوال لَفْظٌ اكثر شمولاً وهو "النَّظم" Syntax. ويمكن توضيح ماسبق بالرسم التالي الذي يمثل في الجانب (أ) مستويات التحليل وفي الجانب (ب) العلوم اللغوية التي تتناول هذه المستويات.

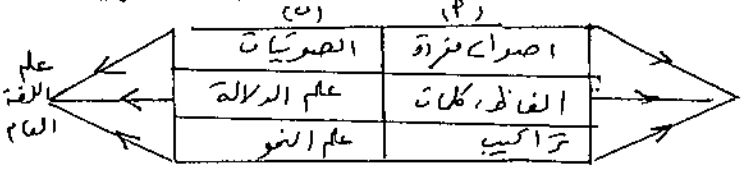

---

(1) Wordhough, Introduction to Linguistics, Newyork, 2 nd ed. 1977, P. 3.

(2) Ibid, PP. 25 - 28.

(٣) انظر السابق: ص ٨٥

واذا كان علماء اللغة قد اهتموا بدراسة الاثر الذي يتركه السياق في الاصوات المفردة ، والاصوات المنتظمة في كلمات، واهتموا اهتماماً كبيراً بدراسة اثر السياق في الدلالة ، وراوا فيه العامل الحاسم في تمييز دلالات المفردات في التراكيب، وعدّوا فهم الكلام في معزل عن سياقه الحالي، او المقالي، فهماً ناقصاً ، إن لم يكن مستحيلاً في بعض الاحيان، فإنهم ابدوا الاهتمام ذاته في بيان الاثر الذي يُحدثه السياق في التراكيب اللغوية ، وطرائق رصف الالفاظ جنباً إلى جنب، وما تتميز به هذه الطرائق من تقيّد بقواعد النحو او خرق لها . وما يعرو التراكيب من علاقات سياقية تفصح عن نفسها في صور شتى من صور النَّظم ، كالتقديم والتاخير والتلازم ، والاستغناء والحذف والذكر ، والعطف، وما شاكل ذلك من علاقات يظهر تاثيرها مباشرةً في نظم الجملة ، ومظهرها الخارجي، او في المظهر الباطني (التقديري) للعبارة اذا كان ثمة ماهو محذوف او مذكور على سبيل الإشارة (١).

واهتم النحاة المحدثون بتحليل العبارة ، وفقاً لمكوناتها النحوية المباشرة ، ومن ابرز الذين اهتموا بذلك بلومفيلد Bloomfield الذي مر بنا ذكره من حيث هو زعيم المدرسة السلوكية في النحو Behaviourism(٢) واستخدم بلومفيلد وتلاميذه الرموز لتفكيك العبارة ، وتحليلها إلى مكوناتها البسيطة جداً . فلو اخذنا العبارة التالية The boy ran to the park لوجدنا ان هذه العبارة مولفة من مركبين هما : NP + VP وكل مركب من هذين

---

(1) Ibid. P. 117.

(٢) انظر للاستزادة د. نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٠.

المركبين مكون بدوره من مكونات أخرى، وقد استخدم الرسم المشجر التالي لتوضيح الامر (١).

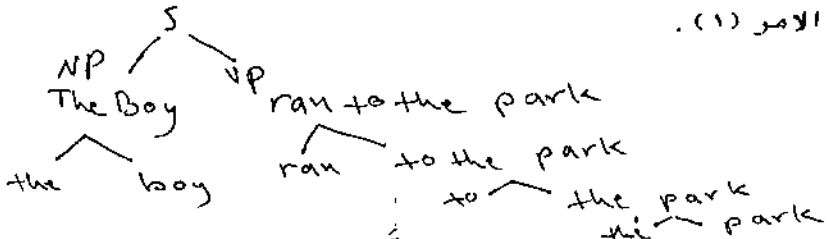

ومعنى ذلك ان الجملة مكونة من مركّبَيْن اساسيين هما: المركّب الأسمي the boy، ثم المركّب الفعلي ran to the park، ثم يحلل المركب الاسمي إلى: معرف + اسم، في حين يتم تحليل التركيب الثاني إلى (مركّب فعلي ran وهو المؤلف من فعل + صيغة (ماضي)، ومركب اسمي ثان مؤلف من حرف الجر to ومركّب اسمي هو the park، وهذا مكون من (معرّف + اسم). ولاشك في ان العلاقة بين جزئي هذه الجملة نشأت من اسناد الفعل (ran) إلى "الولد" في حين ان المركّب الاسمي to the park هو تتمة لتوضيح الغاية، والمكان وما شاكل ذلك مما يسمى (فَضْلَة).

وقد نزع البنيويّون السلوكيّون إلى دراسة مركبات اللغات وفقاً لهذا التحليل بهدف رصد الابنية الممكنة في اللغة، في حين ان شومسكي الذي تاثر اول الأمر بالمدرسة السلوكية، وخرج عليها فيما بعد بسبب اهتمامه بالنزعة التحويلية في مركبات اللغة بدلاً من الاهتمام برصد هذه المركبات وحصرها (٢)، يذهب للقول بوجود نوعين من الأبنية للجملة الواحدة، اولهما: البنية العميقة (الباطنية) Deep Structure وثانيهما البنية السطحية (او الظاهرة) Surface Structure. والبنية الثانية تضم العناصر التي ينتجها المتكلم، وتظهر في العبارة ظهوراً ملموساً، نطقاً او كتابة، اما البنية

---

(1) Wordhough, Ibid, P. 111.

(٢) انظر = خليل عمايرة: في نحو اللغة وتراكيبها (منهج وتطبيق)، عالم الفكر للنشر والتوزيع، جدة، ط ١، ١٩٨٤ ص ٥٨. وانظر مقدمة: محمد علي الخولي، قواعد تحويلية للغة العربية، دار المريخ، الرياض، ١٩٨١.

الثانية فتشمل، بالإضافة للعناصر الظاهرة، تلك العناصر التي تمكّننا من أن نفهم من الجملة نفسها المعنى. ويدخل تحت هذه العناصر مايعرف بنوايا المتكلم، وغاياته، والظروف المحيطة بالحدث الكلامي، مما ينضوي تحت تعبير "سياق الحال" Context of situation.

ولتوضيح ذلك لابد من تناول المثال التالي:-

The old house fell down.

فالبنية السطحية لهذه الجملة تتمثل في الوضع الذي اتخذته في اسماعنا، وامامنا على الورق؛في حين ان من الممكن ان تكون لهذه الجملة المعاني التالية :-

١ - البناء القديم هو الذي انهار وليس غيره.

٢ - البناء القديم ذو القيمة الاثرية الكبيرة انهار.

٣ - البيت الذي انهار بيت قديم لاقيمة له (١).

واختيار واحد من هذه الاحتمالات الثلاث يتوقّف على معرفة القارئ، او السّامع، بنوايا المتكلم، ومعلوماته السابقة عن الحدث؛ وعناصره المادية الملموسة (٢). فضلاً عن التركيب اللغوي وعناصره.

وكان فيرث Firth قد اكد على الاخذ بهذه العوامل عند دراستنا للغة، سواء اكنا ندرس صرفها او نحوها او مستواها الدلالي. فلا يسوغ، في رايه، ان توضَعَ الحواجزُ بين دراسة اللغوي لهذا المستوى او ذاك من مستويات الحدث الكلامي. وقواعد النحو والصرف في عُرفه

---

(1) Wordhough, Ibid, P. 117.

(2) Ibid, P. 159.

متأثرة بشبكة العلاقات المختلفة التي تكتنف المتكلم والمتلقي وفعل الكلام، والمشاركين فيه من حضور، ومستمعين وقرّاء وغير ذلك.

وفي هذا الجانب يبدو فيرث متأثراً بما لينوفسكي Malinowsky الذي اكد على ضرورة ان تدرس اللغة من حيث هي جزء في منظومة اجتماعية Social Process(١). وقد مر بنا تحليل فيرث لمستويات الدرس اللغوي اعتماداً على العوامل السياقية الاربعة؛ الحقائق المتعلقة بالمشتركين في الحدث الكلامي، والحدث الكلامي نفسه، اي العبارات المنطوقة بالفعل، وامور مادية تتصل مباشرة بالحدث الكلامي، واخيراً الاثر الذي تتركه العبارات المنطوقة في السامع، وما يرافق ذلك من مؤثرات ثقافية، وهذه العوامل التي سماها سياق الحال Context of situation ذات اثر بالغ في مستويات التحليل اللغوي جميعاً بما في ذلك المستوى النحوي(٢).وحجر الزاوية في الدراسات النحوية هو دراسة الجملة، ولاشك في ان اكثر عناصر الجملة لفتاً للانظار هو ماينشأ بين مكوناتها من علاقات تاليفية، ومعرفة الاسباب التي تجعل هذا العنصر دون ذاك يحتلّ هذا الموقع من الجملة، وما يطرأ على الجملة من متغيرات شكلية تارة بالحذف Deletion وتارة بالإحلال، اي وضع كلمة في موضع اخرى Replacement وتارة بالتوسّع عن طريق خاص، كزيادة كلمة إلى عنصر اساسي من قبيل زيادة النعت على المنعوت Expansion او الاختصار وهو غير الحذف، باستبدال مكوّنين في الجملة الواحدة بمكون واحد يغني عنهما

---

(١) يحيى احمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، العدد ٣، مجلد ٢٠، اكتوبر ١٩٨٩، ص ٨٢ وكان قد سبق التعريف بمالينوفسكي ص٨٢

(٢) سبق ان اشرنا إلى هذا سابقاً، وانظر = يحيى احمد، السابق، ص ٨٣.

كاستبدال الجملة المصدرية بمصدر مؤول والزيادة Addition وإعادة الترتيب، اي اجراء التقديم والتاخير permutation كما يحدث في تقديم المسند إليه على المسند او الخبر على المبتدا(١).

وقد اكد المحدثون على ان كل عنصر من عناصر الجملة مُعرّض للتغيير، إلا ان اكثرَ ما يحدث هذا التغيير في العناصر المتمّمة للجملة الاساسية، اي تلك التي سمّاها النحويون العرب الفضلة، كالمفاعيل والاحوال والظروف، فإذا نظرنا في الجملة الإنجليزية التالية :-

a) A detective hunted down the killer.

فهذا التركيب في البنية العميقة للجملة يمكن ان يصبح في جملة اخرى كما يلي:-

b) A detective hunted the killer down.

ففي الجملة او البِنْية (b) احتل المفعول the Killer موقعاً متقدماً على كلمة dwon(٢). مقارنة مع البنية (a).

وفي الجملة الإنجليزية التالية :-

Many people are out of work.

يمكن ان تصاغ بإضافة اسم الإشارة there، ولكن هذه الزيادة تتطلب إعادة ترتيب الجملة نَحْوياً بشكل جديد :

There are many people out of work(٣).

فالفعل المساعد are تقدم موقعاً على كلمة people وكان بعدها.

---

(١) انظر - خليل عمايره : في نحو اللغة وتراكيبها، ص ص ٦٦ - ٦٧ ود. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٧٩، ص ص ١٤٠ - ١٤١.

(2) Langacker, Language and it's Structure, P. 133.

(٣) الراجحي: نفسه، ص ١٥٢.

وهذه التغييرات التي تحدث لعناصر الجملة تقديماً او تاخيراً، حذفاً او ذكراً، اختصاراً او زيادة، لايمكن ان تاتي اعتباطاً وبلا اسباب. وهي عند شومسكي ناتجة عن عوامل سياقية، او ذهنية نفسية، او اجتماعية (١). وليس يعني شومسكي بالسياقة: التركيب اللغوي الذي تقتضيه صناعة الكلام، بل تشمل ماسماه نوايا المتكلم، واستراتيجية السامع (٢)، وهذا شئ يجعل من سياق الحال - في راينا - صِنْواً للسياق اللغوي في تاثيرهما على صنعة الكلام، وما يسودها من علاقات تاليفية. وبكلمة اخرى يمكن القول: إن النحاة يتناولون التماسك الشكلي للعبارة بدراسة الروابط التي تشد اجزاءها إلى بعضها بعضاً بحيث تعطيها التماسك الشكلي، وتفسّر ما يطرا عليها من زيادة او حذف او اختصار،في حين ان لسياق الحال دوراً في تفسير هذا التماسك عند انتفاء اي مؤشر لغوي إلى كلام سابق يتصل بموضوع الحديث، او بمكانه، او بزمانه (٣).

الجملة في النحو العربي:

والحق أنّنا إذا نظرنا إلى تعريف النحويّين العرب للجملة وجدناه تعريفاً ينصب، اساساً، على مراعة الروابط، والعلاقات التاليفية بين الاجزاء، والمُكوّنات النحوية المباشرة، مما يجعل دراستهم للجملة دراسة قائمة على تامل التتابع الافقي لسياق الكلام، وهو مايُعبَّر عنه عادةً لدى المحدثين بالعلاقات التاليفية Syntagmatic Relations. فابن جني والزمخشري وغيرهما يكررون

---

(١) انظر = صابرة، نفسه، ص ص ٥٨ - ٦٠.

(٢) انظر الفصل الاول من هذا البحث ص٣٤.

(٣) جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، مرجع سابق، ص ص ٢٢٠ - ٢٢١.

ماسبق إليه سيبويه من حيث ان الجملة هي: الكلام المركب من كلمتين اسندت احداهما للاخرى، نحو قولهم: زيد اخوك، وضرب زيد (١). وقد اشترط ابن جني وآخرون أن تكون الجملة مستوفية لمعناها، مستقلة عما عداها، فإذا احتاجت إلى مايُتمّ بناءها لم تكن جملة، ودليله على ذلك اننا نقول: "قام زيد" ونعدّها جملة تامة، ولكننا إذا ادخلنا الشرط، فقلنا: "إنْ قام زيد"، لم تكنْ جملةً لاحتياجها لما يتمّمها، وهو جواب الشرط(٢).

وبعض النحاة يشترط الوفاء بمتطلبات السياق النحوي من حال وتمييز وخبر وغير ذلك، ومنهم من يذهب إلى ترك الجملة وتحديدها أمرين خاضعين للسياق، فقد يعدّ التركيب جملة تامة في سياق، ولا يعد جملة في سياق آخر. ومثال ذلك الآيتان: "وَيْلٌ للمصلين" (٣) و "ولاتقربوا الصلاة" (٤). فكلتاهما من الناحية النحوية جملة نحوية تامة ،وتؤديان المعنى المستقل الذي يحسن السكوت عليه، ولكنهما في السياق القرآني ليستا جملتين تامّتين، اذ المراد منهما لايتضح إلا باكتمال الآية لكل منهما، فالاولى تكتسب دلالتها من السياق "الذين هم عن صلاتهم ساهون" والثانية من قوله تعالى "وانتم سكارى" وهذا التقييد الذي وُضِعَ للمعنى احدث تقييداً في التركيب النحوي(٥).

ومعنى ذلك أن النحاة نظروا إلى استقلالية التركيب النحوي من خلال وضعه في السياق، فإذا أُدْرِجَ في تركيب نحويٍّ أكثر طولاً بحيث

(١) الزمخشري: المفصل في علم العربية، دار الجيل، بروت، ط ٢، بلا تاريخ، ص ٦.

(٢) ابن جني: الخصائص (مصدر سابق) ١/١٩.

(٣) سورة الماعون: الاية ٤.

(٤) سورة النساء: الاية ٤٣.

(٥) انظر: محمد ابراهيم عبادة: الجملة العربية دراسة لغوية ونحوية، منشاة المعارف بالإسكندرية، ط ١، ١٩٨٤، ص ص ٣٤ -٣٥.

دمجت الجملة الصغرى في الكبرى فَقَدت الجملةُ استقلاليتها، وهذا التصور النحوي للتركيب قريب جداً من النظر اللغوي الحديث، فقد عرف بلومفيلد Bloomfield الجملة بقوله: هي الشكل اللغوي المستقل الذي لايكون متضمّناً في تركيب نحوي اكثر طولاً (١).

من ناحية اخرى يدل هذا الموقف على تداخل مستويات التحليل اللغوي، فالجانب الدلالي كان له الاثر الحاسم في تعريف الجملة، وهو من قبيل الاشتغال النحوي، مما يعزز الراي بان المستويات اللغوية تؤثّر في بعضها بعضاً كما يؤكد فيرث(٢).

ولم يحاول النحاة العرب تحليل الجملة العربية بالطريقة التي اعتمدها الغربيون في دراستهم لابنية التراكيب، وكان تحليلهم للجملة نابعاً من فكرة الإعراب.

فقد نظروا إلى الإعراب من حيث هو مجموعة من القرائن الصوتية، الناتجة عن الترتيب الذي يقتضيه الكلام في التركيب، ومعرفة مواقع الكَلِم في الجُمْلة، وعلاقاتها المؤثرة في حركاتها الإعرابية،واقسادهم إلى تحليل الجملة العربية تحليلاً نحوياً يعتمد على الوظائف التي تقوم بها الكلمة، والحرف، واتخذوا من اعراب الجُمَل وسيلةً اخرى لتحليل التراكيب الكبيرة تحليلاً يعتمد على وظائفها النحوية. وهو تحليل يعتمد الجملة الممتدة التي تتالف من عدة تراكيب لامن جملة واحدة مقتصرة على مُسْنَد ومُسْنَدٍ إليه (٣).

---

(١) نفسه، ص ٣٠.

(٢) انظر الفصل الاول ص٩٥.

(٣) السيوطي: الاشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٤، ٢/٢١ - ٣١.

فمعرفة مواقع الإعراب في جوهرها وصفٌ وتحليل للعلاقات القائمة بين مفردات الكلام وجُمَلِهِ من الناحية النحوية. وحين نقول إن هذه الكلمة وقعت نعتاً، او خبراً، اوحالاً، او ماشئنا، إنما نتبين الرابطة، او العُرْوَة التي تصلها بجارتها، وتجعلها تتشابك معها في خيط واحد، فهي وصف لها، او خبر عنها، او كاشفة لحالها، او مزيلة لضرب من ضروب الإبهام عنها، وهكذا نجد دراسة مواقع الإعراب بحثاً في ترابط الكلام وعلائقه (١).

وقد اوضح عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) هذه الفكرة بجلاء عند كلامه على التعلق، بقوله :-

"اعلم ان مثل واضع الكلام مثل من ياخذ قطعاً من الذهب او الفضة، فيذيب بعضها في بعض، حتى تصير قطعة واحدة".

وذلك انك اذا قلت: "ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تاديباً له" فإنك تحصل من مجموع هذه الكلِم كلِّها على مفهوم هو معنى واحد، لا عدة معان، كما توهمها الناس. وذلك لانك لم تات بهذه الكلم لتفيد انفس معانيها، وإنما جئت بها لتفيد وجوه التعلُّق التي بين الفعل "ضَرَبَ" وما عمل فيه، والاحكام التي هي محمولُ التعلق" (٢).

ومعنى القول السابق ان الجملة التي تتالف من عناصر تربطها علاقة نحوية هي "التعلق" او التعليق ليست تكتسب قيمتها من عناصرها متفرقة، بل من اتحادها وامتزاجها في بعضها بعضاً حتى لكانها

---

(١) محمد ابو موسى: دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٩٧٩، ص ٣١٠.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز (مصدر سابق) ص ٣١٦.

كلمة واحدة لامجموعة من الكلمات. والذي يصهر هذه العناصر معاً هو الإسناد" فلا يعقل ان يكون عمرو مفعولاً ، ويوم الجمعة مفعولاً فيه ، و"ضرباً" مصدراً ، و "شديداً" نعتاً للضرب، و "تاديباً" مفعولاً لأجله ، من غير ان يخطر ببالنا كونُ زيد فاعلاً للضرب(١).

ومن الواضح ان عبد القاهر انطلق في تحليله لهذه الجملة من مراعاة الجملة الاساسية "ضرب زيد" وما بين الكلمتين من علاقات ابرزها علاقة الإسناد ، ثم بدا يحدد مكونات الجملة تبعاً لموقع كل كلمة من الإعراب، فهذه مفعول به ، وتلك مصدر او نعت، او مفعول فيه او مفعول له ؛ مؤكداً بان الجملة الاساسية "ضرب زيد" وإن كانت هي نواة الجملة الكبيرة ، إلا انها لم تستقل عنها في دلالتها ولا في تركيبها النحوي، لان الفعل الذي هو "ضرب" لم يستكمِلْ وظيفته إلا بتجاوز الفاعل "زيد" للمفعول "عمرو" واستكمل هذا وظيفته ببيان السبب، والمكان، وكيفيّة الضَّرْبِ وزَمانِه الخ ....

فالجملة - اذن - تتالف من كلمات تترابط فيما بينها كترابط حلقات السلسلة ، وهذا الترابط تنظمه العلاقات النحوية التي عبر عنها بلفظة "التّعلّق".

وهذا الذي لمسه عبد القاهر، في القرن الخامس الهجري، لايختلف كثيراً عن وصف المحدثين للعلائق الترابطية في الجملة العربية ، فهي إما علاقة اسناد كالتي بين المسند والمسند إليه ، وإما علاقة تقييد كالاختصاص مثلاً ، او علاقة إيضاح او ابدال كما في تاويل المصدر المؤول بالصريح، او الجملة التي لها محل من الإعراب بالمُفرد ، او علاقات تقويةٍ او ظرفية او سببية او مفعولية (٢) على نحو مابين عبد القاهر في مثاله السابق.

---

(١) نفسه ، ص ٣١٧.

(٢) محمد ابراهيم عبادة ، نفسه ، ص ٢٠٩.

وقد أولى المحدثون هذه العلاقات اهتماماً كبيراً. ويؤكد فندريس أن الانفعالية التي تسيطر أحياناً على مستخدم اللغة، كاتباً كان أو متكلّماً، تجعله يكسر القاعدة النحوية بايجاد علاقات اخرى بين الالفاظ والأدوات المستعملة في التركيب، وهنا تنشأ علاقات جديدة تمثل خرقاً للمثل النحوي الأعلى، وهذا الخرق قد يكون بتقديم ما حقه التاخير، أو تاخير ماحقة التقديم، أو الحذف أو التكرير وما يقارب ذلك(١).

ويؤكد تمّام حسان في كتابه "الأصول" على عناية النحويين العرب بنظم العبارة، وما يطرأ عليها من علاقات تاليفية جديدة تمثل عدولاً عن اصل الوضع، فالاصل ان تستوفى العبارة حقها من: الذكر، اي ذكر العناصر المكونة لها تكويناً نحوياً مباشراً، والوَصْل، اي اتصال أجزاء التركيب بما تحتاج إليه من حروف العطف والنَّسق، والرتبة، اي وضع الكَلِم في المواقع التي تتناسب مع المعنى القائم في النفس، ثم الإفادة اي ان تكون الجملة تامة يحسن السكوت عليها باستيفاء المعنى وعدم الإحتياج إلى مايتمّم البنية. ولكن هذه الاصول قد ينحرف بها نسق التركيب إلى علاقات جديدة: كالحذف بدلاً من الذكر، والإضمار بدلاً من الإظهار، والفصل بدلاً من الوصل، والعكس بدلاً من التزام الرتبة، وانعدام الإفادة - اي بتر العبارة - بدلاً من التمام او الزيادة، ولا يسوغ العدول في عرفهم عن الاصل إلا بامن اللَّبس، وامن اللبس لايكون إلا اذا توفرت القرائن(٢).

---

(١) فندريس: اللغة (مرجع سابق) ص ٢٠٢.

(٢) انظر = دكتور تمام حسان: الاصول، دراسة ابستمولوجية لاصول الفكر اللغوي العربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٢، ص ١٣٨ ومابعدها.

وللاستزادة انظر = تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، مرجع سابق ذكره، الفصل الخامس: النظام النحوي، ص ص ١٧٨ - ٢٦٠.

والقرائن عند النحويين العرب كثيرة ، لكن في مقدمتها قرينة السياق بنوعيه ، المقالي والحالي.

وفي مقدمة القرائن المقالية او اللغوية قرينة الإعراب، فالرفع مثلاً (قرينة) لانه يؤكد تجرد الاسم من العوامل ولذلك اختير للابتداء (١).

واذا انتفت قرينة الإعراب كما في "ضرب عيسى موسى" عُدّت الرتبةُ قرينةً اذ لابد من ان يكون المقدَّم منهما هو الفاعل(٢). ويشير تمّام حسان إلى قرائن لفظية كثيرة تطرق لها النحاة منها "الصيغة": وهي بِنية الكلمة من حيث هي اسم او فعل، فالفاعل لايكون الا اسماً مثلاً وكذلك المبتدا (٣). وقرينة المطابقة: وهي مطابقة جزء التركيب لجزئه الآخر او مخالفته إياه من حيث الإفراد والتثنية والجَمْع (العدد) او من حيث الجِنْس (التذكير والتانيث) او من حيث التعيين (التعريف والتنكير) او من حيث التشخيص (تكلُّم او خطاب او غيبَة) فهذه القرائن تدل على اتساق نظم الجملة، وخلوها من الخلل الذي قد يَعْتَوِرُ نظامها التاليفي(٤).

وثمة قرينة اخرى هي الرَّبط، كارتباط الصلة بالاسم الموصول، وجواب الشرط بفعله، ومثل هذه القرينة يعد بياناً بان القسم الثاني من الجملة متمم للقسم الاول منها (٥). وهذه القرينة شبيهة

---

(١) ابن الحاجب: الامالي النحوية، تحقيق د. هدان مصطفى، دار الثقافة، الدوحة، ط ١، ١٩٨٦، ص ٢٣.

(٢) ابن السراج: الاصول في النحو، مصدر سابق، ٢/٢٤٥ - ٢٤٦ وابن الحاجب: الامالي النحوية، ص ٤٨.

(٣) تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢١٠.

(٤) نفسه، ص ٢١١.

(٥) نفسه، ص ٢١٣.

إلى حدّ ما بقرينة لفظية اخرى هي التلازم، اي اقتضاء احد عناصر الجملة لوجود الآخر: ذِكْراً كان او تقديراً. فوجود الفعل في الجملة يقتضي وجود الفاعل، فإن لم يكن ظاهراً قُدّر مضمراً (١). وقد تُسمّى هذه القرينة استصحاباً لأن المعنى هو استصحاب احد الشيئين للشئ الآخر. وقلما يجوز الفصل بين المتلازمين إلا في احوال مشروطة تجنباً للبس. فمن النادر جداً ان يقع الفصل بين الصفة والموصوف، او العاطف والمعطوف، او الموصول وصلته او الجار والمجرور إلا ماكان شذوذاً من الفصل بكان الزائدة (٢).

النحو العربي وسياق الحال:

وقرائن الأحوال كثيرة جداً.

فقد ذكر سيبويه ان عِلْم المخاطَب بجزءٍ من الكلام يفسّر حَذْفَه، ففي الاستثناء مثلاً يحذفون المستثنى تخفيفاً لعلمهم به، كقولهم ليس غير، وليس إلا. وهم يقصدون ليس إلا ذاك، وليس غير ذاك، اكتفاءً بعلم المخاطَب(٣). ويسمّي سيبويه هذا الحذف استغناءً، وأورد منه امثلة كثيرة، كقول الشاعر قيس بن الخطيم من (المُنْسرح).

نحن بما عندنا، وانتَ بما عندك راضٍ، والرأيُ مُخْتَلِفُ.

وقول ضابئ البُرْجمي: (من الطويل).

فمَنْ يكُ امسى بالمَدينةِ رَحْلُه فإنّي وقيارٌ بها لغَريبُ

---

(١) نفسه، ص ٢١٧.

(٢) نفسه، ص ٢٢٣.

(٣) سيبويه: الكتاب (مصدر سابق)، ٢/٣٤٥.

فقد ترك ان يكون للأول خبرٌ حين استغنى بالآخر لعلم المخاطَب ان الأول قد دخل في ذلك(١). ويراعي سيبويه علم المخاطَب بسياق الكلام في باب التنازع، من مثل قولهم: "ضربتُ وضربني زيد" فالمخاطَب يعرف أن الفعل "ضربتُ" عمل تقديراً في نصب "زيداً" (٢).

ويذكر المحدثون بشئ من التفصيل لجوء سيبويه إلى البُعد المقامي لتفسير ما يعرض في بناء المادة اللغوية من ظواهر يخالف بها المتكلّمون اصول النظام النحوي، طلباً للإطراد في الحكم، بما يتفق مع اللغويات الحديثة، ومراعاتها للمعايير الخارجية بعبارة دي سوسير (٣). ويستدلّ د. نهاد الموسى من امثلة كثيرة عرض لها سيبويه على تسليمه بمبدأ اندماج اللغة بنظام الحياة الخاص، والمحيط الخارجي، وادراك مابينها وبين السياق الاجتماعي من علاقة عُضوية، منتبها إلى دور السياق في أمن اللَّبْس، وتحديد البناء الجوابي المقصود من البناء البرّاني عند تعدّد الاحتمالات(٤).

ولعل كثرة التداول وشيوع الاستعمال من الأمور التي تلقي الضوءَ على تدخّل الاحوال والمقامات في تفسير القضايا النحوية وابنية التراكيب. ويذهب سيبويه إلى القول بان بناء الجملة يعتمد في احايين كثيرةٍ على الحذف، لكثرة تداول المحذوف، فاستكثروا فيه التكرار، وقالوا: "كل شئ إلا هذا" و "كل شئ وشتيمة الحر" اي إيت

---

(١) نفسه ١/٧٥ - ٧٦ وانظر: الإنصاف في مسائل الخلاف تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار احياء التراث العربي، ط مصورة عن طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر (د.ت). ١/٩٣ - ٩٤.

(٢) نفسه ١/٧٤.

(٣) د. نهاد الموسى: نظرية النحو العربي (مرجع سابق) ص ٨٨.

(٤) نفسه، ص ٩٠.

كلّ شيء إلا شتيمة الحر، والا هذا. وهذا لاينسحب على الفعل وحده، بل يكون في الأسماء ايضاً، ومنه قول الشاعر عمر بن ابي ربيعة من البسيط(١)

رَبْعٌ، قَوَاءٌ، اذاعَ المُعْصِراتُ بهِ وكلُّ حَبْرانَ سارٍ ماؤهُ خَضِلُ

فقد حذف الشاعر المبتدأ،وهو الضمير، اي هو رَبْعٌ.

ومن الحذف قولهم: "اهلاً وسهلاً" في لغة التخاطُب، اي قدمت اهلاً ووَطِئْت سهلاً، فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم اياه (٢). ويضيف سيبويه امثلة كثيرة جداً لاسيما في اسلوب الدعاء والتحذير والإغراء وغيرها من الأساليب(٣).

وقد تناول الزمخشري في باب المنصوب باللازم إضماره موضوع المنادى، فإذا قلت "يا عبدَ الله" كانك قلت: "اريدُ عبدَ الله" ولكنّه حذف لكثرة الاستعمال، وصارت (يا) بدلاً منه (٤). ونحو ذلك قولهم: إياك والأسد، وغيره. فهم يحذفون لكثرة الاستعمال(٥).

ولمعرفة المخاطب بالمحذوف علاقة بالحُكم النحوي، فإذا قلت: لقيت القوم كلّهم حتى زيداً، فإن القائل يستغني عن ذكر الفعل في: "حتى زيداً لقيتُ" لعلم المخاطَب بالسكوت عنه (٦).

---

(١) سيبويه، نفسه، ١/٢٨٠ - ٢٨١. والمعصرات: السُّحُب، والحَبران كلير العُشب.

(٢) نفسه ١/٢٩٥.

(٣) نفسه ١/٣١١، ٣١٢، ٣٤٠ وانظر شرح الاشموني،تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة، مصر، ٢/٤٧٩ - ٤٨٣.

(٤) الزمخشري، المفصّل (مصدر سابق) ص ص ٣٥ - ٣٧.

(٥) نفسه، ص ٤٨.

(٦) سيبويه، نفسه ١/٩٦.

وقد يكون علم المخاطب كافياً لحذف الخبر، وهو ركن اساسي من الجملة "النواة" فقولنا "لولا زيدٌ خرج عمرو" لايسوغ ان نذكر فيه خبر المبتدأ لكثرة الاستعمال وعلم المخاطَب به (١). وقال ابن يعيش: الكلمةُ إذا كثر استعمالها جاز فيها من الحذف والتخفيف مالم يجُزْ في غيرها (٢). وقد يكون لكثرة الاستعمال اثر في الحركات، كبناء اينَ على الفَتح طلباً للخفة وتجنُّباً للثقل، وكذلك "ثم" و "إن" واخواتها، وقال ابن النحاس: إنما لزم إضمار الفعل في باب التحذير لكثرته في كلامِهم (٣).

وعند وقوع اللّبس في الإعراب، وهو كما قلنا منهجهم في التحليل النحوي، يلجاون إلى سياق الحال لإزالة الإبهام، وقد درج كل من ابن هشام، والمُرادي على ذلك في النظر إلى الجملة التي تقع بعد المعرفة غير المَحْضة، وهل هي جملة حالية او جملة وصفية، ومثالهم في ذلك الاية "وآيةٌ لهم الليلُ نسلخُ منهُ النهارَ" (٤) وكذلك قول الشاعر "ولقدْ امرُّ على اللئيمِ يسُبُّني". فجملة "نسلخُ"، وجملة "يسبُّني" حالٌ اذا كان المقصود بالليل، او اللئيم، ذاتاً معينة يعرفها المخاطَبُ وهي صفة اذا كان يعني بها التعريف الجنسي الذي يُشْبِهُ النكرة، فهو يقصد باللئيم اي رجل يتصف بذلك، وبالليل اي ليل (٥).

---

(١) نفسه، ١٢٩/٢ - ١٣٠.

(٢) السيوطي: الاشباه والنظائر، مصدر سابق، ٣٣١/١.

(٣) نفسه ٣٣٣/١.

(٤) سورة ياسين: الاية ٣٧.

(٥) المرادي: بدر الدين الحسن بن قاسم (٧٤٩هـ): رسالة في جمل الإعراب، تحقيق د. سعير خليفة، مصر، ط ١، ١٩٨٧، ص ص ٦٤- ٦٥.

وفي الحديث عن "سياق الحال" واثره في دراسة تراكيب العربية، يقفز إلى الذهن القول المأثور عن البلاغيين "لكل مقام مقال"، بيد ان النحويين كانوا السبّاقين - في الواقع - لإدراك الصلة القوية بين ملابسات الحدث الكلامي وفحواه وطريقة اخراجه، ونظمه. ومما لاشك فيه ان حديثهم عن ادوات النداء، واستخدام بعضها للقريب والآخر للبعيد، ثم تناوب هذه الادوات واستخدامها فيما لم تُوضَعْ له شئ من وجوه التحسّس لهذه الملابسات(١). ويذهب ابن السراج في كلامه على اسلوب النُّدبة للقول بان هذا الاسلوب خاص بالنساء (٢)، ولسنا بحاجة إلى التاكيد على ان مثل هذا النظر شكل من اشكال مراعاة "المخاطَب" بصفته عاملاً من العوامل السياقية في الخطاب.

وفسّروا كثيراً مما يعرض للكلام من تغيير في الرُّتْبَةِ تقديماً او تاخيراً بالعودة إلى الملابسات الخارجية للخطاب(٣)، وليس ثمة فرق بين كلام النحويّين والبلاغيّين على تبديل الرتبة بين المسند إليه والمسند، فكلاهما يردّه إلى عوامل سياقية، وقرائن في مقدمتها قرائن الاحوال والمقامات(٤). اما اثر القرائن الحالية في استبدال الغرض الدلالي من التركيب النحوي فقد سبق إليه النحاة كذلك. وكان سيبويه اول من تنبّه إلى كون الاستفهام الذي يبدا بادوات معينة ليستدعي جواباً من المخاطَب، قد ينحرف عن ذلك ليَسْتَفْهِمَ به العالِمُ

---

(١) ابن السراج: الاصول في النحو (مصدر سابق) ١/٣٢٩ و ٣٣٨.

(٢) نفسه ١/٣٥٨ وانظر ابن يعيش: شرح المفصل ٢/١٤.

(٣) ابن السراج: نفسه ٢/٢٤٥ - ٢٤٦.

(٤) سيبويه: الكتاب ١/٣٤ وص ٥٦ وانظر = القزويني: التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٣٢م (وهو تاريخ المقدمة) ص ص ٥٣ - ٥٤ وانظر ايضاً ص ٧٤ وص ٧٥ وص ١٠٤ ومما يلاحظ ان البلاغيين يذكرون الشواهد التي يذكرها النحاة.

عن الشئ مع علمه به (١)،وهنا تكون الوظيفة النحوية للاستفهام قد توارت لبيان دلالة جديدة يفيدها القول اعتماداً على القرينة الحالية. وهذا ماتوسّع في بحثه البلاغيون، فانشاوا له مصطلحات: كالتوبيخ والتقرير والاستبطاء، والإنكار وغير ذلك مما يستفاد من المقامات(٢). وهو غير قاصر على الاستفهام بل يندرج على الصيغ الإنشائية الاخرى من امرٍ ونهيٍ ونداء، وتمنٍ (٣).

نخلص مما تقدم إلى القول بان اللغويين العرب قد درسوا تركيب الجملة، ونظم العبارة، دراسة تقوم على مراعاة القرائن السياقية، مقاليّةً كانت او حالية. وقد استخلصوا من هذه الدراسة وجود مجموعة من العلاقات التاليفية التي تجعل سياق الجملة ينتظمها خطاب واحد، سياقاً مترابطاً متلاحماً يفسر بعضه بعضه الآخر، ويقدم التعليل لكثير مما يسوده من احكام نحوية. ومن بين هذه العلاقات: المجاورة، والوصل واللزوم والرتبة والحذف لوجود دليل على المحذوف والمطابقة، والاستبدال بوضع مفرد مكان جملة او تاويل ماهو محتاج إلى التاويل. وسنتناول هذه العلاقات بشئ من الدراسة، اعتماداً على تجلياتها في المصادر النحوية.

---

(١) سيبويه: نفسه ١/٣٤٣.

(٢) د. احمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ط ١، ١٩٨٣، ١/ ص ص ١٨٣ - ١٩٤.

(٣) نفسه: ١/ ٣١٣ - ٣٢٣ وانظر كذلك: شرف الدين الطيبي: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، تحقيق هادي العلاني، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٧، ص ص ١٦٤ - ١٧٧.

العلاقات السياقية وتاليف العبارة :

١ - علاقة المجاورة

من ابرز العلاقات السياقية التي كان لها تاثيرها الواضح في تحليل الاحكام النحوية ، وتفسيرها ، مايعرف بالمجاورة ، او الحَمْل على الجوار . وقد تحدث سيبويه عما سماه : "الجَرْيُ على المَوْضع" ، اي اعراب الكلمة بحسب موقعها النحوي ، و"الجريُ على الجوار" وهو اعراب الكلمة اعرابا ً يناسب مايجاورها ، بصرف النظر عن وظيفتها النحوية . فقالوا : "هذا جُحْرُ ضبٍّ خربٍ" ، ونحوه (١) . ومنه إعمال الفعل في الاسم الذي يليه في باب التنازع مراعاة للجوار كما في قولهم : "ضربت وضربني زيد" . او "ضربني وضربت زيدا ً" . ففي هذا "تَحْمِلُ الاسمَ على الفعل الذي يليه ، فالعامل فيه احد الفعلين ، وقد يُعلم انّ الاولَ وقع ، إلا انه لايعمل في اسم واحد نَصبٌ ورفعٌ ، وإنما الذي يليه اولى لقرب جواره"(٢) .

وفي باب آخر من النحو هو باب الاشتغال يقول سيبويه : "رايت زيدا ً وعَمْراً كلّمته ، نُصب عمروٌ هنا ليجري مجرى الذي قبله ، وهو "زيدا ً" ، ويقول : وهذا اوْلى ان يُحْمل عليه لمّا قرب جوارُه منه "(٣) . وقد يعامل الاسم الذي يلي اسم لا النافية للجنس حَمْلا ً على المجاورة ، فيقال : لارجلَ ظريف عندك" . وهو في رأي ابن جني حَمْلٌ على الجوار اللفظي ، بدلا ً من الحمل على المعنى في قولهم : لارجل ظريفا ً عندي(٤) .

---

(١) سيبويه : الكتاب ١/٦٦ - ٦٧ والخصائص ٣/٢٢٠ .

(٢) نفسه ١/٧٣ - ٧٤ .

(٣) نفسه ١/٨٨ - ٨٩ .

(٤) ابن جني : اللمع في العربية (مصدر سابق) ص ٤٦ .

وقد تشمل علاقة المجاورة فصائل نحوية اخرى كالنعت، والتوكيد، وعلى هذا خرّج ابن هشام قولَ الشاعر (من البسيط).

يا صاحِ بلّغ ذوي الحاجاتِ كلّهم انْ لَيْسَ وَصْلٌ إذا انحلّت عُرى الذَّنَبِ

فقوله "كلّهم" توكيد لذوي لا للحاجات، وإلا قال كلّهن، وذوي منصوب على المفعولية، وكان حق كلّهم النَّصْب، ولكنه خفض لمجاورة المخفوض(١). وجاء في المعطوف قوله تعالى: "وامسحوا برؤوسكم وارجلكم إلى الكعبين" في قراءة من جرّ الأرجل لمجاورته للمخفوض وهو الرؤوس، وكان حقّه النصب كما في قراءة الجماعة.

وقد اجمع النحاة على ان الشئ يُعطي حكم الشئ إذا جاوره. وهذا في راينا تقدير منهم لتاثير عناصر التركيب في بعضها بعضا، وانتظامها في سياق تتفاعل فيه الكلمات ضمن العلاقات النحوية المختلفة. وهذا موجود في ابواب من النحو كثيرة، كاختيار البصريين إعمال الفعل الثاني من باب التنازع مراعاة للقرب والمجاورة، ويذهب فريق منهم إلى القول بان المجاورة قد توجب احكاما يخالف فيها الثاني الأول في المعنى، ومن ذلك قولهم: (إني لآتية بالغدايا والعشايا)، وهو كثير(٢). ويذهب الكوفيون إلى ان جواب الشرط جُزم لمجاورته المجزوم، وهو فعل الشرط(٣).

على ان النحاة اشترطوا للحَمْل على المجاورة شروطا، ومن هذه الشروط امْنُ اللَّبس(٤).

---

(١) ابن هشام، شرح شذور الذهب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، القاهرة، بلا تاريخ، ص ٣٣١.

(٢) السيوطي، الاشباه والنظائر، مصدر سابق، ١/ ص ص ١٧٧ - ١٨٠.

(٣) نفسه ١/ ١٨٠.

(٤) فهمي حسين النمرا، ظاهرة المجاورة في الدراسات النحوية، دار الثقافة للطباعة، القاهرة، ط ١، ١٩٨٥ ص ص ١٢ - ١٣.

٢ - علاقة الترابط

اهتم النحاة بترابط عناصر الجملة ، واسندوا إلى بعض الحروف والأدوات وظيفة مهمّة هي صياغة الجملة وسكبها في نسق متكامل. وتحدث عبد القاهر الجرجاني عن اتحاد اجزاء الكلام واتصال بعضه ببعض، واشتداد ارتباط الثاني منها بالأول، واحتياج الجملة إلى ان تكون موضوعة الوَضْع الذي يناسب صيغتها في النفس(١).

وغالباً ما تكون الحاجةُ إلى الروابط ماسّةً عندما تكون الجملة جملة ممتدة ، تتالف من وحدات تركيبية ، او جمل قصيرة ، ويتم ادخال هذه الروابط منعاً لتشتت العبارة ،فحكم الفاء مثلاً ان تاتي رابطة مابعدها بما قبلها. وتقوم هذه الفاء بوظيفتها في الجمل المبدوءة بالنّكرة الموصوفة ، او بالمعرفة الموصولة ، بشرط ان تتضمن صلتها معنى الشَّرط(٢)، مثل قوله تعالى: "والذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار، سراً وعلانية ، فلهم اجرُهم عند ربهم"(٣).

وتقوم "ال" التعريف، المسماة "بال العهدية" بوظيفة الرّبط بين المرجع، والشئ العائد عليه ، وهذا الضرب من الربط ينشا اذا ذكر شئ، ثم يعود المتكلم لذكره ثانية فيقول "الرجل" او يقول "الدار" كانه قد قال: "كان عندي رجل من امره كذا وكذا" فإن اراد العودة لذكره قال: "وفعل الرجل" للعهد الذي كان بينه وبين المخاطب من ذكره (٤).

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز (مصدر سابق) ص ٧٣.

(٢) ابن جني: سر صناعة الإعراب (مصدر سابق) ١/٢٥٤.

(٣) الاية : ٢٧٤ من سورة البقرة.

(٤) ابن السراج: الاصول في النحو (مصدر سابق) ١/١٥٠.

ويشترط النحاة في تركيب البدل ان يكون ثمة ضمير يعود على المُبْدل منه ؛ فهذا الضمير هو حلقة الوصل بين جزئي التركيب؛ وهو الذي يسلكهما في سياق، لاسيما البدل الذي يسمى ببدل البعض، نحو: اكلت الرغيف ثلثه ، او نصفه . ومنه قوله تعالى: (ثم عَموا وصمّوا كثير منهم (١)) واذا لم يذكر الضمير صراحةً عرف تقديراً ، ومنه قوله تعالى: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) (٢). اذ التاويل من استطاع منهم ، وهذا ينطبق على بدل الاشتمال، فلا بد من ضمير يعود على المُبْدل منه (٣)، نحو قوله تعالى: "يسالونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه "(٤).

وقد أولى النحاة مسالة الرّبط بين طرفي التركيب بواسطة الضمير شيئاً من الاهتمام والعناية ، فكثر حديثهم عن العائد ، لكونه من العناصر التي تجعل اجزاء الجملة ممتدّة ،يتعلّق بعضها ببعض تَعلُّقَ حلقات السلسلة . ومن المعروف ان الضمير يعود من جملة الخبر على المبتدا ، ومن جملة الحال على صاحب الحال، ومن جملة النّعت على المنعوت، ومن جملة الصلة على الموصول، فيجعل الجملة في كل حالة من هاته الحالات واضحةَ الوظيفة ، غيرَ معرَّضة للَّبْس(٥).

وقد يذهب بعض النحاة ، كالكوفيين، إلى اشتراط العائد في الخبر اذا كان اسماً جامداً ، نحو: "زيدٌ اخوك". فلابد في مثل هذا

---

(١) سورة المائدة : الاية ٧١.

(٢) سورة آل عمران: الاية ٩٧.

(٣) الاشموني: ٤٣٦/٢

(٤) سورة البقرة : الاية ٢١٧.

(٥) تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها : ١١٣.

التركيب من ضمير يعود على المبتدإ (١). ويؤكد ابن الحاجب على ضرورة الضمير العائد في الخبر اذا كان جملة، فإذا خلت من الضمير لم يجز ان تكون خبراً (٢). ومثلما يحتاج الموصول إلى الصلة يحتاج إلى العائد، وقد يسوغ حذف العائد في بعض التراكيب إلا ان النحاة اشترطوا وجود مايُدلّ عليه، وان لايترك حذفه لبساً في الخطاب(٣). وهو شرطٌ ينطبق ايضاً على الضمير العائد في جملة الخبر، فلا يسوغ حذفه إلا ان يكون في الكلام مايدل عليه، او قرينة حال(٤).

ولابد في الحال - كما اشرنا - من ضمير يعود على صاحبه، لان الحال - في راي النّحاة - صفة في المعنى، وما يلزم في الصفة يلزم فيه، وما يجوز في الصفة يجوز في الحال. وإن لم يكن الضمير موجوداً فهو مقدّر كما في قوله تعالى: "هذا ذِكْرٌ وانّ للمتقين لحسن مآب، جنات عدن، مفتّحة لهم الأبواب"(٥). اذ التقدير مفتحة لهم الأبواب منها (٦).

ويؤكد النحاة تاكيداً شديداً على وظيفة الضمير في ربط عناصر السياق المتقدم منها باللاحق،وقد ذُكر أن ضمائر الغيبة منها

---

(١) ابن الانباري: الإنصاف في مسائل الخلاف ١/٥٥.

(٢) ابن الحاجب: الامالي النحوية (مصدر سابق) ص ٨٠.

(٣) ابن ابي الربيع: البسيط في شرح جمل الزجاجي، تحقيق عياد بن عيد الثبيتي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٦ جـ ١/٢٨٣.

(٤) نفسه ١/٥٦٥.

(٥) سورة ص الايتان ٤٩ و ٥٠.

(٦) ابن ابي الربيع: نفسه ٢/ ١٠٩٥.

مايفسّر المتقدم عليها نحو: "زيد ضربته" ومنها مايضمر على شريطة التفسير مثل ضمير الشان في: "قل هو الله احد"(١). والضمير في مثل "نعم" و "بئس" وفي باب التنازع: نحو ضربني وضربت زيداً. وقد يعود الضمير على ماهو متقدم تصريحاً او تلميحاً، ومثاله قوله تعالى: "وإن تشكروا يرْضَهُ لكم"(٢) فالهاء عائدة على الشكر، ولم يتقدم ذكره، وإنما تقدم ذكر ما يقتضيه،لإن الفعل تشكرون يقتضي الحدث، وهو الشكر، ويعود الضمير على الذي يقتضيه سياق الكلام. ومثاله ايضاً قوله تعالى: "فإن كنّ نساءً فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ماترك"(٣) أي الميّت، لان الكلام في باب ذكر الإرث، ولايكون الإرث إلا عن ميت(٤).

وقد يكون الربط بين اجزاء التركيب الواحد باستخدام اسلوب من اساليب الاستئناف او التوكيد او الإيضاح وما قارب ذلك من اساليب. ففي الجملة الواقعة حالاً قد تطرح الواو، ويستغنى عنها إذا عَمَد المتكلم للفعل الواقع في صدرها فضمّه إلى الفعل الاول في اثبات، وقد تكون جملة الحال مستانفاً بها دون قصد ان تضم إلى الفعل الاول فإذا قيل: "رايت زيداً وسيفُه على كَتِفه" كان المعنى اثبات المجئ والرؤية، ثم استانف القائل خبراً وبدأ اثباتاً لكون السيف على كتفه، فلما كان على الاستئناف احتيج معه إلى مايربط

---

(١) سورة الإخلاص: الاية رقم (١).

(٢) سورة الزمر: الاية ٧.

(٣) سورة النساء: الاية ١١.

(٤) ابن ابي الربيع: نفسه ١/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٥) ابن الزملكاني: التبيان في علم البيان، تحقيق د. احمد مطلوب، وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٩٦٤ ص ص ١٢٣ - ١٢٤.

الجملة الثانية بالأولى، فجئ بالواو، كما جئ بها في قولنا "زيد منطلق وعمرو قادم". وتسميتها "واو الحال" لايخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة الى جملة، ونظيرتها الفاء في جواب الشرط.

قد ينشأ الربط بين الجملتين بالعطف، سواء بعطف الجملة على الجملة، او المفرد على المفرد، وقد يكون الربط بالتوكيد، كأن تكون الجملة الثانية توكيداً وتفسيراً للأولى، وهذا يُغني عن أدوات الربط من واو، او فاء، او ثم وغيرها. ومثال ذلك قوله تعالى: "ماهذا بشراً. إن هذا إلا ملك كريم"(١). فقوله: "إن هذا إلا ملك كريم" مؤكد لقوله السابق "ماهذا بشراً". لذا لم يكن بحاجة إلى الواو، فإن كونه ملكاً ينفي كونه بشراً، ولأن العرف - فيما اذا قيل ماهذا بشراً - ان يفهم منه انه ملك كريم. وانه يُكْنى به عن ذلك فيطابقه الثاني حينئذٍ لامحالة (٢). وقد يأتي التأليف بين المفردات واجزاء العبارة في سياق كلامي متماسك بواسطة حرف التوكيد (إنّ) وهو شائع الاستعمال، كثير التداول، في ربط اجزاء العبارة، ومن هذا قول الشاعر (من الرجز):

فغنّها، وهيَ لَكَ الفداءُ إنّ غناءَ الإبلِ الحِدَاءُ

ومنه قوله تعالى: "وصلِّ عليهم، إن صلاتك سَكَنٌ لهم (٣)" فالجملة الثانية بيان لمعنى امر النبي بالدعاء لهم، وقد ربط بين الجملتين، كما يقول صاحب "التبيان": ربطاً قوياً ظاهراً (٤). وقد ينشأ الاتساق بين اجزاء الكلام من وحدة المعنى التي تشيع في

---

(١) سورة يوسف، الاية ٣١.

(٢) ابن الزملكاني، نفسه ص ١٤١.

(٣) سورة التوبة، الاية ١٠٣.

(٤) ابن الزملكاني، نفسه ص ص ٨٩ - ٩٠.

الالفاظ بحيث تنتقى كل لفظة من البيت انتقاءً يُعمّق المعنى ويؤكده ، كما في قول الشاعر (من البسيط)

قومٌ، إذا استَنْبَحَ الاضيافُ كلبُهم قالوا لأمّهِمُ: بولي على النّار

فالتاليف في البيت يتاتى من كونه يحتوي الهجاء في كل لفظٍ من الفاظه (١). وقد يأتي الاستغناء عن الرّوابط اقوى من وجودها في تحقيق التماسك الشكلي للعبارة ، ومن ذلك قول الشاعر (من الوافر).

زَعَمَ العواذلُ انّني في غَمْرة ، صَدَقوا ، ولكنْ غَمْرَتي لاتَنْجَلي

فلمّا حكى عن العواذل زَعْمَهم ، جرَّ ذلك سؤال السامع عن صدقهم فجاءت الجملة "صَدَقوا"، في الموقع الذي كان اطّراح العاطف فيه أو الرابط ابلغ من وجوده (٢).

وقد عُنِيَ النحاة بالروابط، ويكفي ان نذكّر بقول السيوطي فيما يربط جزئي الجملة الاسمية بوجود عشرة روابط، اولها الضمير (٣)، دليلاً على هذه النظرة الاستقصائية ، والتامل الدقيق لتماسك العبارة ، وتلاحم أجزائها في التاليف. ومن الواضح ان بعض اللغويين تاثر بارسطو، وبحديثه عن الربط بين أجزاء التركيب الكلامي، والاستغناء عنه في بعض التراكيب مما يقع تحت باب معرفة الفصل من الوصل بعبارة الجرجاني. وكان ارسطو قد ذكر في "الخطابة" مايفيد ان الاستغناء عن ادوات الربط والعطف قد يكون مزية لاتتحقق بوجود هاتيك الادوات، ففي الاستغناء يستطيع المتكلم - في الوقت نفسه - قول اشياء كثيرة ، بعكس الوصل الذي يضم اشياء عدّة في وحدة واحدة (٤).

---

(١) نفسه ، ص ٩٢.

(٢) ابن الزملكاني، نفسه ص ١٤٣.

(٣) السيوطي، الاشباه والنظائر، مصدر سابق، ٢/ ص ص ٦٤ - ٦٥.

(٤) ارسطو، الخطابة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٠، ص ٥٣٢.

٣ - التـــلازم :

ومـــن حســـن التـــاليف فـــي العبـــارة ان يـــراعي المتكـــلم مابين اجزائهـــا مـــن علاقة التضام او التلازم . وفي هذا الصَّدد يقول القاضي عبـــد الجبـــار "إعلـــم ان الفصاحـــة لاتظهرمن إفراد الكلام ، وإنـــما تظهر بـــالضم عـــلى طريقـــة مخصوصـــة ، ولابـــد مع الضّم من ان تكون لكل كلمة صفة "(١) ولاشك في انه يعني بالصفة مكانتها من الكلمات الاخرى، وهل هـــي لازمـــة لتلـــك الكلمة او غير لازمة ، كلزوم المضاف إليه للمضاف، والنعـــت للمنعـــوت، او صفة اعرابية كالحال من صاحبه ، والتمييز من المميَّز ، وقد تكون الصّفة موقعاً ، كموقع الفاعل من الفعل والمجرور مـــن حـــرف الجـــر . وعليـــه فـــإن اجزاء الجملة في نظر القاضي كحلقات السلسلة كل حلقة منها تؤدي إلى التي تليها .

وكـــان سيبويه قـــد تنبّـــه في كتابه إلى هذا الجانب من اسرار الـــتركيب النحـــوي فـــي العربيـــة . فقد تحدث عن لزوم المسند للمسند إليـــه ، مؤكـــداً ان احدهما لايغني عن الآخر ، وان المتكلم لايجد بداً منـــه ابداً . ومن ذلك المبتدا والمبني عليه ، ولابدَّ للفعل من الاسم ، ولابد للاسم الأول من الآخر في الابتداء (٢) . ومنه لزوم الخبر للاسم مع كان ، وصار ، ومادام ، وليس. يقول سيبويه : "ولايجوز فيه الاقتصارُ على الفـــاعل "يعنـــي الاسم" كمـــا لم يَجُز في ظَنَنْتُ الاقتصارُ على المفعول الأول ؛ لأن حـــالك في الاحتياج إلى الآخر "يقصد الخبر" ههنا كحالك في الإحتيـــاج إليه ثَمّة "(٣) .

---

(١) القـــاضي عبد الجبار : المغني في ابواب التوحيد والعدل ، تحقيق محمد امين الخولي، القاهرة ، ط ١، ١٩٦٠ ج ١٦ ص ١٩٧ .

(٢) سيبويه : الكتاب ١/ ٢٣ .

(٣) نفسه : ١/ ٤٥ .

ويُفهم من التلازم واللزوم لصوق لفظ بلفظ آخر، واحتياجه إليه، بحيث يستحيل الفصل بينهما او استبدال احدهما بالآخر. وفي هذا الصدد يذهب ابن جنى إلى القول بان الفعل والفاعل كالمتلاصقين لايُفْصَل بينَهما، و خَيْرٌ دليل على ذلك أن الفاعل قد يكون جزءا من الفعل كما هو الحال في "ضربتُ و "ذهَبْت" و "خرجْت" فالتاء هنا بمنزلة الراء من جعفر. وفي بعض الصيغ يقدمون الفاعل على علامة اعراب الفعل، نحو: يقومان، ويقومون. فالف الاثنين، وواو الجماعة، وهما فاعلان، قدما على نون الإعراب التي هي علامة رَفْع الفعل. بل ثمة صيغ جعلوا فيها الفعل والفاعل كلمة واحدة مثل "حَبّذا" فإذا انفصلا لم يكن شيئا. ومن شدة لصوق الفعل بالفاعل وتلازمهما عدت علامات التانيث وهي لواحق تطرا على الفعل دالة في الوقت نفسه على الفاعل، لان الفعل لايؤنث وإنما الفاعل هو الذي يؤنث(١).

وقد تكلم النحاة على استعمالات لغوية لايجوز الفصل فيها بين كلمة واخرى؛ لما بينهما من الترابط واللصوق. فاسم لا النافية للجنس لايسوغ ان تفصل بينه وبينها بحشو، فإذا فصلت بينهما احتاج الامر إلى تكرارها، كما في قوله تعالى: "لا فيها غَوْلٌ ولا هم عنها ينزفون" (٢). ولابد في مثل هذا الاستعمال من إعادة لا ثانية (٣).

وذكر اكثر النحاة استحالَة الفَصل بين المضافِ والمُضاف إليه بغير الظّرف او الجار والمجرور، وقد استشهد الكوفيون بقليل من

---

(١) ابن جنى: سر صناعة الإعراب، مصدر سابق، ١/٢٧٦ - ٢٣٠.

(٢) سورة الصافات، الاية ٤٧.

(٣) سيبويه، الكتاب ٢/٢٩٨.

الأمثلة التي خالف فيها الشعراء هذه القاعدة. ففصلوا بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف؛ أو الجار والمجرور. ولكن النظر في أمثلتهم هذه يؤكد أن الفصل فيها من قبيل الضرورة في الشعر. أما الأمثلة التي استشهدوا بها من الكتاب الكريم فهي قراءات واهية. وقد وقع الإجماع على امتناع الفصل بينهما في حال الإختيار (١)، وقد أجاز بعضهم - كما مر بنا - الفصل بالظرف، كقول عمرو بن قميئة من الرجز:

لله دَرُّ اليومَ مَنْ لامَها (٢).

وقد يحذف المضاف، ويحلّ المضاف إليه محلّه، ويقيمونه مقامه، ويعربونه بإعرابه، والمثال منه قوله تعالى: "واسأل القرية" ولكن لهذا شرطاً وهو أن يدل سياق الحال على المراد، وأمن اللبس. فلا يعقل أن تكون القرية هي المسؤولة وإنما أهلها هم الذين يسألون. ولا يقال "رأيت هنداً" على نية أن يكون المراد "رأيت غلام هند" لأن المقام لايُزيلُ اللَّبس(٣).

وفي الجُمَلِ المركبة، التي تتألف الواحدة منها من جملتين فأكثر، كالشرطية، والموصولة، لابد من الوفاء بمتطلبات التركيب باستكمال السياق.

فجملة فِعْل الشرط تحتاج إلى جملة الجواب، وهي ملازمة لها. ويقول ابن جنّي بهذا الخصوص: وبعض الجمل يكون محتاجاً إلى جملة ثانية احتياج المفرد إلى المفرد، وذلك كالشَّرط وجزائه، والقَسَم

---

(١) ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف، مصدر سابق، ١/٤٣٥.

(٢) الزمخشري: المفصل (مصدر سابق) ص ٩٩. وابن أبي الربيع: البسيط ٢/٨٨٩.

(٣) نفسه، ص ١٠٣.

وجوابه ، فالشرط نحو قولك: ان قام زيد قام عمرو ، والقسم نحو قولك: اقْسَم لَيَقومَنَّ زَيْد . فهذا التلازم كالذي يكون في جملة "زيد اخوك"، او "قام ابوك"(١). والموصول لابد له من جملة صلة تتضمن ضميرا يعود على الموصول. ولايجوز الاستغناء عن هذا العائد باي حال(٢). وللصلة وموصولها علاقة خاصة ، إذ لايجوز ان تتقدم على الاسم الموصول ابدا". وروعي فيها اشياء كثيرة مما يتصل بسياق الحال ، فيجب ان تكون معهودة او قريبة من المعهودة ، وإلا لم تصلح ان يكون المخاطَب على علم بشئ منها . نحو قوله تعالى: "فغشيهم من اليم ماغشيهم"(٣). ونحو قوله : "فاوحى إلى عبده ماأوحى"(٤). ويجب ان يكون الضّمير لائقا بالموصول ، اي مطابقا من حيث العدد ، والجنس، ليحصل الربط بينهما على ماهو مطلوب من الانسجام والقوة .(٥)

٤ - التعلق

ويشير عبد القاهر الجرجاني إلى التعلّق في كتابه دلائل الإعجاز ، وهو يعني بالتعلق اخذ الكلمات بعضها بحجز بعض، واغلب الظن أن التعلق - في رايه - يختلف عن التعلق الذي قصد به النحويون ارتباط اجزاء من العبارة ببعضها ارتباطا نحويا

---

(١) ابن جني، الخصائص (مصدر سابق) ١٧٨/٣ وابن السراج، الاصول (مصدر سابق) ٥٨/١.

(٢) الاشموني، ٧٨/١.

(٣) سورة طه ، الاية ٧٨.

(٤) سورة النجم ، الاية ١٠.

(٥) الاشموني، نفسه ٧٤/١.

صارماً (١)، كارتباط الجار والمجرور بالفعل او ما يشبهه فإذا لم يوجد المتعلّق ذكراً وجد تقديراً (٢) (ففي قوله تعالى: "انعمت عليهم، غير المغضوب عليهم (٣)" تعلّق الجار والمجرور الاول "عليهم" بالفعل "انعم" والثاني "عليهم" باسم المفعول المنصوب. وقد غالى النحاة في شرط التعلق بحيث اذا لم يكن في الجملة فعل او مايشبهه تاولوه تأوّلاً، كما في قوله تعالى "وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله" (٤). وقالوا: تعلّق الجار والمجرور بمتاول الإله، وهو "معبود" (٥). وقد يعود التعلق إلى فعل محذوف يتمّ عليه السياق، ففي قوله تعالى: "وإلى ثمود اخاهم صالحاً" (٦). فهو بتقدير وارسلنا، مع انه لم يتقدم ذكر الإرسال وإنما تقدم ذكر النبوّة والمرسل إليهم يدل على ذلك. وقد لاحظ النحاة ان المتعلق يحذف في حالات لايحتاج معها إلى التقدير، كان يكون الجار والمجرور في موقع الصفة نحو "وخرج على قومه في زينته" (٧). او في موقع الحال، او الصلة، او الخبر (٨).

---

(١) تمام حسان: اللغة العربية ومعناها ومبناها، (مرجع سابق) ص ١٨٩.

(٢) ابن هشام: مغني اللبيب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار التراث العربي، بيروت، دت، ٢/٤٣٣.

(٣) سورة الفاتحة، الاية ٧.

(٤) سورة الزخرف، الاية ٨٤.

(٥) ابن هشام: مغني اللبيب ٢/٤٣٤.

(٦) نفسه ٢/٤٣٦.

(٧) سورة القصص، الاية ٧٩.

(٨) مغني اللبيب، ٢/٤٤٥ - ٤٤٦، وانظر - السيوطي: الاشباه والنظائر ١/٢٨٣ - ٢٨٤.

وثمة انماط من التركيب الجملي لابد فيهامن ان يكون الجار والمجرور مقدراً ولايسوغ إظهاره ، ففي الجمل المبدوءة بافعال القلوب، نحو: "أو لم يتفكروا مابصاحبهم من جنة "(١) وقوله: "فلينظر ايها ازكى طعاماً "(٢) وقوله: "سيسالون ايّانُ يوم الدين "(٣) لانه يقال فكرتُ فيه ، وسالت عنه ، ونظرت إلى، ولكنها عُلّقت هنا بالاستفهام عن الوصول باللفظ إلى المفعول، وهي - من حيث المعنى - طالبة له على معنى ذلك الحرف(٤).

٥ - سياق التقديم والتأخير:

وليس ثمة ماهو احرى بالدراسة واجدر من الرتبة في تاليف العبارة ، فهي من العلائق السياقية المهمة التي تبرز لنا المنزع التحويلي في الدرس النحوي العربي، وقد كان عبد القاهر الجرجاني يولي هذه العلاقة اكبر قدر من اهتمامه في دراسته للبيان ووجوه الإفصاح، من زاوية الدلالة ، في حين ان النّحاة اولوها الاهتمام من باب العلاقة بين المسند والمسند إليه ،او المبتدا والخبر ،او الفعل وفاعله ، او المفعول والفعل وغير ذلك. ويؤكد سيبويه - ابتداءً ، ان في النحو اشياء ليست عرضة للتقديم والتاخير، فهي إن كان من حقها المدارة لاتُؤخر وإن كان من حقّها التاخيرُ لاتُقدم. فالادوات من شانها التّقدم، فتقول ماأحسن عبد الله ، ولايجوز ان تُقدم عبد الله وتؤخر ما. ولايمكنك في مثل هذه الاستعمالات ان تزيل شيئاً عن موضعه (٥). ويؤكد هذا الراي مايقوله المُحْدثون من حيث ان بعض

---

(١) الاعراف: ١٨٤.

(٢) سورة الكهف: الاية ١٩.

(٣) سورة الذاريات: الاية رقم ١٢.

(٤) ابن هشام: نفسه ٤١٦/٢.

(٥) سيبويه: الكتاب ٧٢/١ و ٧٣.

المكونات تنزع إلى احتلال صدر الجملة، والموقع الأول منها على وجه التحديد، على الرغم من أي اجراء يمكن اللجوء إليه لعكس الترتيب(١).

وقد أوضح هذه الظاهرة عدد من النحاة، يقول السيوطي: كل مايغير معنى الكلام، ويؤثر في مضمونه، وإن كان حرفاً، فمرتبته الصدارة، كحروف النفي، والتنبيه، والاستفهام، والتحضيض، وإن واخواتها وغير ذلك. وكذلك الأسماء المتضمنة للمعاني تقتضي الصدارة وإن لم تكن معارف، لهذا تتقدم الإشارة على العَلَمِ في قولك "هذا زيد"، وإن كان العَلَمُ أعْرَف(٢).

وقد أكّد سيبويه، في غير موضع، إن التقديم والتاخير في العربية من الأساليب التي يلجا إليها المتكلم للتنويع في الكلام، وتقديم ماهو اكثر اهمية على المُهم. فمن حيث المعنى ليس ثمة فرق بين قولك: "إن اسداً في الطريق رابض" او قولك "إن في الطريق اسداً رابضاً" او قولك: "في الطريق اسد" رابض"(٣). ولكن الفرق يندرج في مجال الفروق الهامشية بين وظيفة اللفظة في هذا الموقع ووظيفتها في موقع آخر.

ونحو ذلك الجملة الفعلية، فإذا قدّمت المفعولَ واخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول؛ وذلك قولك: ضرب زيداً عمرو، لانك إنما اردت به مؤخراً ما اردت به مقدماً، وهو عربي جيّد كانهم إنما يقدمون الذي بيانه اهمّ لهم، وهم ببَيانِه اعنى"(٤). وكانت دراسة

---

(١) احمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٨٦، ص ٤٩.

(٢) السيوطي: الاشباه والنظائر ١/٢٦٥.

(٣) سيبويه: الكتاب ٢/١٤٣.

(٤) سيبويه: الكتاب ١/٣٤ وانظر = ص ٥٦.

سيبويه لترتيب الجملة الفعلية في العربية قريبة جداً من النتائج التي وصل إليها المحدثون. فقد اثبتت الدراسات من قديمة وحديثة ماذهب إليه سيبويه من حيث ان البنية الرُّتْبِيَة للجملة الفعلية هي البنية المكونة من فعل وفاعل ومفعول تعقبُه العناصر التي لاتحتل موقعاً يمثل مكوّنات وظيفية في التركيب(١). وقد يحدث لعلة سياقية معينة أن يتغير هذا الترتيب، فتاتي الجملة على النحو الآتي: فعل + مفعول + فاعل + ض . حيث الرمز (ض) يشير إلى العناصر التي لاتحتل موقع المكونِ المباشر للجملة . وهذا النوع من التقديم : اي تقديم المفعول على فاعله يقبَلُه القياس. وكذلك الترتيب الثالث: (مفعول + فعل + فاعل + ض) فهذا التقديم في راي النحاة تقديم قياسي، يقبل به النظام النحوي للغة في حين ان تقديم المعطوف على المعطوف عليه مثلاً ، او النعت على المنعوت، من التقديم الذي تدعو إليه الضرورة ، ويأباه القياس(٢).

ويُجْمِعُ النحاة على ان مثل هذا التبديل في الرتبة له شروط، منها امْن اللَّبس: الذي يخشى عند خفاء الإعراب، او عند اختفاء القرينة ، فلا يُعْلَمُ والحالة هذه الفاعل من المفعول، كما في "ضرب عيسى موسى" او "أكرم ابني اخي" ويقول الأشموني، مؤكداً ماسبق إليه سيبويه : "فإن امْنَ اللبس لوجود القرينة جازَ التقديم ، نحو: ضَرَبَتْ موسى سلمى. وهذا مايذهب إليه ابن السرّاج، وابن مالك، وغيرهما (٣). وقد نازع قوم في ذلك واختلفوا (٤).

---

(١) احمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٢) ابن جني: الخصائص ٢/٣٨٢ - ٣٨٣ و ٣٨٦.

(٣) الأشموني: شرح الفية ابن مالك، ١/١٧٥.

(٤) نفسه ١/١٧٦.

وفيما يتعلّق بالجملة الاسمية، فقد اجاز النحويون تقديم الخبر على المبتدا، دون ان يؤثر تبديل الرتبة في الوظيفة النحوية لكل منهما، إلا اذا كان الخبَرُ جملةً فعليةً تتضمّن ضميرا هو نفسه الفاعل، ويعود على المبتدا.

مثل جملة "زيد قام" فالخبر هنا جملة فعلية فيها ضمير (هو) مستتر يعود على زيد، فلو قلنا (قام زيد) لتغيرت وظيفة كل منهما بحيث يصبح المبتدا فاعلا ويصبح الفعل فعلا لايقوم باي وظيفة نحوية اخرى إلى جانب "الفعلية"(١). وحجة النحويين في هذا ان العامل اللفظي اقوى من العامل المعنوي(٢). واذا تطابق المبتدا والخبر من حيث التعريف، وانعدمت قرائن التقديم او التاخير ساغ ان يبدا المتكلم باي منهما، فإن شاء قدّم وإن شاء آخر، والتاخير في نظرهم اجود للخبر من تقديمه لانه معمول المبتدا، وحق العامل ان يتقدم على المعمول(٣).

ويحتاج المعرب إلى القرائن السياقية لتمييز المبتدا من الخبر في مثل هذا التركيب، والقرائن في هذه الحال إما ان تكون لغوية، او حالية، ومثال ذلك قول الشاعر ابي تمام من الطويل:

لُعَابُ الأفاعي القاتِلاتِ لعابُه وأَرْيُ الجَنى اشتارَتْهُ ايدٍ عواسِلُ

فكلمة "لعاب" في اول البيت وكذلك"لُعاب" في آخر الصدر متساويتان من حيث "التعيين" فكلاهما معرّفة بالإضافة؛ وكلاهما يمكن

---

(١) ابن ابي الربيع: البسيط في شرح جمل الزجاجي، مصدر سابق ٥٨٢/١.

(٢) نفسه ٥٨٣/١.

(٣) نفسه ٥٩١/١.

أن تكون مبتدأ او خبراً على نية التقديم او التاخير. ويقول ابن الزَّمْلَكاني، اعتماداً على المناسبة، ومراد الشاعر من المديح، لايسوغ جعل "لعاب" الافاعي مبتدأ وإن تقدمت، والمبتدأ هو لعابُه مع تاخّره، لأن غايته من البيت تشبيه مداد القلم بِسُمّ الافاعي وليس العكس(١).

فالوظيفة النحوية للكلمة هنا لاتتقرر تبعاً للموقع، تقديماً او تاخيراً، وإنما تبعاً للقرائن الخارجية التي يفزع إليها الدارس لتعليل احد الاحكام النحوية.

وقد تكلم البلاغيون في قضية تتصل بنمط التركيب الجُمْلي، وهي تبادلُ الموقع بين المُسند والمُسند إليه، وفي هذا النّوع من البحث يتداخل التحليل النحوي بالدرس الاسلوبي تداخلاً كبيراً. وكان سيبويه أول من اشار إلى هذه الظاهرة كما سبق ان المحنا في غير هذا المَوْضع.

وقد عُنى عبد القاهر بهذه المسالة عناية كبيرة. يقول في وصفه لمكانة التقديم والتاخير واثرهما في تنوع التراكيب، "هو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التّصرف، بعيد الغاية، لايزال يفترّ عن بديعةٍ، ويفضي بك إلى لطيفةٍ، ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقِعُه، ثم تنظر فتجد سبب انْ راقك ذلك ولطف عندك ان قُدم فيه شئ، وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان(٢).

---

(١) ابن الزملكاني، التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن، (مصدر سابق) ص ص ١٠٢ - ١٠٣ وانظر، دلائل الإعجاز ص ص ٢٤٠ - ٢٤١.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز (مصدر سابق) ص ٨٣.

فعبد القاهر يرى في اتباع القواعد النحوية الأساسية للتراكيب كلاماً عادياً لايروق للسامع، ولايحلو للناظر، في حين ان خرق هذا النظام بإحداث التبديل في رُتَب الالفاظ، من تقديم وتاخير، او اظهار وإضمار، او حذفٍ وذكر، وجهاً من وجوه التنوع الاسلوبي الذي يُحدث الدهشة والانبهار. لذلك عزا كثيراً من وجوه التقديم والتاخير إلى اسس نفسية وعقلية يتعرض لها المتكلم في اثناء عملية النطق، والكاتب في اثناءِ الكتابة (١). ويتوسّع في شرح الابعاد الاسلوبية لكل تقديم او تاخير يحدث في التركيب، فقولك "مافربت زيداً" نفي للضرب، وقولك "مازيداً ضربت" تسليم بحدوث الضرب، ونَفْيٌ لكون زيد هو الذي وقَع عليه الحدث(٢).

وهذا يوضّح إلى اي مدى يذهب الجرجاني في تناول التقديم والتاخير من زاوية التاثير على دلالة التركيب؛ ولكنه لايكف عن التاكيد بان التقديم والتاخير إنما هو نابع من تصرف المتكلم بقواعد النحو. فالترتيب داخل التركيب محكومٌ دلالياً ونحوياً باستثناء الترتيب الذي يقتضيه الإيقاع (٣).

والتقديم والتاخير في التركيب قد يكون محكوماً بعوامل سياقية حاليّة، اي خارجة عن البعد الداخلي للبغة. وهو في هذا يكرّر رأي سيبويه من حيث ان المتكلّم يقدّم ما هو به أعنى، وقد لاحظ في الفاعل ان عملية بناء التركيب، وتقديم بعض الالفاظ فيه طبقاً لمتطلبات السياق اللغوي يعكس المعنى. ففي قول القائل: غيري يفعل ذلك دلالة مختلفة، ومعنى مغاير، لقوله: يفعل ذلك غيري. ففي

---

(١) نفسه، ص ص ٨٤ - ٩٥.

(٢) نفسه، ص ٩٨.

(٣) احمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص ص ٧٢ - ٧٣.

القول الاول يريد ان يؤكد كونه لا يفعل هذ الشئ. وعلى هذا خرج قول الشاعر "غيري باكثر هذا الناس يَنْخَدِعُ" بقوله: إن القائل يريد ان يقول لست ممّن ينخدع ويغترّ، فتقديم غير هنا حول التركيب "البرّاني" إلى تركيب آخر يُلمَحُ لمحاً بالبصيرة (١).

وقد صاغ عبد القاهر قاعدةً تحويلية استنتاجاً من الوجوه المختلفة لاستعمال الفاظ: مِثْل، وغَيْر، يقول: "فانت الان اذا تصفّحت هذا الكلام، وجدتَ هذين الاسمين، يعني مثل وغير، يقدمان ابدا على الفعل إذا نُحي بهما هذا النحو الذي ذُكِرَت لك. وترى هذا المعنى لا يستقيمُ فيهما إذا لم يُقدّما. ولو انّك اخرتهما فقلت في بعضهما: ينخدع غيري باكثر هذا الناس، او يفعل غيري ذلك بدلاً من السابق، لَقُلِبَ الكلام عن وجهه (٢).

وقد وَقَفَ البلاغيّون على اسرار عدّة لظاهرة التقديم والتاخير، وعزوا بعض الحالات الى اسباب تختصّ برتبة المتقدّم او بزمانه او بمكانه، او لكونه عِلّةً والمتاخّر معلولة (٣) وسيطرت النزعة الاسلوبيّة على آرائهم فيما يقدّم او يؤخر من كلام تبعا لمتطلبات السياق الحالي. اما النحويون فقد وضعوا قواعد صارمة لانواع من التركيب لا تصلح ان يقدّم فيها ويؤخر بين المضاف والمضاف اليه مثلا او الفعل والفاعل بما هو اجنبي عنهما، وكلّما ازداد تلازم الجزءين، وقوي إتصالهما كان الفصل بينهما اقبح، وعن الجودة ابعد وانأى. وقد استهجَن ابو الفتح الفصلَ بين "قد" والفعل في قول الشاعر (مِنَ الوافر).

---

(١) الجرجاني، دلائل الاعجاز ص ١٠٧.

(٢) نفسه، ص ١٠٨.

(٣) ابن الزملكاني، التبيان، ص ص ١٤٧ - ١٤٩.

فَقَدْ والشَّكُّ بَيْنَ لي عناءُ بوَشْكِ فراقِهم صُرَدٌ يصيحُ.

وهذا في رأيه قبيح لقوة اتصال قد بما تدخل عليه من الاقوال (١).

ويستهجن الفصل بين المضاف (بعد) والمضاف اليه "بهجتها" بالفعل "خط" في قول الشاعر (من المنسرح).

فاصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِها كأنَّ قفراً رسومَها قلماَ.

فقد اراد الشاعر أن يقول: اصبحت بعد بهجتها قفراً كان قلماً خطّ رسومَها. ففصل بين المضاف والمضاف اليه بالفعل الذي هو (خَطَّ) وفصل فيه ايضا بين "اصبح" وخبرها "قفراً" وفصل بين كانّ واسمها (قلماً) بأجنبيَّيْن احدهما "قفراً" والآخر "رسومها"، واغلظ من ذلك تقديمه خبر كان عليها. فهذا ونحوُه مما لا يجوز لاحد القياس عليه (٢). واستقبح النحاة تقديم الجواب على المُجاب، شرطاً كان او قسماً، او غيرهما. فلا يجوز أن تقول: "اقمْ إنْ تَقُمْ"، وإنما جاز ان تقول اقومُ إنْ تَقُمْ، فاقومُ ليس جواباً للشرط وان كان يدلّ عليه. ثم يضيف: فجوابُ الشَّرْطِ مجزومٌ بنفس الشرط، ومحالٌ تقدم المجزوم على جازمِهِ (٣).

ويأبى النحاةُ ان يتقدّم المعطوف على المعطوف عليه. وقد جاء منه قول الشاعر (الوافر).

الا يا نخلةً مِنْ ذاتِ عِرقٍ عليكِ ورحمةُ اللهِ السَّلامُ (٤)

والأصل في الحال ان يكون بعد صاحبه، ويلاحظ النحويون في استقرائهم

---

(١) ابن جني، الخصائص ٢/٣٩٠ - ٣٩١.

(٢) نفسه ٢/٣٩٣.

(٣) نفسه ٢/٣٨٨.

(٤) نفسه ٢/٣٨٦.

للتركيب الحالي أن الحال إذا كان العامل فيه متصرفاً جاز تقديمه على صاحبه ، وهنا تبدو مراعاة جزءٍ من التركيب النحوي لجزء آخر متمّم له ، مستوفٍ لاركانه ، فيقال مثلاً : جاء راكباً زيد ، كما يقال : راكباً جاء زيد ،فإن لم يكن العامِلُ فيه متصرّفا لم يجز تقديم الحال فتقول:هذا زيد قائمًالان العامل فيه هوهذا(١).واوجب النحاة تقديم الحال إذا تطلب السياق اللغوي ذلك، كان يقترن صاحبها باداة الحصر في مثل قولهم : ما جاء راكباً الا زيد(٢)،إما اذا اقترن صاحب الحال بحَرْفِ الجرّ فإن تقدُّم الحال يكون مستحيلاً ، فلا يقال في مررت بهند جالسة : مررت جالسة بهند ، وعِلّة ذلك ان تعلّق العامل بالحال شان لتعلقه بصاحبه ، ومن حقّه اذا تعلق بصاحبه بواسطة ، ان يتعدى إليه بتلك الواسطة، والذي منع ذلك من المثال المذكور ان الفعل لا يتعدى بحرف الجَرّ إلى شيئَيْن ، فجعلوا التزام التاخير عوضاً عن الاشتراك في الواسطة . وذهب قوم إلى خلاف هذا مُحْتجّين بقوله تعالى: "وما ارسلناكَ الا كافّةً للناس(٣)". وقد ردّ قَوْمٌ على ذلك بان كافةً حالٌ من الكاف،والتّاءُ فيها للمبالغة ، وذكر الأشموني ان الاجماع على المَنْع(٤).

وثمة حالات لا يجوز فيها تقديم الحال ابداً ، لا سيما اذا كان صاحب الحال مجروراً بالاضافة ، لئلا يلزم الفصل بين المضاف والمضاف اليه ، وكذلك اذا اقترن الحال نفسه باداة الحصر"الا" كما في الآية :

---

(١) ابن جني: اللمع في العربية ص ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) الاشموني: ١/٢٥٠.

(٣) سورة سبأ: الاية ٢٨.

(٤) الاشموني: نفسه ١/٢٤٨ - ٢٤٩.

"وما نرسل المرسلين الا مبشرين"(١).

والاصل في التّمْييز التاخير، نحو: "فإن طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَئٍ مِنْهُ نَفْساً"(٢) وقد اجازوا عدا سيبويه تقديمَهُ إذا كان العامل في المُميَّز فعلاً، واحتجوا بقول المخبّل السّعدي (من الطويل)

اتهجُرُ سلمى بالفراقِ حبيبَها وما كانَ نفساً بالفِراق يطيبُ(٣)

ولم يجز النحويون في الغالب تقديم معمول الشرط والجزاء على حرف الشرط. فهو بمنزلة الاستفهام، والاستفهام له الصدارة، فكما لا يجوز ان يعمل ما بعد الاستفهام فيما قبله فكذلك الشرط، وبما انه لا يسوغ ان تقول: "زيداً اضْرِبْ" فكذلك لا يسوغ ان تقول" زيد إن تَضْرِبْ اضْرِبْ(٤).

وتحدث النحاة في كثير من المسائل التي يجوز فيها او يمتنع تقدم المعمول على عامله، او الشئ الفرعي على الشئ الاصلي، كتقديم المستثنى وهو فرع على المستثنى منه، في قول الشاعر:

وَمالِيَ الا آلَ احمدَ شِيعَةٌ ومالِيَ الاّ مَذْهَبَ الحَقّ مَذْهَبُ

واشاروا إلى احكام مخصوصة يستوجبها التقديم او التاخير. وبهذا المعنى فإنهم يكونون قد نظروا في تراكيب العربية، وما يعروها من تغيير بالتقديم او التاخير، اي بعكس الرتبة لاغراض دلالية او اجتماعيّة او نفسيّة او حاليّة، الا ان هذه الاغراض، مع ذلك، لا تنفكّ عن الامْتِثال لقواعد النّحو. ولكنه امتثال يعتمد خرق القاعدة

---

(١) الاشموني: نفسه ١/٢٥٠، والآية من سورة الانعام: ٤٨.

(٢) سورة النساء، الاية ٤.

(٣) ابن السراج: الاصول في النحو ١/٢٢٤.

(٤) ابن الانباري: الانصاف في مسائل الخلاف، ٢/٦٢٧.

النحوية الاساسية وتجاوزها إلى قاعدة اخرى تسمح بها مرونة النحو وطواعيته للمتكلم او الكاتب المنشئ.

على أن التقديم والتاخير، ايا كان الغرض منه، لا بد ان يخضع لشرط وهو امْنُ اللَّبْس، والانسجام مع الحالة النفسية للمتكلم من جهة وللسامع او المتلقي من جهة اخرى. ويطول بنا الامر لو اردنا أن نستقرىء حالات التقديم والتاخير وفقاء لتحديدات النحاة، لذا نكتفي بما ذكرناه في هذا الشان من امثلة وشواهد، تغني عن الكثير الجمّ مما لم نذكره.

٦ - السياق والحذف:-

الحذف من الظواهر النحوية الموجودة في اللغات جميعاء وقد تحدث عنها التحويليون بكثرة عند الكلام على العلاقة بين البنية السطحية والعميقة للجملة. ويردّ التحويليون العرب ظاهرة الحذف إلى عدة اسباب منها كثرة الاستعمال، والدوران على اللسان، وهذا شئ ذكره سيبويه واكد عليه (١) المُبرّد، وابن جني(٢) ويغلب على الحذف المعلّل بكثرة الاستعمال وقوعه في الصيغ لا في التراكيب، اي انه يعتري جزءا او اكثر من اجزاء الكلمة، وهو ما اصطلح على تسميته بالاقتطاع(٣) وقد يقع الحذف طلباء للخفة، وهو اكثر ما يقع في الجمل ذات الشطرين: كالشرط وجوابه، والقسم وجوابه.

---

(١) سيبويه: الكتاب ١/ ٢٨٠ - ٢٨١.

(٢) الخصائص ٢/٣٦٠ وانظر= ظاهر حمودة = ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة، الاسكندرية ط١، ١٩٨٨ ص ص ٢٩ - ٣٤.

(٣) حمودة، نفسه، ٣٨.

وقد خصّص ابن جني في الخصائص بابا للحذف سماه "شجاعة العربية" وقد شمل فيه الزيادة، والتقديم والتاخير، والحمل على المعنى، والمجاورة، مما يعدّ ادخل شئ في باب العلاقات التاليفية في السياق (١). ويَنُمّ صراحةً - في غير موضع - على انه ليس شئ من ذلك الا عليه دليل. فقد حذفوا الجُمْلة في قولهم: "تاللهِ لقد فعلت" وهي "اقسم" وحذفوا الجملة في مثل قولهم: "القرطاسَ واللهِ .." اي اصاب القرطاسُ، ومنه قوله تعالى: "فقلنا اضْربْ بعصاكَ الحَجَر فانفجرتْ منهُ اثنتا عَشْرة عينا" (٢). اي فَضَرَبَ، فانفَجَرَتْ (٣).

ويُعدّد ابن جني ما يحذف من العربية، فمنه المبتدا، والخبر والمضاف كقوله تعالى: "ولكن البرَّ مَنْ اتقى" (٤) اذ التقدير برُّ من اتقى (٥) ويُحذف المضاف اليه ايضا، كقوله تعالى: "لله الامر من قبل ومن بعد" (٦). اذ التقدير من قبل ذلك وبعده (٧)، ويحذف الموصوف وتنوب الصفة منابَه، واكثر ذلك في الشعر، وإنما كانت كثرته فيه دون النثر من حيث كان القياسُ يكادُ يحظره. ويشترط لحذف الموصوف ان يتضمّن الكلامُ دليلا عليهِ او شارَة حال (٨).

---

(١) الخصائص ٢/٣٦٠.

(٢) سورة البقرة: الاية ٦٠.

(٣) الخصائص ٢/٣٦١.

(٤) سورة البقرة: الاية ١٧٧.

(٥) الخصائص ٢/٣٦٢.

(٦) سورة الروم: الاية ٤.

(٧) ابن جني: نفسه ٢/٣٦٣.

(٨) نفسه ٢/٦٣٦.

وقد حذفت الصفة ، ودلت الحالُ عليها ، وذلك فيما حكاه صاحب "الكتاب" كقوله "سير عليه ليل" وهو يقصد "ليل طويل". ويعقب ابن جني قائلا: وكان هذا إنما حذفت فيه الصفة لمّا دلّ الحال على موضعها ، وذلك انك تحس في كلام القائل من التطويح ، والتطريح ، والتفخيم ، والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل او نحو ذلك(١).ثم يضيف:فعلى هذا وما يجري مجراه تحذف الصفة ، فاما إن عريت من الدلالة عليها ، من اللفظ ، او الحال ، فإن حذفها (٢) لا يجوز".

ويحذف المفعول ايضاً لدلالة السياق عليه . ومن ذلك قوله تعالى: "واوتيت من كل شئ"(٣) اي اوتيت منه شيئا . وقد حذف الظرف ايضاً لدلالة السياق، قال الشاعر طرفه بن العبد (من الطويل):

فإن مُتُّ فانْعِيني بِما انا اهْلُه وشُقّي عليَّ الجَيْبَ يا ابْنَةَ مَعْبَدِ

اي إن مِت قَبْلَك، وهذا يريده لا محالة ، اذ لا يجوز ان يشرط الانسان موته لانه مائت لا محالة ، وعليه قول الآخر: (من الطويل):

اهيمُ بِعَبْدٍ ما حَيِيْت فإنْ أَمُت اوَكِّلْ بِعَبْدٍ من يهيمُ بها بَعْدي

وعلى هذا قولُه تعالى: "فمن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فلْيَصُمْه"(٤) يريد في مصرٍ فَلْيَصُمْهُ (٥).وقد يشمل الحذف المعطوف، والمعطوف عليه ، والمستثنى في مثل قولهم: "جاءني زيد ليس الا .." او "ليس غير" وهو المثال الذي ذكره سيبويه ، وعزاه لكثرة الدوران والاستعمال(٦) وقد يحذف خبر إن مع النكرة خاصة ، قال الأعشى (من الخفيف).

---

(١) و(٢) الخصائص ٢/٣٧٠ - ٣٧١.

(٣) سورة النمل: الاية ٢٣.

(٤) سورة البقرة: الاية ١٨٥.

(٥) ابن جني: نفسه ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٦) سيبويه: الكتاب ١/٢٨٠.

إن مَحَلاً وإنّ مُرْتَحَلا وإنّ في السَّفْرِ إذْ مَضَوا مَهَلا

أي: أنّ لنا محلاً ولنا مرتحلاً (١). ويحذف التمييز اعتماداً على دلالة الحال، فيقال عندي ثلاثون .. وملكت خمسين لعِلْم السّامعِ بالمراد، اما إذا لم يَعْلَم السامعُ بذلك فلا بد من التمييز، وضابط ذلك غرض المتكلّم ومدارُ الخطاب(٢).

وقد يحذف الحال إذا دلت عليه الدلالة، ففي قوله تعالى "فمن شهد منكم الشهر فليصمه"(٣) قالوا: من شهدَهُ صحيحاً بالغا، فطريقه انه لما دلّت عليه الدلالةُ سَاغ حذفُه تخفيفاً، واما لو عريت الحال من هذه القرينة، وتجرَّد الامرُ دونها، لما جاز حذف الحال على وَجْه (٤).

ولا بدَّ من دليل لفظي يفسّره السياق اللغوي او الحالي لحذف الفعل او الفاعل، فيقال: المرءُ مقتولٌ بمثل ما قُتل به، إن سيفاً فسيف، وإن خنجراً فخنجر. حذفت هنا جُمْلَةُ الفعل وفاعِله، إذ التقدير: ان كان الذي قُتِل به سيفاً فيقتل بسيف.(٥).

وقد يُحذف المفعولُ به لتوفّر الدليل عليه في السياق، ففي قوله تعالى "لا عَاصمَ اليومَ مِنْ امر اللهِ الا مَنْ رَحِم"(٦) قُدّر المفعولُ به لِرَحِمَ لتقدُّم الدّلالةِ عَلَيه في السّياق(٧). وحذف المفعول

(١) الخصائص ٢/٣٧٣.

(٢) نفسه ٢/٣٧٨.

(٣) سورة البقرة، الاية ١٨٥.

(٤) ابن جني، الخصائص ٢/٣٧٨ و٣٧٩.

(٥) نفسه ٢/٣٨٠.

(٦) سورة هود، الاية ٤٣.

(٧) الزمخشري، المفصل، ص ص ٥٣ - ٥٤.

به عند النحويين نوعان: اما لوجود دليل ينم عليه السياق، وهذا يسمى اختصاراً، وإما مع انتفاء الدليل المقالي، ويسمى اقتصاراً. ومن النوع الثاني قوله سبحانه: "ربي الذي يحيي ويميت"(١) وقوله: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"(٢) وقوله: "كلوا واشربوا ولا تُسرفوا"(٣) فالمعنى هنا هو: هل يستوي الذي يتصف بالعلم والذي لا يتصف به، وانه هو الذي يتصف بالإحياء والإماتة، فلم يُحْتَج في مثل هاتِه الجُمل إلى المفعول. اما النوع الاول فمنه قوله تعالى: "ولمَّا وردَ ماء مَدْين وَجدَ عليه امة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امراتين تذودان، قال: ما خطبُكما، قالتا: لا نسقي حتى يَصْدُرَ الرِّعاءُ، وابونا شيخٌ كبيرٌ، فسقى لَهما، ثم تولّى الى الظلِّ، فقالَ: ربِّ اني لما انزلت الى من خَيْرٍ فقير"(٤) فقد حذف فيها المفعول اربع مرات لدلالة الحال عليه (٥).

ومع ان الفاعل ركن اسمي اساسي في التركيب الفعلي الا انه يحذف في انماط معينة من السياق، يتوفر فيها الدليل على وجوده، ومنها اذا بني الفعل للمجهول، وإذا كان المركب الفعلي مصدراً، ومثاله قوله تعالى: "او إطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبَة يتيماً ذا مَقْرَبَة"(٦) فيتيماً مفعول للمَصْدر "إطْعَامٌ"، والمعروف من السياق

---

(١) سورة البقرة، الاية ٢٥٨.

(٢) سورة الزمر، الاية ٩.

(٣) سورة الاعراف، الاية ٣١.

(٤) سورة القصص: الايتان ٢٣ و ٢٤.

(٥) انظر = مغني اللبيب ٦١٢/٢ وانظر السيوطي: الاتقان في علوم القرآن ١٧٣/٣.

(٦) سورة البلد، الاية ١٣.

الحالي ان المُطْعِمُ هو صاحب الكفّارة ، وكذلك إذا اتصل بالفعل واحد من الاشياء التالية : واو الجماعة ، وياء المخاطبة ، ونون التوكيد (١). ويضيف آخرون حذفه في التعجب القياسي من صيغة (افْعِلْ بِـ) لوجود الدليل السابق على الفاعل، كما في قوله تعالى: "اسمعْ بِهِمْ وأبْصِرْ" (٢). وفي الاستثناء المُفرّغ، نحو: ما حضر الا علي. والحالات التي يجوز فيها حذف الفاعل كثيرة جدا. وغالبا ما يعتمد المتكلم في هذه الاحوال على معرفة السامع بالفاعل، وقد يشمل الحذف الفاعلَ وفِعْلَهُ ، كما في قوله تعالى: "وقيل للذين اتقوا: ماذا انزل ربكم؟ قالوا: خيرا" (٣) إذ التقدير انزل (هو) خيرا ، فحذف الفعل وفاعله لِمَا تَقدّم من ذكرهما في السّؤال (٤).

والحذف منه ما يعني به البلاغيون، ومنه ما يعني به النحويون. وقد قسمه ابن هشام الى نوعين: احدهما غير صناعي، وهو الذي يكون فيه الدليل على وجود المحذوف مفهوما من سياق الحال. والثاني صناعي وهو الذي يفسره التركيب اللغوي وسياقه ، وهذا هو النوع الذي يختص بمعرفته النحويون، لانه إنما يعرف من جملة الصيغة النحوية . كقولهم في: "لا اقسم بيوم القيامة" (٥): إذ التقدير لأنا اقسم بيوم القيامة (٦).

---

(١) السيوطي: الاشباه والنظائر ٢/٨٥.

(٢) سورة مريم: الاية ٣٨.

(٣) سور النحل: الاية ٣٠.

(٤) السيوطي: نفسه ٢/٨٦.

(٥) سورة القيامة: الاية (١).

(٦) ابن هشام: مغني اللبيب ٢/٦٠٥.

فالنحوي ينظر في التركيب، فإذا رأى فيه خبرا دونما مبتدأ، أو مبتدأ دونما خبر، أو شرطا بلا جزاء، او معطوفا بلا معطوف عليه، او معمولا بلا عامل، وجب عليه ان ينظر في التركيب لمعرفة المحذوف وبيانه. اما في تراكيب اخرى من مثل قوله: "سرابيل تقيكم الحر" فإنّ تقديره: "الحر والبَرْد" من عمل البيانيين ولا شان للنحويين به (١).

الا ان هذا الذي يؤكد عليه ابن هشام لا يُلزم الجميع، فقد تطرق النحويون إلى النوعين من الحذف، واوْلَوْا الادلّة المُسْتَخْرَجة من سياق الحال اهتماما كبيرا. وقالوا في مثل: (واسال القرية) ان المضاف حُذف لسبق علم المخاطب به وبالمقصود من التركيب(٢) ويقتبس السيوطي في كتابه "الإتقان" من حازم القرطاجنّي وهو من هو في علوم البلاغة والبديع والبيان قوله "انما يَحْسُن الحذفُ لِقوة الدلالة عليه. فقد يعدّد المتكلّم اشياءَ كثيرة يكون في تعداده لها طولٌ وسآمة فيحذف مكتفيا بدلالة الحال على المحذوف، ولهذا يُؤْثَرُ الحذف في المواضع التي يراد بها التعجّب والتهويل على النفوس، كما في قوله تعالى: "حتى إذا جاءوها وَفُتّحت ابوابها" (٣) فحذف الجواب لأن وصف ما يلقونه عند ذلك لا يتناهى، وجعل الحذفَ دليلا على ضيق الصَّدْر من الكلام عن وصف ما يشاهدونه (٤)،وفي ذلك يقول الزمخشري "وهو نوع من دلالة الحال التي لسانها انطق من لسانِ المقال" (٥).

---

(١) نفسه ٢/٦٤٩ - ٦٥٠.

(٢) ابن مضاء القرطبي، كتاب الرد على النحاة، تحقيق د. شوقي ضيف دار المعارف، مصر، ١٩٨٢، ص ٨٥.

(٣) سورة الزمر، الاية ٧٣.

(٤) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ٣/١٧١.

(٥) نفسه ٣/١٧٢.

ويؤكد ابن ابي الربيع في "البسيط" ان الحذف قد يشمل الجملة اذا دل عليها دليل، لأن كلام العرب مبني على الاختصار، وإنما يراد الكلام للابانة والافصاح عن المعنى، فإذا كان المعنى مستدلاً عليه من قوة الكلام فلا يحتاج معها إلى الجُمَل الدالة (١)

وقد تطرق عبد القاهر وهو بلاغي ونحوي الى الحذف، فعني بالنوع الذي ياتي نتيجة دلالة الحال على المحذوف(٢)، وان كان لا يغفل عما سماه بالحذف الصناعي. ومن المعروف ان التداخل بين دراسة النحاة والبلاغيين للتراكيب كان على الدوام تداخلاً كبيراً، وإذا عدنا الى كتاب سيبويه (١٨٠هـ) وجدنا فيه إشاراتٍ كثيرةً مما يدخل تحت اسم البلاغة، وإن كانت شهرَتُه في النّحو قد صرفت الناس عن البحث في الجوانب الاخرى من "الكتاب". ولم يكُن النَّحوُ الذي نعرفه اليوم مستقلاً عن سائر علوم العربية، وإنما كان جزءاً منها، و"الكتاب" ليس كتاباً في النحو حسب، وإنما هو كتاب فيه النحو والصرف والبلاغة والعروض والقراءات والتجويد (٣).

ويتضح من دراسة النحويّين والبلاغيين لظاهرة الحذف في العربية ان التركيب لا يتقرَّرُ مغزاه، او تحليله النحوي، بالنظر الى الظاهر منه، وإنما لا بُدَّ في ذلك من العودة الى التركيب التقديري، الذي يستعيد الدارس فيه ما حُذف، ويُسقط منه الزيادة، ويعيده إلى الترتيب الذي يقتضيه نَسَقُ المعنى في النفس،وهذه نزعة في الدراسة لا بدَّ معها من الاخذ بالبُعد الخارجي للمسائل النحوية

---

(١) ابن ابي الربيع: البسيط في شرح جمل الزجاجي ٥٦٦/١.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز، ص ١٢٠.

(٣) انظر جعفر دك البابا: الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني، مطبعة الجليل، دمشق، ط١، ١٩٨٠ ص ص ٢٥ - ٢٦ وانظر كذلك مازن المبارك: الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، دمشق د ت، ص ص ٥٠ - ٥١.

والتركيبية ومعرفة مراد المتكلم، وعلم المخاطَب بذلك المراد، ويقتضي فوق ذلك وذلك علماً بما يتقدم التركيب من تراكيب اخرى قد تفسر اللاحق، فتكشف عن المُضْمَر وتظهره، وتبينُ المُلْتَبِسَ الغامض وتُفسّره (١).

٧ - المطابقة و التركيب:-

وقد تَحدّث النحاة، كما تحدثوا في الحذف والتقديم والتاخير، عن شئ آخر هو المطابقة. لانه ما من تركيب الا ويتالف من عدة الفاظ تضمها الى بعضها بعضاً علاقة ما، كالاسناد، او الفاعلية. ولابد ان ينشا بين هذه المكونات للجملة تطابق او اختلاف. فمن شان التطابق ان يعبّر عن المظهر الشكلي المتماسك للعبارة في حين ان الاختلاف، اذا لم يكن له مايسوّغه، قد ينمّ على الاضطراب، وقُبْح التاليف. وقد ذكر سيبويه - مثلاً - ان المعرفة لاتوصف إلا بالمعرفة، والنكرة لاتوصف إلا بالنكرة (٢). كذلك ينبغي، في رايه، ان يطابق الموصوف الصفة، سواء كانا نكرتين او معرفتين. فتقول: مررت باخويك الطويلَيْن، او: مررت برجل طويل، لايكون فيهما إلا الجر (٣).

ويضيف ابن السرّاج: من شرط النعت ان يتبع المنعوت في موقعه، وان يطابقه في التعيين والجنس وحركة الإعراب(٤).

ومن شرط المعطوف ان يرد بعد المعطوف عليه، وان يطابقه فيما يطابق النعت المنعوت. فلايسوغ - مثلاً - عطف المضارع على الماضي إلا بقرينة لفظية، تحول المضارع إلى ماض، فيصحّ قولنا: "زيد قام

---

(١) ابن السراج: الاصول في النحو ١/٦٧ - ٦٨.

(٢) سيبويه: الكتاب ٢/٦.

(٣) نفسه ٢/٨.

(٤) ابن السراج: الاصول في النحو ١/٣٢، ٣٣.

امسى ولم يقعد" ولايصح القول: "زيد قام ويقعد". ولا يجوز عطف الظاهر على الضمير المتصل المرفوع حتى يؤكد، فيقال: "قمت انا وزيد". "وقام هو وعمرو" وقال تعالى: "اذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون(١)". (٢)

ويطابق عطف البيان المعطوف عليه في وجوه الإعراب الثلاثة، مع الإفراد، أوالتثنية او الجمع، والجنس، والتعيين وفروعهن. واذا كان له مع متبوعه ما للنعت مع منعوته فقد يكونان مُنكَّرين، كما يكونان مُعرَّفين، نحو: "لبست ثوبا جُبَّةً (٣). ويطابق البدل المبدل منه في الإعراب، ولاتلزم مطابقته في التعيين. فقد تبدل المعرفة من المعرفة، والمعرفة من النكرة، والعكس ايضا، نحو: "لَنَسْفَعَنْ بالناصية، ناصيةٍ كاذبة (٤)" (٥) اما المطابقة في الجنس والعدد فتلزم في بدل الكلّ، مالم يرد مانع من التثنية او الجمع.

والمطابقة بين ركني الجملة، اسمية كانت او فعلية، لاتعتمد على الشكل الظاهر وإنما قد تعتمد على مبدا الحَمْل على المعنى. فإذا اخذنا قوله تعالى: "فلمّا راى الشَّمْسَ بازغةً قال: هذا ربي(٦)". لم يطابق مع اللفظ "بازغة" ولكنه طابق مع ماظنه ربا.

---

(١) سورة المائدة: الاية ٢٤.

(٢) ابن السراج: نفسه ٢/٧٦.

(٣) الاشموني: شرح الفية ابن مالك ٢/٤١٣.

(٤) سورة العلق: الايتان ١٥، ١٦.

(٥) الاشموني: نفسه ٢/٤٣٨.

(٦) سورة الانعام: الاية ٧٨.

وعلى هذا النحو خُرِّجَت الآية : "إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين"(١). فقد عنى بالرحمة هنا المطر، ولذلك جاء بالخبر "قريب" مذكراً حملاً على المعنى. والامثلة على ذلك كثيرة(٢).

وقد اختلف النحاة والبيانيون في مسالة المطابقة بين ركني الجملة الاسمية، وهما: المسند والمسند إليه، او المبتدا والخبر. وذهب اكثر النحاة إلى ضرورة المطابقة لاسيما اذا تقدم المسند إليه. واضطر البصريون إلى اعراب جملة "اقائم الزيدان" بقولهم: "قائم" فاعل سدَّ مَسدّ الخبر تَخلُّصاً من مظهر انعدام المطابقة. لان خبرية الكلمة تقتضي تثنيتها فيقال: اقائمان الزيدان(٣).

واكثر النحاة على تطابق المبتدا والخبر من حيث الجنس والعدد مع جواز المخالفة من حيث التعيين في حالات محددة ذات قرائن سياقية معروفة. وقد تناول النحاة هذه القرائن تحت باب مسوّغات الابتداء بالنكرة وما شاكل ذلك.

---

(١) سورة الاعراف، الآية ٥٦.

(٢) ابن جني، الخصائص ٢/٤١٢ وانظر ص ٤١٥ و ٤٣٥.

(٣) انظر = مصطفى جمال الدين، البحث النحوي عند الاصوليين، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠، ص ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

خلاصة الفصل الرابع

نستخلص مما تقدم انّ النحاةَ العرَب في دراستهم للتراكيب، اخذوا بعين الناظر المتامل عواملَ خارجيّةً تؤثر في نظم العبارة، وصناعة الكلام، واتّساق عناصِر التركيب اللغويّ ومكوناتِه المباشرة اتساقاً يقوم على حُسْن العلاقاتِ التاليفية وانسجامها. وقد اعتمد اللغويونُ العربَ على هذه العوامل في تعريفِهم للجملة، والتمييز بين انواع الجُمل، من صغيرةٍ وكبيرة، وشرطية وغيرِ شرطية، وما بين هذه الاجزاء من علاقات إسنادية تشدُّ مكونات التركيب بعضها إلى بعض، وقد استخدم النحاةُ الإعراب وسيلةً لتحليل الجملة تحليلاً وظيفيّاً إلى مكوناتها الاساسية بحسب الموقع.

وقد لُوحظ أن العلاقات النحوية بين مكونات العبارة قد تتغير تبعاً لمراد المتكلم، او مستخدم اللغة عامة من منشئ وغيره، مع تجاوز العلاقات الاساسية التي يوجّهها النظام المثالي لنحو اللغة إلى ابتكار علاقات جديدة: كالإظهار بدل الإضمار، والحذف بدل الذكر، والتقديم بدل التاخير، او التاخير بدل التقديم، والمخالفة بدل المطابقة، والفصل بدلاً من الوصل، وما إلى ذلك من علاقات تناولناها في أثناء كلامنا عن العلاقات التاليفية.

ولم تفارق النحويين العرب في دراستهم لهذه العلاقات، وحديثهم عنها، نزعة الاحتكام إلى القرائن المختلفة لتفسير الوجوه النحوية التي تتجلى في التراكيب، سواء أكانت قرائن لفظية، ماخوذة من مكونات التركيب نفسه، أم مُقدّرة باللجوء إلى البنية

(الجوانية) للتركيب Deep Structure، أم حالية بالخروج عن مواصفات التركيب النحوي ذاته، إلى الاندماج بالمحيط الخارجي والاجتماعي للحَدَث الكلامي، بالإشارة إلى علم المخاطب، أو كثرة الاستعمال، وشيوع النمط من التركيب ودورانه على اللسان، وما شاكل ذلك من عوامل هي ادخل في باب سياق الحال Context of Situation منها في باب سياق المقال.

الخاتمـــة

لئن كانت الوظيفة الاساسية لعلم اللغة هي تحليل مستويات الخطاب من صوتية ودلالية وتركيبية فإن نظرية السياق Theory of Context تقوم اساساً على تحليل الحدث الكلامي إلى ركائز اساسية يشغل السياق بنَوْعيهِ المقالي والحالي حجرَ الزاوية فيها. وعلى الرغم من تنوع النظريات اللغوية الحديثة فإن القاسم المشترك الذي يوحدها-كما اوضحنا-الحاحُها جميعاً على مكانة السياق ودوره في فهم الخطاب وانتظامه واتساقه وفقاً للقواعد والاسس التي تحتمها طبيعة النظام اللغوي.

واذا كان اللغويون يتفاوتون فيما بينهم من حيث الاتكاء على السياق، ولاسيما سياق الحال Context of situation مثلما هو الشان عند فيرث Firth وتلاميذه فإن اللغويين العرب قد اولوا هذا السياق عنايتهم الكبيرة، واهتمامهم الشديد، وإن كان هذا الاهتمام وهاتيك العناية يردان بشكل متناثر ومشتت في دراساتهم اللغوية في مجالات فقه اللغة ونحوها ومعاجمها ومصنفاتها المختلفة، تساندهم في هذا آراء متناثرة نجدها لدى الكلاميين والاصوليين والبلاغيين والمتخصصين بفنون التلاوة والقراءات والتجويد.

وهذا الذي يتضح من اهمية السياق ومكانته في الدرس اللغوي بصفة عامة يتجلى في ثلاثة مستويات تناولتها هذه الدّراسةَ بالتفصيل وهي: المستوى الصوتي، ثم المستوى الدلالي، واخيراً المستوى التركيبي.

وقد استخلصنا من الفصل الثاني نتائج على جانب كبير من القيمة، وهي أن اللغويين العرب لمسوا بكيفية واضحة ودقيقة القوانين المتحكمة في التغيُّر النُّطقي للأصوات بحسب السياق، وعرفوا تأثير المخرج في المخرج، وقانون الغلبة للأقوى، والعلائق التاليفية بين الأصوات، وكذلك علاقات الفصل والوصل وماشاكل ذلك من عوامل تؤثر في ظواهر صوتية كالمماثلة، والإبدال الحركي، والإعلال، والتحريك والزيادة، والحذف، مما يقع في إطار مايعرف بالبحث الفونولوجي. وهذا يجعلنا نتفق مع بعض المستشرقين الذاهبين إلى القول بتفوق اللغويين العرب القدماء في مجال الدراسة الفونولوجية.

أما في مجال الدلالة فقد استخلص البحث في فصله الثالث المكانة الجليلة التي أحلها اللغويون العرب للسياق ومعرفتهم الواسعة بوظائفه الدلالية من حيث انه المعيار الأول والأخير للتمييز بين دلالات الألفاظ المشتركة والألفاظ الأضداد، وهو من العوامل المتحكمة في طرائق تصنيف الألفاظ وتبويبها بحسب المعاني والموضوعات، لأن وجود اللفظ إلى جانب لفظ آخر يُستخدمان في سياق يُعزّز القيمَ الدلالية المتميّزة لكل منهما. ولاحظ البحث بشئ من التقدير سَبْق اللغويين العرب لمعرفة مايسمى بالحقول الدلالية Fields Semantic وإن كان استعمالهم لها لايرقى إلى درجة استعمال الغربيين من حيث الدّقةُ والتخصُّصُ والموضوعيّةُ العلميةُ المتجرّدة.

ومن الواضح أن مستويَيْ الدرس اللغوي: الصّوتي والدلالي خطوتان باتجاه معرفة التراكيب. لأن التواصُلَ الإنساني بواسطة اللغة لايتحقق بالأصوات وحدها، ولا بالألفاظ وحدها، وإنما لابد من التركيب الذي

يقوم على ايجاد علاقات اسنادية من نوع مابين الالفاظ. وهذا هو الموضوع الذي دار الكلام عليه في الفصل الرابع والاخير من هذا البحث. وقد استخلص البحث نتائج تؤكد ماسبق إليه باحثون آخرون من حيث أن النحاة العرب درسوا بالتفصيل الدقيق الظواهر المختلفة للتراكيب في العربية، ودرسوا الجملة واقسامها وانواعها، وتطرقوا في دراستهم إلى ظواهر سياقية تكلم عليها المحدثون كالحذف والتقديم والتاخير والزيادة وتلازُم العناصر المكونة للتركيب، ومطابقة اجزاء الجُمْلة واحتياج بعضها إلى بعضها الآخر. وهذا، او أكثره مما تطرق إليه الباحثون المحدثون في دراستهم للتراكيب. وكشفَ البحثُ عن تلمُّس اللغويين والبلاغيين العرب لبعض القواعد التحويلية والتوليدية في النحو مما يؤكد - مرة اخرى - كَوْنَ الدراسات النحوية العربية ليست مُجافيةً تماماً لمعطيات النظريات اللغوية الحديثة في نظرتها إلى النَّظم وانواع التركيب.

وكشفت هذه الدراسة من خلال المقارنات بين مايقوله المحدثون الغربيون وما قاله اللغويون العرب عن عمق النظرة العربية إلى اللغة ونحوها وانظمتها الصوتية والدلالية. وهي - مع ذلك - لاتدّعي الإحاطة الكاملة بالجوانب المختلفة للموضوع، اذ المعروف ان مثل هذه القضية لاتشبعها دراسة ولا دراستان، وهي في احوج ماتكون إلى عناية الباحثين والدارسين الذين يواصلون الدَّرْسَ ويُغْنُون البَحْث.

ABSTRACT

This thesis concerns about a significant topic among those essential ones in linguistics. The scholar research, in his introduction, points to the existence of new currents depending on the analysis of the different levels of speech in the linguistic research. The most preeminent of the presentative of this view is the British linguist "Firth".

The scholar research emphasizes that this theory is originated from the Arab linguistic tradition. To prove that, the scholar research secludes the effect of the context upon the Arabs linguists in dealing with the levels of the research.

In the first chapter, the scholar research explained the penetration of the context in the linguists dealing with the various linguistical matters introduced to them. He specializes the second chapter to deal with the effect of the context up on phonetics, in other words the changes that occurs in pronunciation and articulation of phonemes and allophones. He talks about the analysis of the Arab linguists like Seibeweyh and Bin Jinni for these phonological phenomena to find out that it doesn't differ much from the views of the western linguists.

In the third chapter, he deals with a significant matter. It is the role and the effect of the text up on the indicatable

research by showing the most significant preeminent indicatable functions of the text. Besides that, he shows the Arab linguists attitude, and the features of their research in the aspect of phonetics in contextual tendency which left on obvious effect upon the body of the Arabic lexi-con.

While in the fourth chapter, he deals with the textual effect upon the structure, the pattern of the phrase, the view of concerning about the joining and connection of the sentence and the relation between its parts, mentioned by the linguists of syntax and eloquence. He concludes from his research that Arab linguists depend on psychological, social and textual basis related to the personality of the speaker and listener, in the analysis, dividing and studying the sentence functionally, and syntactically. In addition to the party of the linguistic structure which is fittable with the most modern structure linguistic theories in descriptive grammar and syntactic rules.

The scholar research concludes his fourth chapter with a short conclusion containing the results of his research following that with exclusively mentioning the references of his information from the Arabic researches, the foreign books and those translated to Arabic.

أولاً: المصادر

١ - ابن ابي الربيع (-٦٨٨):

البسيط في شرح جمل الزجاجي، تحقيق عياد بن عيد الثبيتي، دار الغرب، الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٦.

٢ - الاشموني، نور الدين (٩٢٩هـ):

شرح الفية ابن مالك، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٥٥.

٣ - الأصمعي (عبد الملك بن قريب) ٢١٦هـ:

الأضداد، تحقيق المستشرق هفنر ضمن مجموعة: ثلاثة كتب في الاضداد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٣.

٤ - الازهري (٣٧٠هـ):

تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هرون، مصر، ١٩٦٤.

٥ - ابن الأنباري، محمد بن القاسم، ابو بكر (٣٢٧هـ):

ايضاح الوقف والإبتداء، تحقيق: محي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط ١، ١٩٧١.

٦ - نفسه: الاضداد، - تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط ١، ١٩٨٧.

٧ - ابن الأنباري، عبد الرحمن، ابو البركات (٥٧٧هـ):

الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، طبعة مصورة بالأوفست عن المكتبة التجارية الكبرى بمصر، بلا تاريخ.

٨ - الباقلاني، ابو بكر (٤٠٢هـ):

إعجاز القرآن، تحقيق سيد صقر، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٧٢.

٩ - التبريزي (الخطيب) ٥٠٢هـ :

تهذيب اصلاح المنطق، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.

١٠- ابن تيمية (٧٢٨هـ):

اقتضاء السراط المستقيم مخالفة اهل الجحيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، د ت.

١١- ثابت بن ابي ثابت: (القرن الثالث الهجري)

خَلْقُ الإنسان، تحقيق: عبد الستار فراج، وزارة الإرشاد، الكويت، ط ١، ١٩٦٥.

١٢- الجاحظ، عمرو بن بحر (ابو عثمان) ٢٥٥هـ :

البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هرون، مكتبة الخانجي، مصر، والمثنى ببغداد، ط ٢، ١٩٦٠.

١٣- الجرجاني، عبد القاهر (٤٧١هـ):

دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة، بيروت، ١٩٨١.

١٤- الجرجاني، الشريف (٨١٦هـ):

كتاب التعريفات، تحقيق غوستاف فلوجل، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٥.

١٥- ابن الجزري، محمد (٨٣٣هـ):

تقريب النشر في القراءات العشر، تحقيق ابراهيم عوض، مصر، ط ١، ١٩٦١.

١٦- ابن جني، ابو الفتح (٣٩٢هـ):

الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت.

١٧- نفسه: سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء العلوم، مصر، ط ١، ١٩٥٤.

١٨- نفسه: المحتسب في تبيين وجوه القراءات الشاذة، تحقيق: علي ناصف وآخرين، د ن، القاهرة، ١٣٨٩ هـ.

١٩- نفسه: اللُّمع في العربية، تحقيق فايز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت، ١٩٧٢.

٢٠- نفسه: المُنْصِف، وهو شرح كتاب التصريف للمازني، تحقيق ابراهيم مصطفى، مصر، ١٩٥٤.

٢١- الجوهري، اسماعيل بن نصر (٤٠٠هـ):

الصحاح، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤.

٢٢- ابن الحاجب: (٦٤٦هـ):

الأمالي النحوية، تحقيق د. عدنان مصطفى، دار الثقافة، الدوحة - قطر، ط ١، ١٩٨٦.

٢٣- الحطيئة ، جرول بن اوس : (نحو ٤٥هـ):

ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت، تحقيق: نعمان طه ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي،مصر ، ط ١، ١٩٥٨.

٢٤- ابن حزم الاندلسي (٤٥٦هـ):

الإحكام في اصول الاحكام ، تحقيق احمد محمد شاكر ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣.

٢٥- ابن خالويه (٣٧٠هـ):

الحجة في القراءات السبع، تحقيق عبد العال مُكرّم ، دار الشروق، بيروت، ١٩٧١.

٢٦- الخليل بن احمد الفراهيدي (١٧٥هـ):

كتاب العين، تحقيق د. ابراهيم السامرائي ومهدي المخزومي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط ١، ١٩٨٠.

٢٧- نفسه : الجمل في النحو (كتاب منسوب إليه)، تحقيق: فخر الدين قباوة ، بيروت، ط ١، ١٩٨٥.

٢٨- ابن الدقيقي النحوي (٦١٤هـ):

اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحيى عبد الرؤوف جبر، دار عمّار للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ١٩٨٥.

٢٩- الرازي، ابو حاتم (٣٢٢هـ):

الزينة في الكلمات الاسلامية ، تحقيق حسين بن فضل الله الهمذاني، القاهرة ، ط ٢، ١٩٥٧.

٣٠- الرمّاني، ابو الحسن (٣٨٤هـ):

الالفاظ المترادفة، تحقيق فتح الله المصري، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط ١، ١٩٨٨.

٣١- الزجاجي (٣٣٧هـ):

كتاب اللامات، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥.

٣٢- الزركشي (بدر الدين) ٧٩٤هـ:

البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعرفة، بيروت، د ت.

٣٣- الزمخشري، محمود بن عمر، ابو القاسم (٥٣٨هـ):

اساس البلاغة، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٧٩.

٣٤- نفسه: المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، ط ٢، د ت.

٣٥- ابن الزَّمْلَكاني، عبد الواحد (٦٥١هـ):

التبيان في علم البيان، تحقيق احمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٩٦٤.

٣٦- ابن السكيت، يعقوب (٢٤٤هـ):

تهذيب الالفاظ، ضبط وتحقيق الاب لويس شيخو، المطبعة الكاثولوكية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٥.

٣٧- نفسه: اصلاح المنطق، تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ط ٢، ١٩٥٦.

٣٨- سيبويه ، بن قنبر (١٨٠هـ):

الكتاب، تحقيق عبد السلام هرون، عالم الكتب، بيروت، بلا تاريخ.

٣٩- ابن السراج، ابو بكر (٣١٦هـ):

الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتيلي، بيروت، ط ١، ١٩٨٥.

٤٠- ابن سيده (٤٥٨هـ):

المخصص، المكتب التجاري، بيروت، بلا تاريخ.

٤١- سيف الدين الآمدي (٦١٣هـ):

الإحكام من ادلة الاحكام، دار المعارف، مصر، ١٩١٣. طبعة مصورة عنها بالاوفست لدار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

٤٢- نفسه: الكتاب المُبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلّمين، تحقيق عبد الأمير الاعسم، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٧.

٤٣- السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ):

الاشباه والنظائر في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٤.

٤٤- نفسه: المُزْهر في علوم اللغة وآدابها، تحقيق محمد المولى وآخرين، صيدا، لبنان، ١٩٨٦.

٤٥- نفسه : الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط ١، ١٩٨٣.

٤٦- الشافعي، محمد بن إدريس (٢٠٤هـ):
الرسالة، تحقيق احمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ.

٤٧- ابو شامه المقدسي: (٦٦٥هـ):
المرشد الوجيز إلى علوم تتعلّق بكتاب اللة العزيز، تَحقيق طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٧٥.

٤٨- شرفُ الدين الطّيْبي (٧٤٣هـ):
التّبيان في علم المعاني والبديع والبيان، تحقيق هادي الهلالي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٧.

٤٩- شَهاب الدّين القَسْطلاني (٩٢٣هـ):
لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق عامر عثمان وعبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ط ١، ١٩٧٢.

٥٠- الشهرستاني (٥٤٨هـ):
المِلل والنّحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٤.

٥١- ابن شيث القرشي (٦٢٥هـ):
معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨.

٥٢- ابن الطحان الاشبيلي، عبد العزيز بن علي (٥٥٩هـ):
مخارجُ الحروف وصفاتُها، تحقيق محمد يعقوب تركستاني، بيروت، ط ١، ١٩٨٤.

٥٣- ابو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي (٣٥١هـ):
الإتباع، تحقيق عز الدين التنوخي، مَجْمَعُ اللغة العربية، دمشق، ط ١، ١٩٦١.

٥٤- ابن عَبْد البرّ النّمْري القُرطبي (٤٦٣هـ):
جامع بيان العلم وفضله، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.

٥٥- عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (٣٣٧هـ):
الالفاظ الكتابية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ١، ١٩٨٠.

٥٦- ابو عُبَيْد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ):
كتاب السلاح، تحقيق د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥.

٥٧- ابو علي الفارسي (٣٧٧هـ):
الحجة للقرّاء السَّبعة، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاني، دار المامون للتراث، دمشق، ط ١، ١٩٨٤.

٥٨- ابو علي القالي (٣٥٠هـ):
البارع في اللغة، تحقيق هاشم الطعان، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٧٥.

٥٩- ابو عمرو الداني (٤٤٤هـ):

التيسير في القراءات السبع، تحقيق اوتوبرتزل، اسطنبول، ١٩٣٠.

٦٠- ابو عمرو الشيباني: (٢١٣هـ):

كتاب الجيم، تحقيق فيرنَرْ رِمْ، ترجمة محمد حسين الشمّاع، الرياض، ط ١، ١٩٨٠.

٦١- الغزالي، ابو حامد (٥٠٥هـ):

المستصفى من علم الأصول، المطبعة الاميرية، ١٣٢٢هـ.

٦٢- الفارابي، اسحق بن ابراهيم (٣٥٠هـ):

ديوان الادب، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، ط ١، ١٩٧٤.

٦٣- ابن فارس، احمد (٣٩٥هـ):

الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويحي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٣.

٦٤- الفيروز آبادي (٨١٦هـ):

القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.

٦٥- القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ):

المُغْني في ابواب التَّوحيد والعَدل، تحقيق:محمد امين الخولي، القاهرة، ط ١، ١٩٦٠.

٦٦- قدامة بن جعفر (٣٢٨هـ):

جواهر الالفاظ، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥.

٦٧- القزويني، الخطيب (٧٣٩هـ):

الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٥، ١٩٨٠.

٦٨- نفسه: التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٣٢. وهو تاريخ المقدمة.

٦٩- القفطي، علي بن يوسف (٦٢٤هـ):

إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٨٦.

٧٠- كُراع النمل، ابو الحسين الهناني (٣١٠هـ):

المنجَّد في اللغة، تحقيق د. احمد مختار عمر، وضاحي عبد الباقي، عالم الكتب، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٨.

٧١- المبرد، ابو العباس، محمد بن يزيد (٢٨٦هـ):

الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار النهضة بمصر، ط ١، بلا تاريخ.

٧٢- ابو محمد حسن بن عبد الرحمن (القرن الرابع):

خَلْقُ الإنسان، تحقيق احمد خان، معهد المخطوطات العربية، الكويت، ط ١، ١٩٨٦.

٧٣- المرادي، بدر الدين الحسن بن قاسم (٧٤٩هـ):

رسالة في جُمَل الإعراب، تحقيق د. سهير خليفة، مصر، ط ١، ١٩٨٧.

٧٤- ابن مضاء القرطبي (٥٩٢هـ):

كتاب الرد على النحاة، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٨٢.

٧٥- ابن منظور، جمال الدين (٧١١هـ):

لسان العرب، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

٧٦- ابن هشام النحوي (٧٦١هـ):

شرح شذور الذهب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، القاهرة، بلا تاريخ.

٧٧- نفسه: مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، احياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.

٧٨- ابو هلال العسكري (٣٩٥هـ):

الفروق في اللغة، تحقيق لجنة احياء التراث العربي، دار الافاق الجديدة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٠.

ثانيا: المراجع العربية

٧٩- ابراهيم انيس:

الأصوات اللغوية، مصر، ط ٥، ١٩٧٩.

٨٠- ابراهيم السامرائي:

التطور اللغوي، دار الأندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٨١.

٨١- احمد المتوكل:

دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٨٦.

٨٢- احمد مختار عمر:

- دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٧٦.

٨٣- نفسه: - علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط ١، ١٩٨٢.

٨٤- نفسه: - البحث اللغوي عند الهنود واثره على اللغويين العرب، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٧٢.

٨٥- احمد مطلوب:

معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ط ١، ١٩٨٣.

٨٦- تمّام حسان:

- الأصول، دراسة إبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٢.

٨٧- نفسه : - اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، طبعة مصورة عن طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢.

٨٨- جعفر دك الباب:

الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، مطبعة الجليل، دمشق، ط ١، ١٩٨٠.

٨٩- حاتم الضامن:

نظرية النظم، وزارة الإعلام، بغداد، ط ١، ١٩٧٩.

٩٠- حسن نعيم:

قصة الإنثروبولوجيا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط ١، ١٩٨٦.

٩١- حلمي خليل:

العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٨.

٩٢- نفسه: الكلمة - دراسة لغوية ومعجمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٠.

٩٣- خليل ابراهيم عطية:

في البحث الصوتي عند العرب، دار الجاحظ للنشر والتوزيع، بغداد، ط ١، ١٩٨٣.

٩٤- خليل عمايرة:

في نحو اللغة وتراكيبها، عالم الفكر للنشر والتوزيع، جدة، ط ١، ١٩٨٤.

٩٥- زكريا ابراهيم :

مشكلة البِنْيَة ، مصر ، ط ٢ ، ١٩٧٦ .

٩٦- سعد مصلوح :

دراسة السمع والكلام ، عالم الكتب، مصر ، ط ١ ، ١٩٨٠ .

٩٧- السيد احمد عبد الغفار :

التصور اللغوي عند الاصوليين، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٨١ .

٩٨- صلاح فضل :

البنائية في النقد الادبي، مكتبة الإنجلو - مصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٨ .

٩٩- طاهر حموده :

ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٨٨ .

١٠٠- نفسه : نظرية المعنى عند الاصوليين ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط١ ، ١٩٨٣ .

١٠١- عادل فاخوري :

اللسانية التوليدية والتحويلية ، منشورات لبنان الجديد ، بيروت، ط ١ ، ١٩٨٠ .

١٠٢- عبد الحميد ابو سكين :

التجويد والاصوات العربية ، مطبعة الامانة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٣ .

١٠٣- عبد السلام المسدي:

الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ١، ١٩٧٨.

١٠٤- عبد الصبور شاهين:

في التطور اللغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥.

١٠٥- نفسه: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، دار القلم، مصر، ط ١، ١٩٦٩.

١٠٦- عبد الفتاح شلبي:

في الدراسات القرآنية واللغوية - الإمالة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٥٧.

١٠٧- عبد الكريم مجاهد:

الدّلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ١٩٨٥.

١٠٨- عبد العلي الودغيري:

المعجم العربي بالاندلس، مكتبة المعارف، الرباط، ط ١، ١٩٨٤.

١٠٩- عبد اللطيف الصوفي:

اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٦.

١١٠- عبد الوهاب ابو صفية :

دلالة السياق - منهج مامون في تفسير القرآن الكريم ، د ن ، عَمّان ، ط ١ ، ١٩٨٩ .

١١١- عبده الراجحي:

النحو العربي والدَّرْس الحديث، دار النهضة العربية ، بيروت، ط ١ ، ١٩٧٩ .

١١٢- نفسه : فِقهُ اللغة في الكتب العربية ، دار النهضة ، بيروت، ط ١ ، ١٩٧٩ .

١١٣- غالب فاضل المطلبي:

في الأصوات اللغوية - دراسة في اصوات المد العربية ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٨٤ .

١١٤- فهمي حسين النمر :

ظاهرة المجاورة في الدراسات النحوية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٥ .

١١٥- كمال بشر :

علم اللغة العام - الأصوات، دار المعارف، مصر ، ط ٢ ، ١٩٨٦ .

١١٦- مازن المبارك:

الموجز في تاريخ البلاغة ، دار الفكر ، دمشق ، دت.

١١٧- مازن الوعر :

قضايا أساسية في علم اللسان ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٨ .

١١٨- محمد ابراهيم عُبادَة :

الجملة العربية - دراسة لغوية ونحوية ، منشاة المعارف بالإسكندرية ، ط ١، ١٩٨٤.

١١٩- محمد ابو موسى:

دلالات التراكيب - دراسة بلاغية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١، ١٩٧٩.

١٢٠- محمد احمد ابو الفرج:

دراسات في المعجم العربي، دار النهضة ، دم ، ط ١، ١٩٦٦.

١٢١- محمد امين فاخر:

دراسات في المعجم العربي، مطبعة حسان، مصر ، ط ١، ١٩٨٥.

١٢٢- محمد حسين آل ياسين:

رسالة الاضداد للمنشئ، مكتبة الفكر ، بغداد ، ط ١، ١٩٨٥.

١٢٣- محمد داود عبده :

دراسات في علم اصوات العربية ، مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع ، الكويت، بلا تاريخ.

١٢٤- محمد علي الخولي:

الاصوات اللغوية ، مكتبة الخريجي، الرياض، ط ١، ١٩٨٧.

١٢٥- نفسه : قواعد تحويلية للغة العربية ، دار المريخ ، الرياض، ط ١، ١٩٨٢.

١٢٦- نفسه : معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، ط ١، ١٩٨٢.

١٢٧- محمد مندور :

النقد المنهجي عند العرب، دار النهضة ، مصر ، بلا تاريخ.

١٢٨- محمود فهمي:

مدخل إلى علم اللغة ، دار الثقافة ، مصر ، ط ٢، ١٩٨٦.

١٢٩- مصطفى جمال الدين :

البحث النحوي عند الاصوليين، دار الرشيد للنشر، بغداد ، ١٩٨٠.

١٣٠- مصطفى لطفي:

اللغة العربية في إطارها الإجتماعي، معهد الإنماء، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢.

١٣١- مصطفى ناصف:

نظرية المعنى في النقد العربي، دار الاندلس، بيروت، د ت.

١٣٢- ميشال زكريا :

الالسنية - المبادئ والإعلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣.

١٣٣- نهاد الموسى:

نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٠.

ثالثاً: المقالات

١٣٤- سعيد الغانمي:

الإستعارة عند ياكبسون، الاقلام العراقية، بغداد، ع ٣، آذار - مارس، ١٩٨٨.

١٣٥- محمد سامي انور:

علم الأصوات في القرن العشرين، مجلة "عالم الفكر"، الكويت، مجلد ١٨، ع ٣، س ١٩٨٧.

رابعاً: المراجع المترجمة

١٣٦- ارسطو:

الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٠.

١٣٧- انطوان مِيّيه:

مقالة في علم اللسان، ترجمة دكتور محمد مندور، جزء من كتابه النقد المنهجي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، ط ٥، د ت.

١٣٨- بيير جيرو:

علم الدلالة، ترجمة د. منذر العياشي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٦.

١٣٩- جان كانتينو:

دروس في علم اصوات العربي، ترجمة صالح قرمادي، الجامعة التونسية، تونس، ط ١، ١٩٦٦.

١٤٠- جون لاينز:

اللغة والمعنى والسياق، ترجمه عن الإنجليزية د. عباس صادق، دار الشؤون الثقافة، بغداد، ط ١، ١٩٨٧.

١٤١- دو سوسير:

محاضرات في الالسنية العامة، ترجمه عن الفرنسية د. يوسف غازي ومجيد نصير، دار النعمان، جونيه، لبنان، د ت.

١٤٢- ريتشاردز (A.M.R.):

مبادئ النقد الادبي، ترجمه عن الإنجليزية د. مصطفى بدوي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٣.

١٤٣- شومسكي، نوم:

البنى النحوية، ترجمة يؤيل عزيز، بغداد، ط ١، ١٩٨٧.

١٤٤- غراهام هو:

الأسلوب والأسلوبية، ترجمة كاظم سعد الدين، بغداد، ١٩٨٥.

١٤٥- فُليرنَرْ دِمْ (محقق ومترجم):

كتاب الجيم لابي عمرو الشيباني، نقله إلى العربية محمد حسن الشماع، الرياض، ط ١، ١٩٨٠.

١٤٦- فندريس، جوزيف:

اللغة، ترجمة احمد القصاص وعبد الحميد الدواخلي، مكتبة الإنجلو - المصرية، القاهرة، ١٩٥٠.

١٤٧- كوندراتوف:

اصوات وإشارات، دراسة في علم اللغة، ترجمه عن الإنجليزية إدوار حنا، وزارة الإعلام، بغداد، د ت.

١٤٨- مالمبرج، بارطيل:

الصوتيات، ترجمة د. محمد حلمي هليل، المعهد الدولي للغة العربية، الخرطوم، ط ١، ١٩٨٥.

١٤٩- ماريو باي:

اسس علم اللغة، ترجمة د. احمد مختار عمر، طرابلس، ليبيا، ط ١، ١٩٧٢.

١٥٠- هِدْسُن:

علم اللغة الإجتماعي، ترجمة محمود عبد الغني عياد، مراجعة عبد الامير الاعسم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ١، ١٩٨٧.

١٥١- هنري لوفيفر:

اللسان والمجتمع، ترجمة مصطفى صالح وزارة، الثقافة، دمشق، ١٩٨٣.

٣٩١٤١٧

خامساً: المراجع الاجنبية

152- Boulton, Marjorie,

The Anatomy of Language, Routledge and Kegan Paul, London, 1978.

153- Caulthard, Malcolm,

An Introduction to to Discourse Analysis, Longman, 6 th Pub, 1983.

154- Chomsky, Noam,

Syntactic Structures, Mouton and Co. Paris, 6 th pri, 1966.

155- Firth. J. R,

Papers in Linguistics, Oxford University Press, London, 1964.

156- Firth,

The Tongues of Men and Speech, Oxford University Press, London, 2 nd ed, 1966.

157- Gordon. W. Terreace,

A History of Semantics, in Studies in the History of Linguistics, Vol 30, John Benjamin Publishing Co. Amsterdam., 1982.

158- Hamboldt, Wilham Van,

Conception of Linguistics Relativity, Roger Brown, Muton, 1967.

159- Jack, Richards,

Longman Dictionary of Applied Linguistics, Longman, London, 1 st Pub, 1985.

160- Jakobson, Roman,

Six Lixtures on Sounds and Meaning, Translated from Frensh by John Mepham, The Harvester Press.1 st ed, 1978.

161- John Haywood,

Arabic Lexicography, Brell, Lieden, 1st Pub, 1960.

162- Jounathan Culler,

Saussure, The Harvester Press, Britain, 1977.

163- Kother and Light, (editors)

The world of words, Boston, U.S.A, 1978.

164- Manfried, Bierwish,

Modern Linguistics, Mouton, & Co. Hungary, 1971.

165- Miller, Goerge,

Language and Communication, Neryork, 1 st Pub, 1963.

166- Mitchell. T. F,

Principles of Firthian Linguistics, Longman Group, London, 1 st Pub, 1975.

167- Palmer,

Semantics, Cambridge University Press, Cambridge, 1 st, 1976.

168- Sapir, Edward,

Language, Newyork, 1949.

169- Saville - Troike,

The Ethnography of Communication, An Introduction. Basil Blackwell, Oxford, 1st ed, 1982.

170- The Oxford English Dictionary, London, 1978.

171- Todorov - Durcort,

Encyclopedic Dictionary of the science of Language, Oxford, Blackwell Reference, 1969.

172- Vachek, Josef,

The Linguistic School of Prague, An Introduction to it's Theory and Practice, Indiana University Press, Bloomington, London, 2 nd Pri, 1970.

173- Wardhough, Rounald,

Introduction to Linguistics, 2 nd ed, 1977.